غربة إيجابية ولمعة فنية في قصيدة شوكانية

لم يكن ممكناً الدخول في عالم نص الشوكاني هذا إلا من خلال مفاتيح مركبة تلتحم فيها أسنان الشكل بأسنان المضمون والمغزى والروح والموقف. ومع ذلك تبقى هناك دائماً استدراكات نقدية لابد من إيرادها ولو إقحاماً.

الدكتور حسام الخطيب
جامعة قطر - الدوحة

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

يقدم الدكتور حسين عبدالله العمري، محقق ديوان «أسلاك الجوهر للشوكاني»، هذا العالم الجليل ذا الجوانب المتعددة، بالعبارة التالية: «محمد بن علي بن محمد بن عبدالله الشوكاني الصنعاني (١١٧٣ - ١٢٥٠ هـ/ ١٧٦٠ - ١٨٣٤ م) علامة، فقيه، أصولي، محدث، مفسر، محقق، ناقد، لغوي، مؤرخ، أديب، قاض، مصلح، سياسي»(١). ولايظهر من بين هذه الصفات ذات الوزن أن الشوكاني شاعر وزن. ولكن العمري - كما هو متوقع - يسارع إلى التأكيد بعد هذا التقديم مباشرة أنه مهتم هنا بالشوكاني الأديب والشاعر. ولعله يقدم سبباً خفياً لعدم إضافة صفة الشاعر لسائر صفات هذا الرجل العظيم، مفاده أن شعر الشوكاني لا ينفصل عن سائر الصفات الأخرى، فمعظم شعره «شعر العالم، الناقد واللغوي، المصلح، المجتهد، المحارب للجهالة والتعصب، الداعي إلى الحرية والتحرر من ربقة المذهبية الضيقة والتقليد الأعمى، الناقم على طغيان الحكام وجور الولاة وارتشاء القضاة وفساد الموظفين...»(٢).

ونحسب أن هذين الاقتباسين من العمري يغنيان المرء عن أي تقديم آخر للشوكاني في مثل المقالة الحالية التي تحصر نفسها بدراسة شعره، كما أنهما يبينان أن الشعر لم يكن هماً أول بل ولا هماً رئيسياً للشوكاني، وإنما كان ضرباً من النشاط الفكري الكمالي، يفزع إليه الشيخ المثقل بالأعباء، لينفث غليلاً، أو ينفّس عن كرب، أو يسلك في خيط

النُّظم فكرة استعصى عليها أي مقام آخر غير الشعر، أو يدافع عن نفسه في وجه الحساد والنمامين والمفسدين، أو يبين منهجه في العلم والتقى والصلاح، أو - أخيراً - ليعبر عن خلجة نفس، أو التماعة فكرة شاردة، أو التقاطة مشهد مفاجىء من طبيعة أو ممارسة يومية. وكان الشوكاني في كل ذلك يعبر عن نفسه وذاته، وكانت تلك هي همومه وهواجسه. وما كان يخطر له في لحظة ما أن تكون له هموم وأشجان بعيدة عن مناخ الهمِّ العام والشجن المخيِّم على المرحلة، مما دعا الدكتور العمري إلى نعته بأنه «شاعر ملتزم بآرائه ومواقفه وقضايا مجتمعه»(٣).

ومن حسن حظ ديوان الشوكاني أنَّه وقع في يد دارس أديب أريب موهوب مدقق، هو الدكتور عبدالعزيز المقالح الذي أفرد له بحثاً مطولاً في كتاب (فبراير/ شباط ١٩٩٠ م) فلم يُبقِ ولم يذر، وتغلغل في شعاب أسرار الديوان وصنف اتجاهاته، وربطه بتجربة الشاعر الخاصة وبإطاره الاجتماعي العام.

وخلاصة رأي عبدالعزيز المقالح في هذا الديوان أن القارىء: «لكي يشعر بالتأثيرات الجمالية وبالأهمية الموضوعية لقصائد الديوان، لابد أن يتمثل عصره وثقافة ذلك العصر وما وصل إليه الأدب بعامة والشعر بخاصة من انحدار في الأساليب ومن تفاهة في المحتويات. وإذا ما وعى القارىء هذه الملاحظة فإنه سيجد أن ديوان الشوكاني كما يدل دلالة عميقة على عصره فإنّه يتجاوز فنياً وموضوعياً ما كان سائداً في ذلك العصر من شعر، بالرغم من أن الشوكاني - كما سلفت الإشارة - لم يكن يُعنى بتطوير معارفه الأدبية وصياغة الواقع الذي يحلم به صياغة شعرية. ومع أنَّ الشوكاني ما كان في مقدوره أن يتخلص من آثار عصره وثقافته الراكدة، فإن الحيوية التي امتاز بها قد منحت شعره من الحيوية مالم يكن لكثير من شعراء عصره، ويكفي أنه استطاع أن يطوع الشعر بقضايا أخرى ليس من بينها المديح الذي كاد يومئذ يكون من أهم الأغراض في الشعر العربي. ويستطيع الدارس أن يلتمس بين قضايا الديوان الاتجاهات التالية:

أولاً : الاتجاه التعليمي.
ثانياً : الاتجاه الديني.
ثالثاً : الاتجاه الاجتماعي.
رابعاً : الاتجاه الإخواني.(٤)

ويمضي الدكتور المقالح في دراسته مستوفياً هذه الاتجاهات الأربعة، رابطاً باستمرار الظاهرة المضمونية بالظاهرة الفنية، مبرهناً على متانة الصلة بين كلمات الديوان ووقائع العصر وهموم الشاعر وقيمه الثقافية والأخلاقية، ملتقطاً بين كل فينة وأخرى زاوية أو ومضة أو وقفة من إبداع فكري أو شعري، مبيناً كذلك عمق ثقافة الشاعر التقليدية وجِدَّة توجهه نحو الإحياء ثم التجديد.

وإذا كان ذلك كله من حسن حظ الديوان وحسن حظ القارىء فإنَّه لن يكون بأي معيار من حسن حظ أي باحث لاحق. وإنَّ هذا الحكم مقصود بكل حرف منه، إذ أتت دراسة عبدالعزيز شافية وافية. ومع ذلك يقول المرء، مستهدياً بمواقف الباحثين: إنّ اليأس في البحث غير مشروع وإنّ مجال القول مفتوح دائماً، ولاسيما حين يمكن الانحراف بزاوية البحث ذات اليمين أو ذات الشمال حتى تتغير أبعاد المنظور، فتتيح رؤية إن لم تستطع أن تأتي بجديد فهي على الأقل مختلفة، على نحو ما طمح إليه جان جاك

ARCHIVE
http://archivebeta.Sakhrit.com

روسو معاصر الشوكاني في دنيا الغرب.

أما الزاوية المقصودة فهي قصيدة لشيخ الإسلام كتبها إلى شيخه السيد عبدالقادر أحمد، نقف عندها وقفة تحليلية بوصفها تمثل مجمل الديوان روحاً ومضموناً وشكلاً. ومطلعها:

مِنْ دُونِهَا يا عَمْرو وَخْزُ الرماحْ
وعِنْدَها فاسمَعْ صَلِيلَ الصِّفَاحْ

وهذه هي القصيدة بنصها الكامل(٥):

مِنْ دُونِهَا يا عَمْرُو وَخْزُ الرِّماحْ
وعِنْدَهَا فاسمعْ صَلِيلَ الصِّفَاحْ
لا يَسْمَعُ السَّامِعُ في حَيِّهَا
غَيْرَ جِلادٍ مفزعٍ أو كِفَاحْ
فَسِرْ إليها سَيْرَ مُتْهَوِّرٍ
مُستبدلاً فيها الحَيَا بالوَقَاحْ
مُشمِّراً قد صمَّ لا يَنْثَنِي
عن حُبِّها لعاذلٍ أو لِلاَحْ
فما يَهَابُ العَتْبَ مَنْ فَازَ مِنْ
غايةِ أمنيَّتِهِ بالنَّجَاحْ
سَعَى فَلَمَّا ظفرَتْ بالمُنَى
يَمِيْنُهُ ألقى العَصَا واستَرَاحْ
قَدْ اتعبَ السيرُ رحالي وَقدْ
آنَ لَهَا بَعْدَ الوَحَى أنْ تُراحْ
فَقَدْ اقامتْنِي - عَدَاها الرَّدَى -
بِرَبْعِ طودِ العِلمِ بَحْرِ السماحْ
مَنْ هَزَّ للعَلْيَا قَنَاةً ومَنْ
حمى حِمَاها فهي لا تُستَبَاحْ
مَنْ شَادَ للسُّنَّةِ أعْلامَهَا
مَنْ كَافَحَ البِدْعَةَ كُلَّ الكِفَاحْ
مُجَدِّداً مُجْتَهِداً جَاهِداً
للدِّيْنِ في عِلْمِ الهُدَى للصلاحْ
ياعَالِمَ العِتْرَةِ في عَصْرِهِ
وقُطْبَ أربابِ النُّهَى والفَلاَحْ
ما بَالُ من أنْصَفَ في دَهْرِنَا
ومالَ نَحْوَ المُسْتَنَدَاتِ الصِّحَاحْ
واطَّرَحَ التَّقْلِيْدَ مِنْ حَالِقٍ
مُقَطِّعاً رَبْقَتَهُ والوِشَاحْ
ولَمْ يَقُلْ أشياخُنَا قَرَّروا
لَمْ يَدعُوا جُهْداً لَهُمْ في النصاحْ
يُرمَى بِدَاءِ النَّصْبِ في قَوْمِهِ
وما على الرَّامي لَهُ من جُنَاحْ
يُمَزِّقُونَ العِرْضَ مِنْهُ إذَا
جَاءَ بِمُرِّ الحقِّ فِيهِمْ وَرَاحْ
يَلْقَى لَدَيْهِمْ مِنْ صُنُوفِ الأذى
كلَّ قَبِيحٍ في المساوالصباحْ
أيْنَ فَرِنْدُ البهْتِ منهمْ غَدَا
مُنْقَدِحاً في القلبِ أيَّ انْقِدَاحْ

ماالذي تقوله القصيدة؟

يقول ي. م. فورستر: «بقدر ما تكون الكلمات خلاّقة يبعدنا التوقيع عن أهميتها الحقيقية... ولست أقول: إنّ الأدب لا ينبغي له أن يوقّع بل أقول: لا حاجة به لأن يوقع. ولنقل إنّ الأدب يخطو دائماً نحو ذلك الاتجاه ويقول بتأثيره: أنا الموجود في الواقع لا مؤلّفي».

لننسَ الشوكاني بوصفه شخصاً له ظروفه الزمانية والمكانية حتى نستطيع أن نتذوق القصيدة تذوقاً كاملاً بوصفها حالة وعالماً قائماً بذاته، وليست مجرد امتداد عادي للخبرة الحياتية اليومية. ولنا بعد الإبحار في لجّة هذه (الحالة)، أن نستجمع كل ما قيل عن الشوكاني وعصره لنربط (الحالة) بالشخص أو لتكتمل الحلقة.

ومن عجب أن تُقدم مثل هذه المقدمات بين يدي قصيدة (تقليدية) مرصوفة الكلمات وفق أسس النحو المتعارف عليها ومنضّدة العبارات بحيث تقيم أشطراً ووزناً موحداً وقافية مطردة تلتزم ما يلزم.

فلنوضحْ إذاً أن انتقاء هذه القصيدة بالذات لم يكن ضرباً من المصادفة المعجلة، ولكنه انتقاء متان، بل يكاد يراود النفسَ زعم بانه اكتشاف في

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

حدود حديقة الديوان التي ليست باهظة الأدواح ولا وارفة الظلال. وعلى أية حال تمثل هذه القصيدة وحدة نفسية فكرية مضمونية فنية متماسكة، وتمثل أول شرط من شروط الإبداع كما وضعه جماليو الأدب الغربي ومنظِّرو نقده. وهاهو ذا الكلام على فنية القصيدة يسبق، بل يستبق، الكلام على (الحالة) من حيث لم يُرَدْ له ذلك. وما نظن أنه بالمستطاع الوقوف في وجه هذا الاستباق. وإن دلّ ذلك على شيء فإنّه يدل على أن هذا الشكل الشعري الذي نحن بصدد الدخول في عالمه هو (مشروع) قصيدة حديثة، كانت تكون (مخلوقاً) آخر لو كان أمكنها أن تنفلت من قيود زمان ولادتها ومكانها وظرفها الاجتماعي وطبيعة النظريات الفنية التي كانت تتلبس عقول منتجي الأدب العربي أواخر القرن الثامن عشر وأوائل القرن الذي تلاه، ولابد أن يكون التاسع عشر، أي نهاية عصر الجمود والانحطاط وبداءة عصر الإحياء والنهوض.

والآن، لنترجم ما يقوله هذا المشروع الشعري.

الحالة: هي الفرد الواعي المكشوف عن قلبه حجاب.

والإطار: هو الدنيا المتلاطمة.

والعلاقة: صراع وجدل.

والموقف: موقف اغترابي ولكنه غير انسحابي.

والنتيجة: وجودية معافاة، اقتحام الخصم وعدم التفكير بالتراجع، واتخاذ الموقف بجسارة وعُري ودون تزيينه بالأوهام.

في القصيدة محوران داخلان في جدلية غير مكتملة:

الذات الواعية، وهي ذات مشاركة -Inter Subjective بالمصطلح البنيوي، مميَّزة واجتماعية في وقت واحد، أي تعيش بـ (الجماعة) لا (من خلالها) وتحتفظ بتفردها كحالة لا تشخص، ولم تكن لتتميز إلا من خلال وعيها بعضوية صلتها مع المجتمع. إنّها حالة (اغتراب)، ولكنها ليست حالة انقطاع بنيوي عن الإطار. إنّها محاولة لاختراق الإطار الاجتماعي وليست مشروع هرب وانسحاب واختباء وراء ثقوب الجدران. إنها حالة اغتراب بمعنى التنصل من أوضار الآخر الذي هو الدنيا، ولكنها حالة اغتراب إيجابي لأنّ المطلوب ليس التميز المنسلخ أو الانزواء أو الإعدام بالنسبة للآخر، بل المطلوب هو خوض غمار التجربة من زاوية التميُّز الواعي.

فسِرْ إليهَا سَيْرَ مُتَهَـوِّرٍ
مُستبدِلاً فيها الحَيَا بالوقَاحْ
مُشمراً قد صمَّ لا يَنْثَني
عَنْ حُبِّهَـا لِعَاذِلٍ او لِلاَحْ

إنّها حالة الفارس المُعْلَم يحمل مصحف قيَمه على حرف ترسه، ويترك رمحه طليقاً ليخوض المعترك في أحمى درجات الوطيس. وهي حالة القلق المجدي والاغتراب الذي يخدم حركة الحياة والمجتمع والعصر. إنّها حالة (دينامو) داخلي يتجادل بعين النسر التي لا تراوغ - على حد قول ألبير كامو - مع صخب الآخر (الدنيا) دون أن يبالي بالنتائج، مرة أخرى، لانه تعبير عن حالة وليس عن ذات شخصية. والدليل على ذلك أن القصيدة - ربما كما قد يقول النقد الخارجي - هي رسالة تشجيع ومدح وتوادّ من طرف الشوكاني الشاعر إلى طرف شيخه السيد عبدالقادر بن أحمد، أي أن النقد الخارجي يُسلِّم بوجود شخصين وذاتين هنا. ولكن لو تفحصنا القصيدة لوجدنا أن كل الدلائل

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

تشير إلى وجود ذات واحدة مشاركة متداخلة واعية منبثقة من خضم الحياة، متميزة وليست خارجة.

صحيح أن الأبيات الثمانية الأولى تتصل بالناظم، والأبيات الباقية وهي أحد عشر بيتاً - تتصل بالممدوح أو الطرف الآخر، ولكنْ بشيء من التمعن نجد أنه لا مادح ولا ممدوح هنا، ولا وجود لطرفين. فالشوكاني هو عبدالقادر والتلميذ هو شيخه، والمادح هو الممدوح. ولو أمكن فرضاً حذف أبيات الوصل أو الانتقال (السادس والسابع والثامن) لأمكن استمرار منحى الكلام حتى دون حاجة إلى تغيير الضمائر. أما التجربة فهي هي دون أي اختلاف.

وهكذا، مرة أخرى، تكون أمامنا حالة اغتراب إيجابي، تكاد تذكر بمقولة الحَبَل بلا دنس. فالمطلوب هو البحث عن الولادة الجديدة دون التلوث بدنس الخصمّ الذي منه ولأجله يكون الحَبَل فالإنجاب فالبعث.

من داخل هذا المشروع نفسه نجد أدلة أخرى ذات طبيعة دنيوية ملموسة. فبعد الكلام العام عن الإقدام وخوض التجربة في الأبيات التسعة الأولى يأتي التشخيص الملموس في الأبيات التالية. وهذه الملموسية بلغة النقد الخارجي تسمى تقريرية وينفرمنها كثيرون، وربما لا لوم عليهم في ذلك النفور ولا تثريب. ومع ذلك يمكن أن نرى لهذه الملموسية ما يسوّغُها.

فالحالةُ هنا حالة خوض تجربة. وبما أن الموقف وجودي حيوي جدلي فقد تم اللجوء إلى سلسلة من الرموز، الرماح، الصفاح، الجلاد، الكفاح، التشمير، الحب، العذل، السير والوحي.. إلخ. وكله كلام (منزاح) عن مقصده الأصلي، ومسلسل من الاستعارات المكنية والتصريحية من شأنه أن يخلق جو الحالة. (الفرد والجماعة، الدين والدنيا، القيم والواقع، الأنا والآخر).

ولكن حين يجدُّ الجِد ويتوحد الطرفان المفترضان في النصف الثاني من القصيدة فإنّه لابد من الانتقال من جو التلميح القائم إلى مناخ التصريح المصادم.

والحل واضح في ذهن الذات المتميزة وإن كانت نتيجة الجدلية غير واضحة، وهذا تفريق دقيق يسمح لنا بالرفع من قيمة النص الحالي.

الطريق بيِّن مستقيم هو: الالتزام بالسنة، مكافحة البدع، التجديد والاجتهاد، الجهاد والعمل الصالح، رفض التقليد الأعمى، رفض تعطيل العقل، كشف الزيف دون مواربة. وهذا مسلسل من القيم غير خارجي وغير مفروض من عالم خارج إطار مشروع النًص. إنه استمرار لمشروعية الاغتراب الإيجابي.

ويزيد من قيمة هذا الاغتراب، كما سلفت الإشارة، أنه اغتراب مقدام مبرأً من الدَّنس، وكذلك مبرأً من الأوهام الرومنتية بانتصار الحق والواجب. إنّ الذات المتميزة هنا لا تخطب ولا تبشر ولا ترش على الموت سكراً ليصبح حلواً. إنّها تطالب باستمرار الكفاح، وبتحمل الأذى، وتُسلِّم بأن اغتراب التميز حالة بشرية راسخة في جذور الحياة (التي هي مجتمع هنا).

الاحتمال هو المصير الوحيد المتاح حالياً إمكانية الاختراق محدودة، فرصتها الإبانة فقط. لا يوجد انتصار دون كيشوتي ولا حلم فُروسيّ. البارقة الوحيدة في البيت الأخير وفي الكلمة الأولى منه بالتحديد (أبِنْ) وسوى الإبانة لا توجد أية تخوم للأمل، ولكن الطريق غير مسدودة. إنها حالة قيم مشتبكة مع حالة

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

لا قيم. حالة صواب مشتبكة مع حالة بهتان. ومصير الجدلية مجهول، ولكن هناك قدحة زند.

كـــان هذا منطقَ النص من الداخل. ولكن النص في النهاية لا يقف وحده. هو جزء من كل، وهو كل في آن معاً. كل ما حواه الديوان يؤكد بطريقة أو بأخرى أن شيخ الإسلام الشوكاني كان يقدم ذاتاً متميزة فوق الإطار ومن جنسه في وقت واحد.

لنتأمل في الشاهد التالي الذي يمكن أن يكون في صميم الموضوع، ربما بما يفوق القصيدة نفسها موضوع البحث(٦):

كَيْفَ الوُصُولُ إلى الحَقِيقَة
يا ربِّ دُلَّ على الطَّرِيقَة
واجمَعْ لهذا العَبْدِ ما
بَيْنَ الشريعةِ والحَقِيقَة
واكشِفْ لَنَا السرَّ الذِي
أوْدَعْتَهُ في ذِي الخَلِيقَة
فَعَسَاهُ يَدْخُلُ في عِدا
دِ الصالِحِينَ على وَثِيقَة

هل نجد في هذا النص اغتراباً داخل اغتراب؟.. هل هو اغتراب داخلي للعقل المستنير داخل بوتقة اليقين؟.. أم لعلها معتزلية عقلانية قوية تتوثب على حوافي أقنية الإيمان الشامل. وهو أيضاً اغتراب إيجابي، وهو أيضاً اغتراب غير متأكد من النتيجة، فهناك سرٌّ خفي لابد من الوصول إليه، والسبيل هو الدعاء لرب العالمين سبحانه وتعالى، وأنّها أيضاً جراءة من الشاعر شيخ الإسلام أن يسمح لنفسه بالترجح بين محوري الشريعة والحقيقة، وإن كانت رنة الخشوع القريبة من الصوفية لا تخفى على المتذوق.

وهناك شاهد آخر، أو على الأصح أنموذج لعدة شواهد تتكرر في الديوان على أن مواجهة الحياة من موقع الذات المتميزة وغير المنسلخة عن إطارها هي أشبه بدستور للحكمة الشوكانية اليمنية

تَأسَّ ولا تَأسَ من عَضّةٍ
فَكَمْ لَكَ في مِثْلِهَا مَوعِظَة
صُرُوف الزَّمَانِ إذا أسرَعَتْ
إلى يَقِظٍ عَدُّها مُوقِظَة (٧)

وإذا تغاضينا عن البهلوانيات البديعية المسرفة في هذين البيتين فمن الممكن القول إنّ مغزاهما يصب في بحر الشريعة الحق والتجربة المفتوحة والاغتراب المتميّز الذي يستعيض عن الانسحاب المتوقع بالإقدام غير المتوقع.

لمسات فنية

لم يكن ممكناً الدخول في عالم نص الشوكاني هذا إلا من خلال مفاتيح مركبة تلتحم فيها أسنان الشكل بأسنان المضمون والمغزى والروح والموقف. ومع ذلك تبقى هناك دائماً استدراكات نقدية لابد من إيرادها ولو إقحاماً.

ولنقل، على سبيل الخُلاصة الفنية، إنّ قصيدة الشوكاني بالنسبة لعصرها أي لضحالة الشعر العربي في عصرها، تُعدُّ إرهاصاً قوياً لحركة الإحياء، إذ يتوافر لها من الحيوية والقوة والتأثير والوضوح وصدق المقصد ما يسمح بأن نعدّها حلقة وسطاً بين شعر فترة الانحطاط وبين شعر البعث واليقظة.

وقد أكد الدكتور المقالح في دراسته المشار إليها في مطلع هذه الدراسة أنّ هذا الحكم ينطبق على مجمل ديوان الشوكاني.

وتنجو هذه القصيدة، كما تنجو أشعار كثيرة أخرى للشوكاني، مما يعتور شعر

العلماء والفقهاء من تصنُّع وتكلف وبرودة شعرية، وتكشف عن موهبة حبيسة، تتمثل غالباً في المقدرة على اختيار اللفظة الأقرب إلى روح الشعر، وفي انسيابية العبارة وخلوِّها من المعاظلة والتعقيد، وفي الغزارة النسبية للمخيلة التصويرية وإنْ يكن ضمن حدود التجربة التقليدية، وكذلك في الإحساس الموسيقي النسبي الذي يتجلى في قافية الحاء المسبوقة بالألف، وفي التتابع المنضبط لتسارع تفعيلات البحر السريع، وفي بعض محاولات الموازنة بين الصدر والعجز. وهناك بوجه عام مسحة من الموسيقى والرهافة والليونة لا ترقى إلى درجة الإبداع ولكنها لا تخبو إلى درجة الإخلال.

ومن الناحية اللغوية تكاد تنجو القصيدة إلى حد ما من التقعر اللغوي الذي يفسد شعر الفقهاء، والحُوشيُّ فيها قليل وهو يرد أحياناً لضرورة التعبير أو الوزن وليس للتفاصح والتباهي اللغوي، ومثاله كلمة (الوَحى) في البيت السابع، ومعناها السير الشديد السريع.

وأغلب الظن أن تمسك الشوكاني بالقرآن والسُّنة حمى لغته وزوده بمناعة طبيعية ضد أشكال التكلف اللغوي.

ويؤخذ على الفقيه الشوكاني تساهله الشديد في باب الضرورات الشعرية في القصيدة الحالية وفي معظم ديوانه، كما لاحظ ذلك دارساه المجيدان حسين العمري وعبدالعزيز المقالح. ويجب أن نعترف أن التوسع في الضرورات يسبب كدراً شديداً للمتذوق ومن أمثلته في النص الحالي تسكين التاء في (متْهور). على أن القصيدة الحالية أقل تعرضاً لهذه السلبيات من قصائد أخرى كثيرة في الديوان.

ومن الإنصاف لهذه الشخصية العظيمة ذات المواهب المتعددة أن نشير إلى أن الديوان يضيء هنا وهناك بومضات من الرفيف الفني تكشف عن موهبة فنية حبيسة - كما أسلفنا - ولعل المثال التالي في وصف حال الدنيا وتعاقب الطِّباقات فيها وعدم استقرارها على صيغة واحدة، لعل هذا المثال المختصر في البيتين التاليين يحمل تأكيداً جديداً (للرسالة) التي حملتها القصيدة المدروسة فكراً وفناً(٨):

كانْ وُجُودَ هَذَا بَعدَ هَذَا
بِرَبْعِ فنائِنَا دَخْلاً وخَرجا
كتابُ مُطالعٍ إنْ يَطْوِ دَرْجاً
مِنَ الأوْرَاقِ ينْشُر مِنْهُ دَرْجَا

إنَّه (دياليكتيك) الحياة المتحركة مع السكون الكامن، وجدلية الخفاء والتَّجلي في أوضح عباراتها.

ويسمح لنا هذا المثل، مضافاً إلى ما قيل هنا بشأن القصيدة ومجمل انطباعاتنا بعد قراءة الديوان، بالتأكيد أنّ شعر الشوكاني (رسالة) من مرسل واعٍ إلى مرسل إليه يُرتجى له الوعي، وهي (رسالة) لا تفتقر إلى الحرارة ولا يَنقصها تعدد المعاني، سواء بالمعنى البنيوي، أم بالمعنى الأخلاقي القيميّ، أم بالمعنى العقلي، أم بالمعنى الإسلامي الشرعي، أم أخيراً بالمعنى (البريدي) حيث يمكن أن تكون أشبه ببطاقة مفتوحة للملأ.

وختاماً لكل هذا اللغو الذي تقدم في مجال تحليل قصيدة واحدة لرجل لم يزعم مرة أنه سيد من سادات الشعر أو فارس من فرسانه، يسمح المرء لنفسه بالتساؤل الشرعي التالي:

هل يعكس كل هذا الذي قلناه حقيقة أو بعض حقيقة؟.. أم إنه مجرد برهان آخر على أن

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

النقد – متى رغب – يستطيع أن يصنع من الحبة قبة، ومتى غضب يستطيع أن يمسخ القبة لتصبح حبة؟.. الله وحده يعلم وهو الغفور الرحيم.

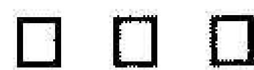
خلاصة في احتمال أن تكون موهبة الشوكاني ضحية جوانب عظمته الأخرى.

وبعد، لو لم يكن الشوكاني عالماً جليلاً، وشيخاً متضلعاً بأمور الدين، وإماماً مجدداً مجتهداً، وقاضياً نزيهاً يزن بالقسطاس، ولو أنه تفرغ لمهمات الشعر وأصغى لنداء عبقر الذي كان يجمجم في داخله حبيساً تحت ركام تلك الاعتبارات والمشاغل والمناصب كلها، وما أعظمها وما أجلّها وأخطرها، لولا ذلك كله لكان – ربما – استطاع أن يحدث حدثاً مهماً في تاريخ الشعر العربي، وأن يحتل مكانة لائقة في بواكير فترة الإحياء والتجديد في الشعر العربي. وإنّ في ديوانه شواهد على أنه كان متمكناً من قسطٍ غير يسير من أداة الشعر الجيد، بالإضافة إلى موهبة فنية كامنة يستطيع الدارس المدقق أن يقرأ حروفها غير المعجمة بين سطور قصائده وخلفها، فكأنها أشبه بعلامات كتابة موسيقية غير متشكلة. ولقد طغت على هذه الموهبة – أو مشروع الموهبة – وطأة النظريات الأدبية اليابسة التي اكتسحت عصره، ومستلزمات مراعاة الأعراف الأدبية السائدة، وكان على صاحب الموهبة أن يحافظ على (سمعة) جوانب نشاطه الأخرى.. فإذا بموهبته هي الضحية الفنية لتعدد مسؤولياته وجوانب عظمته.

وهذا يعني أن ديوانه اللطيف الذي خلّفه – وما أجمل ماضم بين دفتيه – كان يمكن أن يكون أكثر ألقاً وأعمق مرمىً وأنصع بياناً لو أن الأيام أسعفت، والزحام كان أقل كثافة.

على أن الله – سبحانه وتعالى – عوضنا عن تلك الموهبة بجوانب من عظمة الشوكاني وإبداعه في مجالات النقد والقضاء والشرع والتحصيل العلمي والسلوك الشخصي المستقيم والخصال الرفيعة والذهنية النيرة، مما أهلَه لأن يكون قدوة في قيم الدِّين والدنيا، ومَعْلَماً مضيئاً من معالم الإسهام اليمني العريق في حضارة دار العروبة والإسلام.

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com



الحواشي :

١ – هذه هي الفقرة الأولى من مقدمة الطبعة الأولى من: «ديوان الشوكاني – أسلاك الجوهر، والحياة الفكرية والسياسية في عصره»، تحقيق ودراسة: حسين بن عبدالله العمري، ١٣ ط٢، ١٤٠٦ هـ – ١٩٨٦ م، دمشق (دار الفكر).

٢ – المصدر السابق، ١٣.

٣ – المصدر السابق، ١٤.

٤ – د. عبدالعزيز المقالح، «من أغوار الخفاء إلى مشارف التجلي، دراسات ومتابعات نقدية»، صنعا ١٨، دار الكلمة ١٩٩٠ م.

٥ – ديوان الشوكاني، ١١٦ – ١١٧.

٦ – المصدر السابق، ٢٦٠.

٧ – المصدر السابق، ٢٢٩.

٨ – المصدر السابق، ١١٣.

لقاء مع الدكتور علي القاسمي



مدير الثقافة والاتصال بالمنظمة الإسلامية للتربية والعلوم والثقافة

أجراه **محمد فاتح زغل**

رئيس قسم النشاط الثقافي بالمركز

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

الدكتور علي القاسمي عراقي درس في جامعات العراق ومصر وفرنسا وأمريكا، وحاز على بكالوريوس في اللغات، وماجستير في التربية وعلم اللغة التطبيقي.

مارس التدريس في جامعات بغداد والرياض والرباط وتكساس في الولايات المتحدة الأمريكية، وعمل خبيراً ومديراً في مكتب تنسيق التعريب بالرباط المكلّف بتوحيد المصطلحات العلمية العربية وخبيراً ومديراً في المنظمة الإسلامية للتربية والعلوم والثقافة (إيسيسكو) منذ إنشائها عام ١٩٨٢، وهو اليوم مدير الثقافة والاتصال بالمنظمة.

من مؤلفاته بالإنجليزية (اللسانيات والمعاجم الثنائية اللغة) الذي أصدرته دار بريل بهولندا عام ١٩٧٧ وبالعربية:

- مختبر اللغة (الكويت: دار القلم، ١٩٧٠).
- علم اللغة وصناعة المعجم (الرياض: جامعة الرياض، ١٩٧٥ و١٩٩١).
- الاتجاهات الحديثة في تعليم العربية للناطقين باللغات الأخرى (الرياض: جامعة الرياض، ١٩٧٩).
- مقدمة في علم المصطلح (بغداد: الموسوعة الصغيرة، ١٩٨٥).
- المعجم العربي الأساسي المُنسق (باريس: لاروس، ١٩٨٩).
- التقنيات التربوية في تعليم العربية للناطقين باللغات الأخرى (الرباط: إيسيسكو، ١٩٨٩).

■ **بعد أكثر من عشرين عاماً على تأسيس المنظمة الإسلامية للتربية والعلوم**

والثقافة .. أين تقف المنظمة من حيث الأهداف التي رسمتها، وما هي البرامج التي تعمل بها.. والنشاطات التي تقوم بها؟

- لقد تأسست المنظمة الإسلامية للتربية والعلوم والثقافة (إيسيسكو) عام ١٩٨٢ بقرار من مؤتمر القمة الإسلامي لتكون وكالة من وكالات منظمة المؤتمر الإسلامي متخصصة في التربية والعلوم والثقافة. وقد حدّد ميثاق المنظمة الجديدة الأهداف التي تسعى إليها وفي مقدمتها توثيق التعاون بين الدول الأعضاء في مجالات التربية والثقافة والعلوم، وتنمية قدراتها في هذه المجالات، والمحافظة على التراث الحضاري الإسلامي والتعريف به، والإسهام في إرساء السلم العالمي عن طريق الثقافة والعلم. ويحق لجميع الأعضاء في منظمة المؤتمر الإسلامي الانضمام إلى المنظمة (إيسيسكو) بعد توقيع ميثاقها.

وتسيّر المنظمة أنظمة ثلاثة:

أولها، المؤتمر العام الذي يتألف عادة من وزراء التربية في الدول الأعضاء، وينعقد كل ثلاث سنوات ليقرر سياسات المنظمة وأنشطتها من خلال إقرار ميزانية المنظمة وخطة عملها الثلاثية التي تضم عدداً من البرامج الرئيسة والفرعية.

وثانيها، المجلس التنفيذي الذي يتكوّن من ممثلي الدول الأعضاء ويقوم بمراقبة تنفيذ خطة عمل المنظمة، وينعقد سنوياً.

وثالثها، الإدارة العامة التي يراسها مدير عام ينتخبه المؤتمر العام كل ثلاث سنوات ويضطلع بتنفيذ البرامج وتيسير العمل في المنظمة.

وقد عقدت المنظمة أربعة مؤتمرات عامة حتى الآن هي: الأول عام ١٩٨٣ في الدار البيضاء، والثاني عام ١٩٨٥ في إسلام آباد، والرابع عام ١٩٩١ في الرباط. والخامس في نوفمبر ١٩٩٤ في دمشق.

وكان أول مدير عام لها المفكر والسياسي المغربي المعروف الأستاذ عبد الهادي بوطالب (مستشار جلالة عاهل المملكة المغربية حالياً) وقد خلفه عام ١٩٩١ مساعده في الثقافة الأستاذ الدكتور عبد العزيز بن عثمان التويجري (من أساتذة جامعة الملك سعود بالرياض).

ويبلغ عدد الدول الأعضاء في المنظمة حالياً ٤١ دولة تنتشر على رقعة واسعة في آسيا وإفريقيا ابتداءً من أندونيسيا وماليزيا في الشرق حتى السنغال وغينيا في الغرب.

وتستخدم المنظمة اللغات العربية والإنجليزية والفرنسية في عملها.

وتتوزع أنشطة المنظمة على ثلاثة أنواع:

- البحث والترجمة والتأليف والنشر، للتعريف بالدول الأعضاء والمساعدة على توثيق التعارف بينها، وكذلك التعريف بالتراث العربي الإسلامي. وقد نشرت المنظمة عشرات الكتب والدراسات.

- التدريب وإعداد الأطر المؤهلة، وقد عقدت المنظمة عشرات الدورات التدريبية لتأهيل المكونين في المجالات التربوية والعلمية والثقافية.

- عقد اللقاءات الفكرية والعلمية على اختلاف أنواعها كالمؤتمرات والندوات والحلقات الدراسية، لإطلاق التوجهات الجديدة في مختلف المجالات أو استشراف المستقبل لتحديد التوجهات الجديدة.

وتوضع خطة عمل المنظمة في ضوء أهدافها واحتياجات الدول الأعضاء التي تعبر عنها

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

من خلال المجلس التنفيذي والمؤتمر العام وإجاباتها على الاستبيانات التي تُعدّها الإدارة العامة بانتظام. وكذلك من خلال التنسيق بين المنظمة والمنظمات العربية والإسلامية والدولية العاملة في نفس المجالات والتي تربطها مع المنظمة اتفاقات تعاون، وذلك من أجل تجنّب الازدواجية وترشيد الإنفاق.

ومن أهم أعمال المنظمة الاستراتيجيات الثلاث التي وضعتها لتطوير التربية والعلوم والثقافة في الدول الأعضاء. ومن أبرز برامجها التربوية برنامج تعليم اللغة العربية والثقافة الإسلامية في الدول الأعضاء وخاصة غير الناطقة بالعربية منها، وكذلك برنامج محو الأمية، وبرنامج إعداد المناهج الموحدة لموضوعات مختلفة في التعليم العام في الدول الأعضاء لتكون أساساً لتأليف كتب مدرسية تساعد على التقريب بين أبناء الأمة.

ومن أبرز برامجها العلمية : تعليم العلوم في الدول الأعضاء عن طريق إعداد البرامج الموحدة التي صدر منها برامج الكيمياء، والأحياء، والرياضيات، وكذلك دعم البحث العلمي والباحثين في الدول الأعضاء وقدّمت عشرات المنح الدراسية لهؤلاء الباحثين الشباب، وهناك برنامج تزويد بعض مدارس الدول الأعضاء بمختبرات علمية نموذجية.

وفي طليعة البرامج الثقافية في المنظمة البرامج الخاصة بالعناية بالمخطوطات الإسلامية والتنسيق بين مراكز المخطوطات الإسلامية في الدول الأعضاء وتزويدها بالمختبرات اللازمة لتعقيم المخطوطات وترميمها واستنساخها، (وفي هذا المجال تتعاون المنظمة مع مركز جمعة الماجد في دولة الإمارات العربية المتحدة). وكذلك برامج العناية بثقافة المرأة والطفل والشباب في العالم الإسلامي، وبرنامج الإسلام وحوار الحضارات، وبرنامج الصناعات الثقافية وتطويرها في العالم الإسلامي. وفي هذا البرنامج تولي المنظمة عناية خاصة لعلوم الحاسوب والطباعة والنشر بمساعدة الحاسوب، وتأهيل المكونين في هذا المجال.

ومن البرامج الثقافية الرئيسية برنامج كتابة لغات الشعوب الإسلامية بالحرف العربي، حيث قطعت المنظمة فيه شوطاً هاماً في تنمية كتابة عدد من لغات غرب أفريقيا وشرقها بالحرف العربي، وصنّعت آلات كاتبة ومحارف طباعية بالحروف المنظمة وهي بصدد حوسبة هذه الحروف المنظمة بحيث يستخدم الحاسوب في كتابة تلك اللغات بحروف عربية.

■ ماذا عن ندوة « وسائل الاتصال الحديثة و أثرها على المجتمعات الإسلامية » التي عقدتها المنظمة في القاهرة بالتعاون مع رابطة العالم الإسلامي واللجنة الوطنية المصرية للتربية والثقافة والعلوم.؟

– تعلمون ما للإعلام من رسالة سامية وتأثير بالغ في ثقافة الناس بفضل ما يتوفر عليه من إمكانات سمعية بصرية هائلة وما يرصد له من كفاءات وأموال.

وفي السنوات الأخيرة شهد العالم تطوراً خطيراً خاصة في ميدان القنوات الفضائية التي أخذت تقدم للمشاهد في بلدان العالم الإسلامي السمين والغث والجيد والرديء من المواد الفكرية، وقد لا يتفق بعض ما يُقدمه هذا الإعلام الوافد مع قيمنا وتقاليدنا الإسلامية التي نعتز بها وتميزنا عن غيرنا

ARCHIVE http://Archivebeta.Sakhrit.com

من الأمم بوصف الأمة الإسلامية خير أمة أخرجت للناس تأمر بالمعروف وتنهى عن المنكر.

ولهذا لابد من التشاور وتبادل الرأي في ماهية هذا الإعلام الوافد وكيفية التعامل معه ومن هنا سعت المنظمة إلى عقد ندوة علمية لدراسة (وسائل الاتصال الحديثة وأثرها على المجتمعات الإسلامية).

وقد عقدت هذه الندوة بالاشتراك مع رابطة الجامعات الإسلامية، وبالتعاون مع اللجنة الوطنية المصرية للتربية والثقافة والعلوم وذلك في القاهرة في الفترة من ٥ - ٧ جمادى الأولى ١٤١٥ هـ/ ١٠ - ١٢ اكتوبر ١٩٩٤. وقد شارك في هذه الندوة المنظرون والتطبيقيون من أساتذة الإعلام في الجامعات والعاملين الممارسين في الصحف والإذاعات ومحطات التلفزة.

وبلغ عدد المشاركين ٢٥ باحثاً وممارساً ومنهم مركزكم الموقّر قدّموا بحوثاً ودراسات وشاركوا في مناقشتها والتعليق عليها، والتوصل إلى نتائج وتوصيات هامة.

وتوزعت الدراسات التي قدمت في الندوة على محاور متعددة مثل:

- الإعلام الإسلامي (أسسه وتطبيقاته).
- الرأي العام في الإسلام.
- الإعلام الوافد (مكنوناته - حجمه - أبعاده).
- الإطار التشريعي للبث في القنوات الفضائية.
- تخطيط السياسات الإعلامية.
- تنمية المؤسسات الإنتاجية الإعلامية في الوطن العربي.
- تطوير مناهج التأهيل العلمي للإعلاميين في العالم الإسلامي.

■ **تقيم المنظمة الإسلامية للتربية والعلوم والثقافة علاقات التعاون مع كثير من الجهات والهيئات الثقافية المتوزعة في العالم الإسلامي. ماذا عنها.؟. وماذا عن علاقاتكم الثقافية مع مركز جمعة الماجد للثقافة والتراث بدبي؟**

- تبرم المنظمة اتفاقات تنسيق وتعاون مع المؤسسات التربوية والثقافية والعلمية سواء أكانت هذه المؤسسات عربية أو إسلامية أو دولية. والهدف من هذه الاتفاقات تبادل المعلومات والخبرات والمطبوعات ووجهات النظر بصورة مستمرة، وكذلك القيام ببرامج مشتركة من أجل تجنب الازدواجية وتوحيد الجهود، وترشيد الإنفاق. ومن هذه المؤسسات التي ترتبط مع المنظمة اتفاق تعاون مع مركز جمعة الماجد للثقافة والتراث بدبي وينص الاتفاق على: أن يقوم الطرفان بتبادل الدعوات لحضور الأنشطة الثقافية والعلمية ذات الاهتمام المشترك. وتنظيم ندوات مشتركة في الموضوعات ذات الاهتمام المشترك. والاشتراك في إعداد البحوث والدراسات النظرية والميدانية وترجمة الكتب ذات الاهتمام المشترك ونشر المخطوطات وتحقيقها وتدريب العاملين في مجال صيانتها وترميمها.

وقد قام كل من د. عبد العزيز بن عثمان التويجري المدير العام للمنظمة الإسلامية للتربية والعلوم والثقافة، والسيد جمعة الماجد رئيس المركز بتوقيع الاتفاق بمدينة الرباط عام ١٩٩٣.

□ □ □

المدخل التاريخي لقصبة رباط الفتح

الدكتور عبدالكريم كريّم
رئيس جمعية المؤرخين المغاربة - الرباط

من المناطق الأولى التي سكنها الإنسان المغربي القديم/ الضفتان الشمالية والجنوبية لمصب وادي أبي رقراق في المحيط الأطلسي.

ومع الأيام ازدادت أهمية بعض المراكز مثل «شالة» التي يؤكد ابن خلدون أنها من بناء البربر سكان البلاد الأصليين، و«القصبة» التي يُرجع بعض المؤرخين بناءها إلى الرومان لحماية شالة وكقاعدة عسكرية حصينة.

وعندما أشرقت شمس الإسلام على الكون وانطلقت الفتوحات الإسلامية في المغرب كان للفاتح عقبة بن نافع فضل نشر الدعوة الجديدة في هذه الربوع، وازداد مع الأيام رسوخ الدين الحنيف بعد أن استقر المولى إدريس بشالة، واتخذها قاعدة لتدعيم أسس الإسلام بالمنطقة. ومما يؤكد التمسك بسيرة السلف الصالح أنّ شالة والقصبة أصبحتا رباطين للمجاهدين الذين وقفوا في وجه طغيان إمارة بورغواطة حقبة طويلة من الزمن، ولاسيما في عهد «تميم بن زيري اليفرني أمير شالة ودفينها»(١). «لم تزل بورغواطة في بلادهم معلنة بدينها وبنو صالح بن طريف ملوكها إلى أن قام فيهم الأمير تميم اليفرني، وذلك بعد عشرين وأربعمائة، فغلبهم على بلادهم، ولم يُبق لضلالتهم باقية»(٢). وكان الأمير تميم «صلْباً في دينه مستقيماً فيه مولعاً بجهاد بورغواطة كان يغزوهم مرتين في السنة»(٣). ويبدو أنّ القضاء النهائي على إمارة بورغواطة تمَّ على يد المرابطين، واستشهد في إحدى هذه المعارك الإمام عبدالله بن ياسين الجزولي عام ٤٥١ هـ كما تقول المصادر: «وقتل ببورغواطة سنة إحدى وخمسين بموضع يسمى كريفلت»(٤) فأصبحت «جميع بلاد بورغواطة اليوم على مِلَّة الإسلام»(٥).

*

من العوامل التي ساعدت على تطور عمران الضفة الجنوبية لمصب أبي رقراق ما يلي:

١ - إستراتيجية المنطقة للجوار إلى الجهاد في الأندلس؛ واعتماداً على ابن حوقل فإنَّ عدد القوات المرابطية بهذه المنطقة قد بلغ مئة ألف مجاهد، وإنّ القصبة قد أصبحت تعرف بـ «قصبة ابن تاشفين»(٦).

٢ - وجود ضريح الإمام عبدالله بن ياسين الجزولي بكريفلت الذي أصبح من أبرز المزارات المقدسة لشهداء المنطقة «وعلى قبره اليوم مشهد مقصود»(٧).

وعند منتصف القرن السادس للهجرة أكّد ابن صاحب الصلاة وهو معاصر لتلك الحقبة وجود «برج للسُكنى وما حواليه أرض محرث ومسرح متملك للمخزن ولأهل سلا ولابن وجاد من أهل إشبيلية»(٨).

ARCHIVE http://Archivebeta.Sakhrit.com

حرص الخلفاء الموحدون على شراء الأرض وقام الخليفة عبدالمؤمن ببناء مدينة المهدية في القصبة «فلما وصل أمير المؤمنين الخليفة رضي الله عنه إلى سلا في عام خمسة وأربعين وخمس مئة لاستطلاع أحوال جزيرة الأندلس واستدعاء شيوخها وطلبتها من الموحدين وثوارها الأندلسيين... أمر ببناء قصبة حصينة سماها المهدية في ذلك الموضع على فم البحر الداخل إلى سلا، وأقام بمحلاته المؤدية على عين غبولة والفَعَلة معه والمهندسون، فأجروا لها الماء من عين غبولة المذكورة في سرب تحت الأرض حتى قصبة «المهدية» المذكورة، ودام اشتغال الأمر بذلك شهوراً. وهو مقيم بعسكره، حتى وصل الماءُ المذكور إليها، فصنع له سقاية لشرب الناس والخيل وسقْي الأرض حواليها، فصارت فيها البحائر والجنّات المغروسات»(٩).

وفي داخل هذه القصبة «جامع وقصور وصهاريج الماء أمام الجامع مجلوب من نحو عشرين ميلاً»(١٠). وعند ابن الخطيب أنّ القصبة «اقتعدت فم الوادي كرسياً، وقربت أبراجها، وصوعدت أدراجها، وحصنت أبوابها، ودار ببلدها السور والجسور والخندق المحفور»(١١). وأمّا الساباط العظيم فقد «جعله ديواناً يجتمع فيه الوزراء والأعلام وإيواناً يأوي إليه حملة السيوف والأقلام»(١٢).

وعلى بابي السّاباط «الآيات القرآنية المؤذنة بالجهاد والفتح «إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحاً مُبِيْناً» إلى قوله «وكانَ اللّه عَلِيْماً حَكِيْماً»(١٣) كذا على باب القصبة القبلي مكتوبٌ بالخط الكوفي، وكتب على بابها الشرقي «**يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَى تِجَارَةٍ تُنْجِيكُمْ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ تُؤْمِنُونَ بِاللّهِ وَرَسُولِهِ وَتُجَاهِدُونَ فِيْ سَبِيْلِ اللّهِ**» إلى قوله «**وَبَشِّرِ المؤمنين**»(١٤).

وباب القصبة «مبني من الأحجار المنحوتة بدقة، ومدعم ببرجين صغيرين، مدخله مرتفع ببعض الدرجات، يتضمن الباب ثلاث قاعات مربعة تفصل بينها بعض الدرجات، للغرفة الأولى قبة ذات حنايا جانبية، بينما الغرفة الثانية مزينة بقبة محلاّة بمناجد، أما الغرفة الثالثة فذات سقف نصف أسطواني، وفي عمقها سلم يؤدي إلى السطح، وعلى الجانب الأيمن للغرفتين الثانية والثالثة يفتح بابان مؤديان ومشرفان على القصبة أحدهما كبير والآخر صغير»(١٥).

كانت وفاة الخليفة عبدالمؤمن «بقصبة الرِّباط التي كان اتخذها لملكه داراً ولأهله وحشمه وسائر حاشيته، ومنها حمل إلى تنملل ودفن بها»(١٦).

وعندما تولى الخليفة يوسف بن عبدالمؤمن قام بإصلاحات هامة في مدينة المهدية عام ٥٦٦ هجرية «وصل باب مدينة المهدية فرد وجهه إلى الناس واستقبلهم وهو راكب فرسه وعالهم وأمرهم بالنزول في تلك الأرض العريضة، ودخل إلى داره بالمهدية... وكان دخوله المهدية المذكورة يوم الاثنين الموفي عشرين من رجب الفرد من سنة ست وستين»(١٧).

ومن الإصلاحات التي أمر بها «عند احتلاله بها [أي مدينة المهدية]ألفى الماء الجاري المسرب الذي جلبه أبوه رضي الله عنه في عام خمسة وأربعين المؤرخ، فسد جريه وأسن ماؤه وتعطل في البطاح والبحاير سقيه، فأمر بإعادته إلى حالته الأولى، وزاد فيه بناء صهريج عظيم متسع يجمع فيه الماء، ثم يجري من ذلك الصهريج إلى السقاية المذكورة حيث شرب خيل العساكر

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

ومواشيهم ومواشي الناس وشربهم. وكذلك ألفى الجسر الذي كان قد نصبه أبوه رضي الله عنه مابين سلا وبين المهدية المذكورة على البحر لإجازة الناس عليه قد خرقته البحور وهدمته الدُّهور، فأمر بنصب جسر آخر إلى جانبه أعظم منه بناءً وأساساً واعتلاءً من البحر العادي والجيار الثابت لأمواج البحار، فصُنع في أقرب مدة بأعظم آلة وعدَّة، ووصله بالقوارب والخشب، حتى جاء في أمن له من الأزمان والحقب»(١٨).

وهكذا تطورت أحوال هذه المنطقة خلال النصف الثاني من القرن السادس للهجرة، إذ «لم يزل الخلفاء يخصونها بالاهتمام، وإذا خرجوا في الغزوات يلمون بها غاية الإلمام، ويجعلون لها حظاً وافراً من التشريف لها بالاختصاص فيها والمقام»(١٩).

وفي عهد الخليفة يعقوب بن يوسف بُنيت مدينة رباط الفتح التي بلغت شأواً كبيراً في زمنه، «هذه هي المدينة المسماة الآن بالمهدية وبرباط الفتح»(٢٠).

نمت مدينة الرباط، واتسع عمران قصبتها بعد الهجرة الواسعة التي قام بها الأندلسيون غداة صدور ظهير الخليفة الموحدي الرشيد يوم ٢١ شعبان عام ٦٣٧ هـ الذي أذن للمهاجرين بسكنى المدينة والقصبة واستثمار الأراضي المحيطة بها، وقد توالت لذلك الهجرات الأندلسية إلى الرباط وقصبتها طوال عدة قرون، كما ازدادت أهمية المنطقة بوصفها قاعدة لتجمع المجاهدين وميناء لانطلاق السفن المجاهدة في المحيط الأطلسي «صرف همه - أيّده الله - إلى اتخاذ الأسطول برباط الفتح - أمنه الله - فتعددت مراكبه»(٢١) وعندما قدمت «الجاليات الأندلسية على المولى زيدان بن المنصور السعدي اتخذ منهم جيشاً جراراً، جعل فرقة منه بالرباط وأخرى بالقصبة لحراستها وحماية العدوتين»...(٢٢).

وعندما استقر الأمر للدولة العلوية المجيدة أولى ملوكها الأوائل عناية خاصة لمدينة الرباط وقصبتها؛ فقد بنى المولى الرشيد حصناً بجوار القصبة تدعيماً لصمودها في وجه الغارات الخارجية، واتخذ المولى إسماعيل هذه المدينة ميناءً رئيسياً للاتصال مع العالم الخارجي.

وفي عهد المولى محمد بن عبدالله «شرع سيدنا أيده الله في عمارة الثغور وتشييد ماهدَّه منها تتابع الأزمنة والدهور، وحصنها بالعدد الكبير من المدافع والعُدد والعَدد، حتى صارت ممنعة من العدو محفوظة من عين حاسد إذا حسد»(٢٣): «فقد بنى برباط الفتح القصبة الكبيرة، وجدّدها بعد الهدم، وبنى بها البستيون المعروف ببرج خنزيرة، و البستيون الآخر المقابل لسلا وبنى برج السراط... وجدد قصبة مولانا الرشيد»(٢٤). وأقام بها قوات عسكرية من «البحرية والطبجية والبونبجية»(٢٥). كما بنى بالقصبة «بيت المال وعمره وحصن القصبة... ولما كمل بيت المال بالقصبة جلّد أبوابه بالحديد، ومتّعه، وأحكم بناءه، وأتقن جميع ذلك، وكذلك أبواب القصبة»(٢٦).

ظلّت القصبة مقراً لملوك الدولة العلوية الأوائل وأمرائها إلى أن قام المولى محمد بن عبدالله ببناء قصره بالمشور السعيد «وفي سنة تسع وتسعين ومائة وألف كمل جامع السُّنة بالبناء الذي بأكدال برباط الفتح، وكمل بناء داره أيضاً... ولما دخل السلطان لرباط الفتح يوم الخميس أول يوم من ذي الحجة عام تسعة وتسعين ومائة وألف على باب

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

الرواح... قصد جامع السُّنة ودخله... ثم نهض لداره فدخلها - أيده الله - واستقر بها»(٢٧).

أسكن المولى محمد بن عبدالله بالقصبة جماعات تنتمي إلى مناطق مختلفة من البلاد، «فقد وجه من مراكش نحو الخمس مئة بنسائهم... فكانوا هم السابقين للرباط فأمرهم بالنزول في القصبة في شعبان ورجب ١١٨٧ هـ فأخذوا في بنائها بعد قبض كل واحد منهم خمسين مثقالاً»(٢٨)، وأسكن فيها أيضاً «الودايا والمغافرة وأولاد جرار، وكلهم بنو الديار»(٢٩).

ويبدو أن تطور عمران القصبة استدعى تجديد مسجدها الذي أصبح يعرف «بجامع الودايا»(٣٠) حيث كان العلامة التهامي بنعمرو (+ ١١٩٥ هـ) من أوائل الذين تولوا خطبة الجامع العتيق (مسجد القصبة)(٣١).

ومما تجدر الإشارة إليه أنّ القصبة خلال القرن الثالث عشر والنصف الأول من الرابع عشر للهجرة ظلت تعرف بقصبة الرباط والقصبة الكبيرة، وظل جامعها يعرف بجامع القصبة رغم الوصف الذي استعمله مؤرخ الرباط محمد بن عبدالسلام «الضعيف الرباطي» وهو «جامع الودايا».

من أئمة مسجد القصبة كما جاء في الاغتباط لبوجندار محمد بنجلون (+ ١٢٣٠) «من خطباء مسجد القصبة»(٣٢)، والقاضي عبدالقادر مرينو (+ ١٢٤٠) «كان من خطباء جامع القصبة»(٣٣) وعثمان بنعمرو (+ ١٣٣٠) «من الأئمة والخطباء الوعاظ بمسجد القصبة العتيق»(٣٤).

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

□ □ □

الهوامش :

١ - محمد بوجندار : الاغتباط بتراجم أعلام الرباط ٢٨٠.
٢ - البكري : كتاب المغرب في ذكر بلاد إفريقيه والمغرب ١٦٨.
٣ - الاغتباط ٢٨٠.
٤ - كتاب المغرب ٦٧.
٥ - المصدر السابق.
٦ - محمد بوجندار : قصبة الرباط الأثرية. مخطوط بدار الوثائق بالرباط (د ١٠٤٧) ٤.
٧ - كتاب المغرب ٦٨.
٨ - ابن صاحب الصلاة : المن بالإمامة، ٤٧٥.
٩ - المصدر السابق.
١٠ - الاستبصار ٤٥.
١١ - قصبة الرباط الأثرية، ٥.
١٢ - المصدر السابق.
١٣ - المصدر السابق والآيات من سورة الفتح ٤٨/ ١ - ٤.
١٤ - سورة الصف ٦١/ ١٠ - ١٣.
١٥ - الفن المعماري الموحدي بالمغرب. وزارة الثقافة ٤٧ - ٤٨.
١٦ - الاغتباط ٣٩٥.
١٧ - المن بالإمامة، ٤٧٥.
١٨ - المصدر نفسه.
١٩ - المصدر نفسه.
٢٠ - المصدر نفسه.
٢١ - عبدالعزيز الفشتالي : مناهل الصفا ٢٠٤.
٢٢ - قصبة الرباط الأثرية، ٧.
٢٣ - احمد الغزال : رحلة الغزال. مخطوط بدار الوثائق بالرباط (ج ٧٧)، ١٢.
٢٤ - محمد بن عبدالسلام : تاريخ الضعيف الرباطي، ١٥٧.
٢٥ - المصدر نفسه.
٢٦ - المصدر نفسه، ٣٢١.
٢٧ - المصدر السابق، ٧٤.
٢٨ - ابو القاسم الزياني ، الترجمانة الكبرى ، ٨٤
٢٩ - المصدر نفسه، ٣٢٢.
٣٠ - المصدر نفسه، ١٧٠.
٣١ - الاغتباط، ٢٨١.
٣٢ - المصدر نفسه، ١٤١.
٣٣ - المصدر نفسه، ٤٠٢.
٣٤ - المصدر نفسه، ٤١٥.

الشاعرات الأندلسيات

في عصر ملوك الطوائف

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

محمد أحمد القضاة
الأردن

شهد عصر ملوك الطوائف في الاندلس تفككاً سياسياً كبيراً، ومؤامراتٍ كثيرةً استهدفت القضاء على الدولة الإسلامية، واصبح لكلِّ ملكٍ واميرٍ جيش حصون واعوان، وفي مقابلُ ذلك ازدهرت الحياة الأدبية والفكرية في بلاطِ هؤلاء الملوك؛ فانعقدت مجالسُ العلماء وحلقاتُ الشعراء، وتنافسَ الأمراءُ والملوك في مضمارِ العلوم والفنون، وتميّزَ امراءُ الطوائف بعلمهم الغزير، وترفهم البالغ، وبثقافتهم الواسعة، وشعرهم الجميل. ولقد صوّرَ المستشرقُ غارسيا الحياةَ الأدبيةَ والشعرية في هذه الحقبة بقوله: «إن الشعراءَ مضوا يقطعون الأندلسَ طولاً وعرضاً ينتجعونَ قصورَ الأمراء حيث يظفرون بالماوى والصلات، ويحضرون مجالسَ اصحابِ الأمراء، وتُدْرَجُ اسماؤهم في سجلاتِ الدواوين، وتقرر لهم الأرزاق، وتخلع عليهم وظائف التدريس... وكان كبارُ القوم من ملوكٍ ووزراء واصحاب وظائف كبرى وسفراء لا يتراسلون إلا شعراً...»(1).

وفي إطار هذه النهضة الفكرية والشعرية تبوأت المرأةُ مكانتها في المجتمع الأندلسي، وتمتعت بنصيبٍ وافرٍ من الحرية مكنتها من الدخول في كثيرٍ من الشؤون الاجتماعيةِ والسياسيةِ والثقافية؛ فأصبح لها رأيٌ واضح(٢)، وقد وصلت إلى حدّ التصرف في أمور الدولةِ في عهدِ يوسفَ بن تاشفين، ويُعدُّ هذا سبباً من أسباب اختلال المُلكِ وسقوطه(٣). وارتفعَ صوتُها الأدبي(٤)؛ فعبّرت عن مشاعرها بصراحةٍ تامة، وعقدت المجالسَ مع شعراءِ عصرها، وبدأت تشاركُ في إثراء الأدب الأندلسيّ بألوانٍ شعريةٍ طريفة، واستطاعت أن تقفَ جنباً إلى جنب مع الرجل في الحركةِ الشعريةِ الغنيةِ التي تميّزَ بها عصرُ ملوك الطوائف، حتى إن المجتمع كلّهُ في هذه الحقبةِ كاد يقول الشعر. لذلك جاء جهد المرأة واضحاً في الحركةِ الشعرية، إذ فرضت وجودها على تلك الحركة، وإذا كان مشرقنا العربي قد حفل بعددٍ من الشاعراتِ المتميّزاتِ أمثال: الخنساء، وليلى الأخيلية، وعلية بنت المهدي، وغيرهن، إلا أن الشاعراتِ الأندلسياتِ قد فاق عَددُهن شاعراتِنا المشرقيات، غير أن شعرَهُنَّ جاء محدوداً في كميته(٥).

والمتابعُ للشعر النسوي الأندلسيِّ سيجده قليلاً في مصادرنا على الرغم من أن بعض الروايات تقول بوجود ستين ألفاً من الشاعرات(٦)، وأظنُّ في هذا مبالغة ؛ لكنه يعني أن المرأةَ قد اهتمت بالشعر اهتماماً واضحاً. وسنحاول أن نتعرّفَ الشاعراتِ اللواتي كان لشعرهن حضورٌ وتأثيرٌ في عصرِ ملوكِ الطوائف، و صدى شعريٌّ واضح.

تميّزت حقبةُ حكم ملوك الطوائف(٧) بوفرةِ عددِ الشاعرات على اختلافِ مشاربهن وفنونهن، فكان في مدينة المرية عددٌ من الشاعراتِ المجيدات مثل الغسانيّة البجانية وزينب المرية وغاية المُنى، وأم الكرم بنتَ المعتصم بن صُمادح التي أسهمت في إنشاءِ الموشحات. أما غرناطةُ فازدانت ندواتُها بنزهون القلاعية وحمدونة بنتِ زياد التي لُقّبت بخنساءِ الأندلس وأختها زينب. وفي إشبيلة نجد مريمَ بنت يعقوب الأنصاري، وبثينة بنت المعتمد بن عبّاد، وظهرت في وادي الحجارة أم العلاء بنت يوسف الحجارية. وفي قرطبة برزت الأميرةُ ولاّدةُ بنتُ المستكفي، ورفيقتها مهجة بنت التيّان القرطبية.

ويأتي هذا البحث للكشف عن هؤلاء الشاعرات على قلّة المصادر، وإذا كنتُ قد قصّرت في الوصول إلى بعض الشاعرات، فإنني قد حاولت جاهداً أن أستقصي ما أمكنني من المتوافر في هذه المصادر.

شاعرات المريّة

كانت المريّةُ مقر أسطول المسلمين، وارتبط نصرُهم بها. ذكرَ المقّري أن لأهل المرية متاجرُ وذخائرومصانع النسيج الفاخر، وكان بها من الحماماتِ والفنادقِ نحو الألف(٨).

وتميّزت شاعراتُ المريّة بحياتهن النّاعمةِ المليئةِ بالخيرات ، وقد عِشْنَ عصرها الذّهبي في ظلّ بني صمادح(٩).

وحظيت هذه المدينة بعددٍ من الشاعراتِ أمثال الغسانية البجانية، وزينب المرية، وغاية المُنى، وأم الكرم بنت المعتصم بن صُمادح.

الغسانية البجانية

ولدت وعاشت في منطقة بجانة من إقليم المرية، في القرن الخامس الهجري في مدةِ ملوكِ الطوائف(١٠)، وجاءَ في النفح أنها من أهلِ المئةِ الرابعة(١١)، وقد تميّزَ شعرُها بالأصالةِ والعمق والوقار والرقّة مع الكبرياء، إذْ عُدّت شاعرةً متمرسة؛ نظمت في الغزلِ وشكوى الفراق، أثبت لها صاحب المُغرب هذه المقطوعة في الصبر والجزع(١٢):

أتجزعُ أن قالوا ستَرحَلُ أظعَان
وكيفَ تُطِيقُ الصَّبرَ ويحكَ إذ بانوا
فما بَعدُ إلا الموتُ عند رحيلهم
وإلاّ فصبرٌ مثلُ صبرٍ وأحزانُ
عَهِدتُهُمُ والعَيشُ في ظلِّ رحلهم
أنيقٌ ورَوْضُ الوَصلِ أخضرُ فينانُ
فياليتَ شِعْرِي، والفراقُ يكونُ، هلْ
يكونُون من بعد الفراق كما كانوا؟

يكشفُ هذا الشّعر كبرياءَ الشّاعرةِ وحبَّها وحيرتَها ولوعتَها وجَزَعها واستسلامها، ويتميّز بقوتهِ وجزالتهِ ، ويدل على تمكنها من القريض.

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

زينب المَرية

عاشت في القرن الخامس الهجريّ، وعرفت بتناول معاني الشكوى و تميزت قصائدها بنضج التراكيب و دقة المعاني، ونظمت بأسلوبٍ سهلٍ ينبضُ بالحياة، وبحسٍّ صادق:

ياأيُّها الراكبُ الغادِي لِطيتهِ
عَرِّج أُنبِّئكَ عن بَعضِ الذِّي أجدُ
ما عَالَجَ الناسُ مِنْ وَجْدٍ تَضمَّنَهُم
إلاّ وَوَجْدِي بهمْ فَوْقَ الّذي وَجَدُوا
حَسبِيْ رِضَاهُ وأنِّي في مَسرَّتِهِ
وَوُدّهِ آخرَ الأيَّامِ أجْتَهِدُ (١٣)

غاية المُنى

جاءَ في نفح الطيب(١٤) أنها جاريةٌ أندلسيةٌ ظريفة مؤدبة تقولُ الشعرَ وتحسنُ المحاضرة، قدّمها قيّان إلى المعتصم بن صُمَادح صاحب المرية وأحدِ ملوكِ الطوائف لكي يختبرَها قبل أن يشتريَها، فسألها: ماسمُكِ؟ فقالت: غايةُ المُنَى. فقال لها الأمير: أجيزي(١٥):

اسالوا غاية المُنى ....

فقالت في سرعةٍ :

.... من كسا جسمي الضنّا

وأراني مُولَـــــهاً سيقولُ الهَــــوَى أنا

وهناك رواية أخرى(١٦) نقلها المقرّي عن ابن الأبار وهي أن غايةَ المُنَى سيقت لابن صُمادح فأمرَ أن يختبرَ ذكاءها ابنُ الفراء الخطيب وكان مكفوفاً، فلما وصلَتهُ سألها: ماسمُكِ؟ فقالت: غايةُ المُنَى، فقال أجيزي(١٧):

سَلْ هَوَى غايَة المُنَى من كَسَا جِسمِيَ الضنّا

فقالت :

وأرَاني مُتَيَّــــماً سَيَقُولُ الهَــــوَى أنا

ويُستشف من الروايتين أن غايةَ المُنَى كانت شاعرةً عذرية رقيقة ، ارتبط ذكرُها بالمرية لصلتها بابنِ صُمادح ولم أقع من شعرها إلا على البيت السابق الذي يدل على رقةِ الشعور ورهافة الإحساس وخفةِ الروح.

أمُ الكرم بنت المعتصم بن صُمادح

أميرةٌ عمل والدُها على تعليمها وتهذيبها وتثقيفها، تميّزت بالذكاء والفطنة؛ فنظمت القصائد، و اهتمت بالغزل ، وكانت على علاقةٍ بفتى في قصرِ أبيها عُرِفَ بالسُمّار، قالت فيه الشعرَ معلنةً أن الحبَ لا يعرف الفوارق : (١٨):

يامَعْشَرَ النَّاسِ ألا فاعجبوا
مِمَّا جَنَتْهُ لَوْعَةُ الحُبِّ
لولاهُ لم يَنزِلْ بِبَدرِ الدُّجَى
مِنْ أُفْقِهِ العُلويِّ لِلتـرْبِ
حَسْبِي بِمَنْ أهواهُ لو أنهُ
فارَقَني تابـعَهُ قَلْبِـي

وتتمنى لو وجدت لحظةً تخلو به بعيدة عن أعينِ الوُشاةِ والرُقباء، و تعجب من اشتياقها وحرقتها وتوقها وحبها له(١٩):

ألا لَيْتَ شِعري هَل سَبيلٌ لِخَلْوةٍ
يُنَزَّهُ عنها سَمْــــعُ كُلِّ مُراقبِ
ويا عَجَباً أشْتاقُ خَلْوَةَ من غـدا
ومَثواهُ ما بَيْنَ الحَشا والتَّرائِبِ

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

وهذا الحبيب الذي حدّثتنا عنه أمُّ الكرم قال عنه ابن سعيد في المُغرب: «وبلغَ المعتصم خبرَه، فخفي أمره من ذلك الحين»(٢٠).

شاعرات غرناطة

حمدونة بنت زياد

وُلِدَت قرب غرناطة في وادي آش الجميل بمناظره الطبيعية الساحرة، في بيت فيه علمٌ وأدب، وقد تحلّت بالخلق الجمّ والعفّة، وذاع صيتُها وانتشر شعرُها حتى لقبت بخنساءِ المغرب وشاعرةِ الأندلس، و تنتمي إلى شعراء القرن الخامس، عاشت في حقبةٍ ازدهرَ فيها الشعر والأدبُ والعلمُ وكثرت المنتدياتُ الأدبية، وبرزَ العديدُ من الأدباءِ والشعراء، فكانت من أبرز شعراءِ وادي آش(٢١).

ولعلّ جمال الوادي قد فتّحَ موهبةَ حمدونة الشعرية؛ فإذا بها تصفه بأجملَ الأوصاف، وترسم له صوراً غنيةً وتأتي بأبدع المعاني، فتقول(٢٢):

وقانا لفْحَةَ الرّمـضاء وادٍ
سقاهُ مضاعَفُ الغيثِ العميمِ
حَلَلْنا دَوْحَهُ فـحنا علينا
حُنُوَّ المرضِعات على الفطيمِ
وأَرشـفنا على ظـماٍ زُلالاً
ألذَّ من المـدامةِ للنديـمِ
يَصُدُّ الشمسَ أَنّى واجهتنا
فيحجُبها ويأذنُ للنّـسيمِ
يَروع حصاه حاليةَ العَذارَى
فتلمَسُ جانبَ العِقدِ النّظيم

وترتبطُ الطبيعةُ الخلابةُ في هذا الوادي ارتباطاً واضحاً بشعرحمدونة، فَهي تغني له ولطبيعته الفاتنةِ ولنهرهِ الجاري، ولنفسها الصافية، ولجمالِ الأنوثة والصبّا ممثلاً في قوامها الميّاد ، ونرى الماء يستهويها فسرعانَ ما تخلعُ ثيابَها وتعومُ في النهرِ مع صديقاتها، فيمتزج جمالُهن بسر الطبيعة، وترسم حمدونة صورة جميلة لهذا االجمال فتقول(٢٣):

أباحَ الدمعُ أسراري بـوادٍ
له للحُسنِ آثارٌ بَـوادي
فمِنْ نهرٍ يَطُوفُ بكلِّ روضٍ
ومن رَوْضٍ يَرِفُ بكلِّ وادي
ومن بين الظّباءِ مهاةُ انس
سَبَتْ لُبّي وقد مَلَكَتْ فُؤادي
لهـا لَحظٌ تُرقّـدُهُ لأمر
وذاكَ الأمرُ يَمْنـعُني رُقادي

إذا سَدَلَتْ ذَوائِبَها عَلَـيْه
رأيتَ البدْرَ في أُفقِ السَّوادِ
كأنَّ الصُّبحَ ماتَ لهُ شقيقٌ
فمن حُزْنٍ تَسَرْبلَ بالحِـدادِ

وفي البيت الأخير ترى حمدونة الحداد بلبس السواد بخلاف عادة أهل الأندلس الذين كانوا يلبسون البياض عند أحزانهم.

وعلى الرغم من اتصاف حمدونة بأنها شاعرةُ الطبيعة؛ فقدتطرقت إلى الغزل، إذ جاء أقل انسياباً وعفوية وأكثر تكلّفاً وتصنيعاً، وربما يكون السببُ أنها ربيت على الحياةِ الجادةِ والأخلاق؛ فلم يعرفْ عنها أي لونٍ من ألوانِ الانحراف ؛ بل كانتْ من المتأدبات المتصوّفات المتغزّلات بعفةٍ(٢٤):

ولمّا أبى الواشـون إلا فِراقنا
ومالهم عِـندي وعندكَ من ثـارِ
وشَنُّوا على أسماعِنا كل غارةٍ
وقلَّ حُماتي عند ذاكَ وأَنصـاري
غَزَوتُهُم من مُقلَتَيكَ وأدمُـعِي
ومن نَفَسي بالسَّيفِ والسّيلِ والنّارِ

ARCHIVE
http://archivebeta.sakhrit.com

نزهون الغرناطية

هي نزهون بنت القلاعي، عاشت في القرن الخامس الهجري في غرناطة، عاصرت حمدونة، وإن كانت تختلف عنها اختلافاً كبيراً، فكانت تراسلُ الرجالَ شعراً وتساجلُهم نظماً وتهاجيهم بالفاحش من القول في نطاق ما يسمى اليوم بالأدب المكشوف(٢٥)، وجاء في «المُغْرب» أنها شاعرة ماجنة كثيرة النوادر. قالت لأبي بكر بن قزمان الزجال، وقد رآته بغفارة صفراء، وكان قبيح المنظر «أصبحتَ كبقرةِ بني إسرائيل، ولكنْ لا تَسُرُّ الناظرين»(٢٦).

اتصفت نزهون بالمرح وحلاوةِ الحديث، وشفافية النفس، وعُرفت بسرعة الجواب وحضور البديهة، رُوي أنها كانت تقرأ يوماً على الأعمى المخزومي(٢٧) فدخل أبو بكر الكندي فقال مخاطباً المخزومي:

لو كُنت تُبصر من تُجالِسهُ.

....

وصمت المخزومي، ولم يحر جواباً، فأجابت نزهون على البديهة:

....

لغدوتَ اخرس من خَلاخلِه
البدرُ يطلُع من أزرّتِـه
والغُصـنُ يَمْرح في غلائِلِه

وقد كان الوزير أبو بكر بن سعيد من المولعين بأدبها ومحاضراتها ومذاكراتها، ومن أشد المتحمسين والمدافعين عنها والمعجبين بها، وقد كتب لها حين كثر عشاقها(٢٨):

يا مَنْ له ألفُ خِلٍّ
من عاشقٍ وصَديقِ
أراكَ خلّيتَ للنا
س منزلاً في الطريق

فأجابته مذكرة إياه أن مكانته لا تعلوها مكانة، وأنه الحبيب المقدّم الذي يحتلُّ الصدارة من ودِّها، وتجيبه(٢٩):

حَلَلتَ أبا بكرٍ محلاً منعتُهُ
سِواكَ وهلْ غير الحبيبِ له صَدري
وإنْ كان لي كَمْ من حبيبٍ فإنما
يُقدِّمُ أهلُ الحقِّ حُبَّ أبي بَكْرِ

ونزهون كانت جريئة في غزلها، قالت تصف ليلة من ليالي لهوها مع حبيبها بعيداً عن أعين الرقباء (٣٠):

للهِ دَرُّ الليالي ما أُحَيسنهَا
وما أُحيسنَ منها ليلة الأحدِ
لو كنتَ حاضِرَنَا فيها وقَدْ غَفَلَت
عَيْنُ الرقيبِ فلم تَنْظُر إلى أحدِ
أبصرتَ شمسَ الضُحى في ساعدَي قمرٍ
بل ريم خازمةٍ في ساعدَي أسدِ

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

وسألها بعضُ ثقلاء الظلِ يوماً: ما على من أكل معكِ خمسمائة سوط، كناية عن قبوله بالعذاب ما دامَ في صحبتِها، فتجيبه نزهون ساخرة(٣١):

وذِي شقوَةٍ لمّا رآني رأى لَهُ
تَمنِّيهِ أن يَصْلَى معي جَاحِمَ الضَّربِ
فقلت له كُلَها هنيئاً فإنّما
خُلِقتُ إلى لُبسِ المطارفِ والشربِ

و طبعها العدواني وشراستها الأنثوية دفعاها إلى الاصطدام بكبار الشعراءِ في غرناطة، فكانت مرة في أحد مجالس الوزير أبي بكر ابن سعيدٍ في غرناطة حين دخَلَ الشاعرُ أبو بكر المخزومي الأعمى يقوده غلامه، وكان شديدَ الشرِّ معروفاً بالهجاء، وسرعة الجواب وذكاء الذهن. فتصدى لها في ذلك المجلس وأشبعها هجاء من غير تحفظ والوزير ينصت إلى ذلك، ومما قاله فيها(٣٢):

على وجهِ نَزهُونٍ من الحُسن مسحة
وإنْ كان قد أمسَى من الضوءِ عاريا

قواصد نزهونٍ تَوارك غيـــــرها
ومَنْ قَصَدَ البحْرَ استَقَلَّ السَّواقِيا

فردت على الفور بشعر أكثر بذاءة(٣٣):

قلْ للوضيع مقـــالاً
يُتلى إلى حين يُحشرْ
من المُدوّرِ أنـــشئ
تَ ... منهُ أعـــطَر

لذاك أمسَيتَ صـبّاً
بكل شيءٍ مـــدَوّرْ
خُلِقتَ أعمَى ولكـن
تهيمُ في كُلِّ أعـــوَرْ
جاوبتُ هجواً بهجو
فقلْ لُعِنتَ مَن أشـــعَرْ
إنْ كنتُ في الخَلق أُنثى
فإنَّ شِـــعري مـذكّرْ

فردّ عليها قائلاً : (٣٤)

الا قُل لنزهونةٍ مـــالَها
تَجُرُّ من التّيهِ أذيالَها
ولو أبصرت فيشة شمّرت
- كما عودتني - سِربَالَها

ولما رأى الوزيرُ أن الأمر سوف يزداد تفاقماً وحدّةً أقسم أن يكُفّ عن السباب والقدح، إلا أن نزهون ردت على بيتي المخزومي تقول(٣٥):

إن كان ما قُلتَ حقّاً
من بعض عَهْد كريمِ
فصارَ ذكري ذَميماً
يُعْزَى إلى كلِّ لــومِ
وصرتُ أقبحَ شيءٍ
من صُورةِ المخزومي

وخطب رجل نزهون وكان دميم الصورة بشعاً فعددت معايبه شعراً(٣٦):

عذيريَ من عاشِقٍ انوكٍ
سفيه الإشارة والمـنزعِ
يروم الوِصَالَ بما لو اتى

يرومُ به الصّفعَ لم يُصفعِ
برأسٍ فقيرٍ إلى كَيَّةٍ
وَوَجهٍ فقيرٍ إلى بُرقُعِ

وهذه موشحة لها تعارض فيها شاعراً مجهولاً تظهر فيها قدرتها على التعبير(٣٧

بأبي من هَدّمَ جسمي القُوى
طرفه الأحور
وسقاني ما سقى يوم النوى
ويحَ من غرّرِ
كلما رُمتُ خضوعاً في الهوى
تاه واستكبرِ
ياله من شادنٍ حيرني
رهن أشجانِ
لم يدع في الحورِ منه عوضاً
عندَ رضوانِ
مرّ بي في رَبرَبٍ من سربهِ
يقطفُ الزهرا
وهو يتلو آيةً من حزبهِ
يبتغي الأجرا
بعدما ذكرني من حبّهِ
آية أُخرى
والذي لو شاء ما ذكّرني
بعد نسيانِ
قلّب القلبَ على جمرِ الغضا
فهو في شانِ
حفظ اللهُ حبيباً نَزحا
خشية الهجرِ
جاءت البشرى به فانشرحا
عندها صدري
واستطار القلبُ من فرحا
ثم لا أدري
أمِنَ الإنس الذي بشرني
أم من الجانِ
غير اني شمتُ برقاً او مضا
حين حيّاني

قلتُ لمـا زارني طيفُ الخـيـال
من رشـا الإنسِ
مـرحـبـاً بالزائر الحُلوّ الخـلال
مخجل الشمسِ
والذي سـواه من مـاء الجـمـال
واحـد الجنس
مـابرا جـسـمي ولا غـيّرني
خـوفُ هجـراني
إنمـا غـيـر جـسـمي مـرضـاً
لـحـظُه الـرّانـي
لم تَزلْ تظهـر فـيـه الكَلَفـا
عندمـا عنّتْ
غـادة لو رام منهـا النصـفـا
غـيـرِه ضنّتْ
فـهـو يهـواهاويُبـدي الصلَفَا
فـلِذا غـنّتْ
يتـمـنـاني إذا لم يـرني
يتـمـنـانـي
فـإذا رآني تولى مـعـرضـاً
كـأنه مـا رآني

وتعكس حياةُ نزهون صورةً عن طبيعةِ الحياةِ الاجتماعية التي كانت سائدةً في غرناطة زمن ملوكِ الطوائف، وهي تعطينا انطباعاً عن مجتمعٍ فاسدٍ متحلل، ولعلَ هذا سببٌ من أسبابِ انهيارِ الأندلس.

قسمونة بنت إسماعيل:

شاعرةٌ يهودية ذكرها صاحب نفح الطيب إلا أنه لم يُشرْ إلى العصر الذي نشأت فيه، ونظراً لتميّز مرحلة ملوكِ الطوائفِ بازدهار الموشحاتِ والشعر على اختلاف ضروبه، فمن الممكن أن تكونَ قد عاشت في تلك الحقبة، وكانت قسمونة وشّاحةً وكان أبوها شاعراً اعتنى بتأديبها. قال لها يوماً أجيزي(٣٨):

لي صاحب ذو بَهجَة قد قابلتْ
نعمى بظلمٍ واستحلّت جُرمها

فردت قسمونة :

كالشمس منها البدرُ يقبسُ نورهُ
أبداً ويكسفُ بعد ذلك جُرمَها

فتهلل أبوهاوقال لها أنت أشعر مني.
ومن شعرها الذي تشتكي فيه بقاءها دون زوج وتأسف فيه على جمالها الضائع(٣٩):

أرى روضةً قد حان منها قِطافُها
ولستُ أرى جانٍ يَمُدّ لــها يَدا
فوا أسفا يمضي الشّباب مُضيّعا
ويبقى الذي ما إن أسمّيه مُفردا

و من شعرها قولها في ظبيةٍ أعجبها جمالها(٤٠):

ياظبية تَرْعَى بروض دائــماً
إني حكيتُكِ في التوحش والحَوَر
أمسى كلانا مفرداً عن صاحب
فلنصطبر أبداً علىً حُكم القــدَر

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

شاعرات إشبيلة

مريم بنت أبي يعقوب الأنصاري

شاعرة، متدينة على الرغم من حياةِ اللهو والمجون التي كانت تعيشها مدينة إشبيلية، كانت تعلِّمُ النساءَ الأدب، وتشبّه بمريم العذراء دلالةً على الاحترام والإجلالِ والوَرَع(٤١)، و بالخنســاء في الشعر.
وقد ورد في «نفح الطيب» أنها كانت تمدحُ عبيدَ الله بن محمد المهدي فيجيزُها من ماله ويساجلُها شعراً وتساجلُه، وقد أرسلت له قصيدةً تمدحُهُ فيها فردَ عليها بهذه الأبيات(٤٢):

مالِي بِشُكرِ الذي أوليتِ من قــبَلِ
لوَ أنَّني حُزتُ نُطقَ اللُّسن في الحُلَلِ
يا فذّةَ الظرفِ في هذا الزمان ويا
وحيدةَ العصر في الإخلاص والعملِ
أَشبهت مريماً العــذراءَ في ورع
وَفُقت خَنساءَ في الأشــعارِ والمثل

ويظهرُ من أبياتِ المهدي تواضُعُه لها واحترامُهُ إياها، وتقديرُهُ لشعرِها كونها أديبة حسنة السيرة. ونجدها تنشىء قصيدةً عى بحر قصيدة الأمير و قافيتها تمدح بها الأمير، وتردُّ تحيته وعرفانه

لها، فتقول(٤٣):

من ذا يجاريكَ في قولٍ وفي عملٍ
وقد بَدرتَ إلى فضلٍ ولم تُسَلِ
مالي بشكرِ الذِّي نَظَمتَ في عُنُقي
من اللآلي وما أُوليتَ من قِبَلِي
حَلَّيتَني بِحُلىً أصبحتُ زاهـيةً
بها على كلِّ أُنثى من حُلىً عُـطُلِ
للّهِ أَخلاقُكَ الغُرُّ التـي سُقِيت
ماءَ الفراتِ فَرَقَّـتْ رقّةَ الغـزَلِ
أشبهتَ مروانَ من غارتْ بدائـعُهُ
وأنجدتْ وَغَدتْ من أحسن المـثلِ
من كان والدُهُ العَضْبُ المهنَّدَ لمْ
يلدْ مِنَ النّسل غير البيضِ والأسَلِ

ومن أجملِ شعرها قصيدة نظمتهاعندما بلغت سن السابعة والسبعين، حين اصطدمت بهموم الكبر وأرقِ الشيخوخة وافتقاد العافية؛ فبدت تشكو زمانَها شكوى صادقةً تنبعُ من عَنائِها و تعبّرَ فيها تَعبيراً بارعاً مغلفاً بالتصوير الدقيق(٤٤):

وما تَرتجي من بنت سبعِين حجّةً
وسبعٍ كنسجِ العنكبوتِ المهلهلِ
تَدِبُّ دَبيبَ الطِّفل تسعى إلى العَصَا
وتمشي بها مَشْيَ الأسير المُكبَّلِ

بثينة بنت المعتمد بن عباد

ترعرت في رحابِ شاعرٍ كبير، وشهدتْ مُلكَ أبيها كبيرِ ملوكِ الطوائف وشعرائهم، وأحد أبطال الأندلس، وكان للمَحيط والجوّ الذي تعيشُه أكبر الأثر في شاعريتها، فجاء شعرُها رقيقاً شفافاً. وعندما دقّ ناقوسُ الخطر معلناً نهايةَ ملك أبيها، وحلّت النكبةُ المعروفة بالمعتمد وأُسرَ وحُملَ وزوجَتَه إلى أغمات في المغرب،سُبيت بثينةُ ، فاشتراها أحد تجار إشبيلية ، وأهداها لابنه، فلما أراد الابنُ الدخولَ بها امتنعت امتناعَ الحرائر، وأظهرت له نَسَبَها وقالت له: لا يكونُ ذلك إلا بموافقةِ أبي، وكتبتْ لأبيها هذه الأبيات التي تتحسر فيها(٤٥):

اسمعْ كلاَميَ واستمع لمقالَتي
فهيَ السُّلُوكُ بَدَتْ من الأجيادِ
لا تُنكِروا أنِّي سُبيتُ وأنَّنـي
بنتٌ لملكٍ مِنْ بَنـي عبَّـادِ
مَلكٍ عظيمٍ قد تَوَلّى عَصـرُه

وكذا الزمانُ يؤولُ للإفسـادِ
لمّا أرادَ اللهُ فُرقةَ شَمـلِنَا
واذَاقَنَا طَعْمَ الأسـى من زَادِ
قامَ النِّفاقُ على أبي في مُلكهِ
فَدَنَا الفِراقُ ولم يكُنْ بـمُرادِ
فَخَرجَتُ هاربَةً فَحازَني امرؤٌ
لَم يأتِ في إعجالِهِ بسدَادِ
إذ بَاعَني بَيْعَ العَبيدِ فَضمّني
من صانَني إلاّ من الأنكَادِ
وأرَادَني لِزَوَاجِ نجلٍ طاهرٍ
حَسَنِ الخَلائقِ من بني الأنجَادِ
ومَضَى إليك يَسُومُ رأيك في الرِّضا
ولأنتَ تَنظُرُ في طريقِ رَشادي
فَعَساكَ يا أبتي تـعرِّفُني به
إن كانَ ممّن يُرتـجَى لِودادِ
وعَسَى رميكيةُ الملوكِ بفَضلِها
تدعُو لنا باليُمن والإسعَادِ

وعندما وصلتْ الأبياتُ إلى أبيها تهلّل وجهُه ووافقَ على زواجها، واعتبرها هديةَ القَدَرِ الثمينة إلى هذا الفتى الرشيد وأبيه، وكتب إليها بهذا البيت يُبارك لها فيه زواجَها(٤٦):

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

بُنيّتي كُوني به بَرّة ... فقدْ قَضَى الدّهرُ بإسعافِهِ

ولبثينةَ مقطوعاتٌ شعريةٌ تشيرُ فيها إلى هلاكِ بني عباد(٤٧)، جاءَ مطلعها في الشكوى الممزوجةِ بالمواعظِ، تقول(٤٨):

ما يعلم المرءُ والدنيا تمر به ... بأن صرف ليالي الدّهرمحذور

وكان للفخر نصيبٌ في شعرها؛ من ذلك أنها تذكر أمجادِ أهلِها بني عباد فتقول(٤٩):

رب ركب قد أناخوا عيسهم ... في ذرى مجدهم حين بسقْ
سكت الدهر زماناً عنهم ... ثم أبكاهم دماً حين نطقْ
من عَزا المجد إلينا قد صدق ... لم يُلم من قال، مهما قال حقْ
مجدنا الشمس سناءً وسنى ... من يرم ستر سناها لم يطقْ
أيها الناعي إلينا مجدنا ... هل يُضِرّ المجد إن خطب طرقْ
لا ترع للدمع في آماقنا ... مزجته بدم أيدي الحرقْ
حنق الدهر علينا قسطاً ... وكذا الدهرُ على حُرٍّ حنقْ

وقديماً كلف الملك بنا — ورأى منا شموساً فعشقْ
قد مضى منا ملوك شهروا — شهرة الشمس تجلّتْ في الأفقْ
وإذا ما اجتمع الدين لنا — فحقيرُ ما من الدنيا افترقْ

ومن الملاحظِ أن بثينةَ قد أشارت إلى أنها عاشت في قصر والدِها ثلاثاً وعشرينَ حجة ثم وقعت في الأسرِ وفي ذلك تقول(٥٠):

حِججاً عشراً وعشرا، بعدها
وثلاثين وعشرين نسقْ
أشرقت عشرون من أنفسنا
وثلاث نيرات تأتلقْ

اعتماد الرميكية جارية المعتمد(٥١):

تمكنت من أن سُلّمَ المجدِ والشهرةِ وانتقلت من كونها جارية لتصبحَ زوجةً لملكٍ من أعظم ملوكِ الأندلس المعتمد بن عباد، وقد عاشت في رفاهيةٍ وعزٍ يفوقان الوصف، ورافقت المعتمدَ بعد سقوطهِ وأسرهِ ونفيه حتى ماتت ودفنت بجانبه في مدينةِ أغمات.

ويروى أن المعتمدَ كان ذات يوم على ظهر مركب يَعْبُرُ أحدَ الأنهار، ومعهُ وزيرُه ابنُ عمار، فهبت ريحٌ واصطخبَ النهرُ وأحدثَ تموجاً في مياههِ فقال المعتمد:

صَنَعَ الرّيح من الماء زَرَدْ ....

وحاولَ ابنُ عمار أن يجيزَ إلا أنه لم يستطعْ القول فنهضت اعتماد الجارية من الزورقِ وأكملت:

.... أيَّ درْع لقتَالٍ لو جَمَدْ

فأُعجِبَ بها المعتمد، ووقعَ في هواها، وخطبَها وتزوجَها. وهامَ في حبها، ولبّى لها جميعَ رغباتها. وفي ذات مرة بينما كانت اعتمادُ تتجولُ يوماً في شوارع إشبيلية، رأت مجموعةً من نساءِ الباديةِ يبعن اللبن، ويدُسنَ الأوحالَ والطين، فقالت للمعتمد:

أشتهي أنْ أفعلَ أنا وجواريِّ مثل هؤلاءِ النساء، فنزلَ المعتمدُ عند رغبتها، وأمر بطحنِ كميةٍ من الطّيبِ والمِسك والكافور في ساحةِ القصرِ وصبِّ ماء الورد، وعَجَن كل ذلك حتى أمسى كالطينِ ثم داسته مع جواريها وسمي ذلك اليوم «يومَ الطين».

وظلت الشاعرةُ اعتماد تَنعمُ بلينِ العيش والسعادة أعواماً تلو أعوام إلى أن حلّت بالمعتمد النكبة وسُجِنَ بأغمات، فقالت تعاتبه:

ياسيدي لقد هنَا هُنَا (٥٢)

فقال :

قالت : لقد هُنَا هُنَا — مولاي اينَ جَاهُنَا
قلت لها : إلهنَا — صَيّرنَا إلى هنَا

العبادية جارية المعتضد

شاعرةٌ ظريفةٌ وكاتبةٌ أديبةعاشت في القرن الخامس الهجري، أهداها للمعتضد والدُ المعتمد مجاهد العامري، فكان يميل إليها ميلاً شديداً حتى مَلَكَتْ عليه إحساسه وشعوره، وقال في إحدى الليالي(٥٣):

تنام ومُدنفُها يَسْهَرُ ... وتَصبرُ عنه ولا يَصبرُ

فأجابته على البديهة :

لئن دام هذا وهذا له ... سَيَهْلِكُ وَجْداً ولا يَشْعُرُ

ولم أقف على غير هذا البيتِ من شعرها.

شاعرة وادي الحجارة أمُّ العلاء بنت يوسف

من شاعرات القرن الخامس الهجري وتعرف بالحجارية نسبةً إلى وادي الحجارة، وجاء في المُغْرِب أنها من الشاعراتِ اللَواتي يفخرُ بهن بلدُهن(٥٤)، ومن شعرها أبيات تتحدث فيه عن حبيبها الذي يسبغ على حياتها مذاقاً وطعماً جميلاً تقول:

كلُّ ما يَصدُرُ منكم حَسَنُ ... وبعلياكُم تَحَلَّى الزّمنُ
تَعطفُ العَيْنُ على مَنظَرِكُمْ ... وبذكراكم تَلَذُّ الأذنُ
مَنْ يَعِش دُونكُمُ في عُمرِهِ ... فهو في نَيلِ الأماني يُغبَنُ

وهامَ بها رجلٌ مسنٌ فطلب يدَها، فخاطبته قائلة(٥٥):

الشيبُ لا يخدعُ فيه الصبا ... بحيلةٍ فاسمع إلى نُصحي
فلا تكن أجهل من في الورى ... يبيتُ في الجهلِ كما يُضحي

و نجد أم العلاء تتغزل باستحياء وبصوت رهيف، فلم تصرخْ صراخَ أم الكرم في المرية، وإنما تقول بصوت رهيف(٥٦):

افْهَم مَطَارِحَ أحوَالي وما حَكمتْ
به الشواهدُ واعذُرني ولا تَلُمِ
ولا تَكِلني إلى عذر أُبيِّنُهُ
شَرُّ المَعَاذيرِ ما يَحتاجُ للكلمِ
وكلُّ ما جئته من ذلّةٍ فَبِما
أصبحتُ في ثقةٍ من ذلك الكَرَمِ

وهاهي تنظر إلى بستانها، فتهتز طرباً لمنظره وتصفه بقولها(٥٧):

لله بُستاني إذا ... يَهفُو به القَصَبُ المُندّى
فكانما كفُّ الرِّيا ... حِ اسندت بنداً فَبنــدا

ARCHIVE http://Archivebeta.Sakhrit.com

ولها (٥٨) :

لــولا مُنافرةُ المــدا ... مةِ للصــبابةِ والغِنا
لعكفتُ بين كؤوسها ... وجمعتُ أســبابَ المُنَى

شاعرات قرطبة

ولاّدة بنت المستكفي

عاشت في مدينةِ قرطبةَ عاصمةِ الأندلسِ الأولى، حيثُ الحضارةُ والخلافةُ والملوك والقصور الإسلامية وجمالُ الطبيعة وروعةُ العمران وازدهارُ العلوم وسحر الشعر، وكانت في عصرِ الفتنِ السياسيةِ وملوكِ الطوائف وتشتُّت الأمة. وقد عمّرت تسعين عاماً، وماتت ولم تتزوج.

تمتعت ولاّدة بجمالٍ أخّاذ، ودعابةٍ وروح وقّادة، فتنت شعراءَ زمانِها بسحرها وذكائِها وثقافتها، وجمعت إلى منتداها مِنْ معاصريها الأدباءَ والشعراءَ والوزراء، ونجد عدداً كبيراً من المؤرخين يتحدثون عنها معجبين بشخصيتها، مفتتنين بأدبها وبديهتها، يقول ابن بسام(٥٩)«وكانت من نساءِ أهلِ زمانِها واحدة أقرانِها، حضورَ شاهد وحرارَةَ أوابد، وحسنَ منظر ومَخبَر، وحلاوةَ مَوردٍ ومصدر، وكان مجلِسُها بقرطبةَ منتدى لأحرار المصر، وفناؤُها ملعباً لجيادِ النظمِ والنثر، يعشو أهل الأدب إلى ضياء غرّتِها، ويتهالكُ أفرادُ الشعراء والكتّاب على حلاوةِ عشرتِهَا، إلى سهولةِ حجابها وكثرة منتابها، تخلط ذلك بعلوّ نصاب، وكرم أنساب، وطهارة أثواب».

وتُعدّ ولاّدةُ بنتُ محمد بن عبدالرحمن الملقب بالمستكفي بالله من أشهر نساءِ عصرها؛ بل من أشهر نساءِ التاريخ الأندلسي، وهي أميرةٌ من بني أمية في الأندلس، ومن طَبقةِ الملوكِ الشعراء.

استطاعت أن تثقِّف نفسها، وتَنْهَل من مناهلِ الأدب والعلم، على الرغم من جهل أبيها الذي اختلف عن آبائه وأجداده اختلافاً بيّناً؛ فلم يذكره مؤرخٌ بخير، لم يزل مشتهراً بالشرب والبطالة، سقيمَ السر والعلانية، أسير الشهوة، عاهرَ الخَلْوَة...»(٦٠).

وقد كتبت ولاّدة على عاتقها الأيمن بالذهب(٦١):

أنا واللهِ أصلح للمـــــعالي ... وأمشِي مشيتي وأتِيهُ تِيهَا

وكتبت على العاتق الأيسر:

وأمكنُ عاشقي من صحن خدِّي ... وأُعطي قُبلتي من يَشْتَهيها

ولاّدة وابن زيدون

عندما نقرأ الأدبَ الأندلسي نجد أن اسم ولاّدة مقرون دائماً بأبي الوليد أحمد بن زيدون المخزومي، الوزير الشاعر الذي منحته الكثيرَ من الحب، وقد ألهمته أجملَ قصائدِ الغزل، وقالت هي كذلك فيه أجمل قصائد الحب ، ولعل الشاعرةكانت تزوره في الليل وتؤكد هذا وتعترف به في قولها(٦٢):

تَرَقبْ إذا جن الظلامُ زيارتـــــي ... فإني رأيتُ الليل أكتَمَ للســــرِّ
وبي مِنكَ ما لو كان بالشَمسِ لم تَلُح ... وبالبدرِ لم يطلعْ وبالليل لم يَسرِ

ويهيمُ ابنُ زيدون بها، فتتفتحُ قريحتُه الشعرية، ويقول بعد لقائها(٦٣):

وَدّعَ الصَبّرَ محبٌ ودّعـكْ ... ذائع من سره ما استـودعكْ
يقرع السّنّ على أن لم يكن ... زاد في تلك الخُطى إذ شيّعكْ
يا أخا البدر سناءً وسناً ... حُفظَ اللهُ زماناً أرجَـعَك
إن يَطُلْ بَعْدَكَ ليلي فَلكمْ ... بِتُّ أشكُو قِصرَ الليلِ معكْ

وتستمرُ لقاءات ولاّدةَ وابنِ زيدون، ويتحركُ في داخلها الحب، وتدافعُ عن جمالِها وكبريائها وتعنِّفُ ابنَ زيدون في أسلوبِ الشدّة واللين، فتقول(٦٤):

لو كنت تنصفُ في الهوى ما بَيْنَنَا
لم تَهْوَ جاريتي ولم تَتَخيَّر
وتركتَ غصـناً مثمراً بِجـمَالِهِ
وجنَحتَ للغصنِ الذي لم يُثْمِرِ
ولقد علِمتَ بأنني بدرُ السـما
لكن دُهيتَ لشقوتي بالمشتري

وعندما سمعَ ابنُ زيدون هذه الأبياتَ، وهو الذي يحبها حباً جارفاً ويصبو إلى لقائها تلمّسَ العذرَ منها وقال:

والله ما ساءني أني خفت ضَنَىً ... بل ساءني أن سرّي بالضنى عَلَنُ
لو كان أمري في كتمِ الهَوَى بيدي ... ما كان يعلم ما في قلبي البـدنُ

وشكت ولاّدة من فراقِ ابنِ زيدون لها شعراً، فترجمت مشاعِرَها بغزلٍ رقيقٍ يجمعُ بينَ الصبابةِ والشكوى(٦٥):

ألا هَلْ لَنَا من بَعْدِ هذا التـفرق
سبيلٌ فيشكُو كلُّ صَبٍّ بما لقِـي
وقد كنتُ أوقات التزاور في الشِّتَا
أبيتُ على جمرٍ من الشّوقِ مُحرقِ
فكيفَ وقد أمسيتُ في حَالِ قطعه
لقد عَجّلَ المقدُورُ ما كنتُ أتّقـي
تمرُّ الليالي لا أرى البينَ ينقضِي
ولا الصّبرَ من رقِّ التشوقِ معتقي
سقى الله أرضاً قد غدت لك منزلاً
بكلِّ سكوبٍ هاطل الوبـلِ مغدقِ

ويقرأ ابن زيدون الأبيات فيكتبُ إليها بيتين على البحر والقافية، يقول فيهما(٦٦):

لحَى اللهُ يوماً لست فيه بمُلتق
مُحيّاك من أجلِ النّوى والتفرُّقِ
وكيفَ يطيبُ العيشُ دون مسرّةٍ
وأيُّ سرورٍ للكئيبِ المـؤرقِ

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

ولم تكن ولاّدة شاعرةَ غزلٍ وحَسْبُ، بل كانت ناقدةً متبصرةً طلبت من ابنِ زيدون أن يَنظمَ قصيدةً في ابنِ القلاّس فقال(٦٧):

أصغِ لمقالتي واسمع وَخُذ فـــي ماترى أودَعْ

وعندما وصل إلى قوله:

فإنَّ قُصارك الدهـــليـ زُ حين سواك في المَضْجَع

استدركت عليه ولاّدة وقالت: قل يابن زيدون:

فإن قُصاركَ الاصْطب لُ حين سواك في المَضْجَع

ولعل أسبابَ الخصومةِ التي بدأت بين ولاّدةَ وابنِ زيدونَ تعودُ إلى اهتمامِهِ بجاريتها عتبةَ عندما طلبَ منها أن تُعيدَ ما غنّت،فدبت الغيرةُ في قلبها ، كما أن تشهيرَه بها وإعلانَه في أكثرِ من مرةٍ أن اتصالَهُ غيرَ مشروعٍ و ذلك حين يقول(٦٨):

أكلُّ شهيّ أصبنا من أطَايبِهِ بَعضاً وبَعْضاً صَفَحْنا عَنه للفَارِ

إضافة إلى الوشاية التي سعى بها أعداؤه الذين أرادوا هدم سعادته، وفي ذلك يقول:

غِيظَ العدا من تَساقِينا الهَوى فَدَعوْا بِأن نَغَصَّ فقال الدهر آمينا

ويقول :

ياليتَ شِعرِيْ ولم نُعتِبْ أعادِيَكم هل نال حظاً من العُتْبَى أعادينا

أما موقفُها من تشهيرِهِ لها والتعرّض إليها؛ فكان فيه هجاءٌ عنيفٌ كالعاصفةِ .و لها فيه من الهجاء الفاحش ما لا يصدق . و قد اهدَت ولادة إلى الشعر العربي كنوزاً غنية مملوؤة بالعواطف و الأحاسيس و الأشواق و استطاعت أن تطغى على شاعرات عصرها في الأندلس

مهجة بنت التّياني القرطبية

كانت من أجملِ نساءِ زمانها، تنتمي إلى طبقةٍ غير طبقةِ ولاّدة، وكان أبوها بائعَ تين(٦٩) ولذلك عُرِفَتْ باسم مهجة بنت التّياني، وأعجبت بها ولاّدةُ لخفةِ روحها، ورقّةِ شعرِها، وجمالِ محياها، تقوَل في بيتين عُدّا من أجود شعرها وأطيبه تمدح بهما ولاّدة:

لئن حلأت (٧٠) عن ثغرها كل حائم
فما زال يَحْمي عن مطالبه الثغرُ
فذلك تحميه القواضبُ والقنا
وهذا حِماهُ من لواحظِهَا السِّحرُ

وساءت علاقتُها بولاّدة، فهجتها هجاءً فاحشاً تقول فيه(٧١)والملاحظُ على مهجة أن فحش القول

كان يجري على لسانها سليقة وطبيعة، استعملت الألفاظ البذيئة وذكرت العورات.

عتبة

جارية ولاّدةَ بنتِ المستكفي، وجاء في الذخيرةأنها «جاريةٌ سوداء، بديعة الغناء»(٧٢)، وكانت تقوم بدور المغنية أمام ولاّدة وابن زيدون وغنّت منشدة(٧٣):

أحبّتنا ، إني بلغتُ مؤملي
وساعدني دهري وواصلني حبِّي
وجاء يهنيني البشيرُ بقربه
فاعطيتُه نفسي وزدتُ له قلبـــي

وعندما سمعها ابنُ زيدونَ طلبَ منها الإعادةَ دونَ علمِ ولاّدة فغضبت ولاّدة وكان هذا أحدَ أسبابِ نفورها من ابنِ زيدون كما رأينا آنفاً .

* * *

وفي الختام يمكن القول إن المرأة في عصرِ ملوكِ الطوائفِ قد تميّزت بحضورها في المنتدياتِ الشعريةِ والثقافية، ووجدناها تقول الشعرَ في معظم الاتجاهاتِ السائدة سواء منها الاتجاه المحافظ الذي مثّلته الغسانيةُ البجانية، أم الاتجاه الجديدَ الذي تمثّلَ بالموشحاتِ كما عند نزهونُ الغرناطية وقسمونة، أم اتجاه الغزل والمدح والحكمة والفخر ووجدناه عند معظم هؤلاء الشاعرات الحرائر والجواري.

و الذي نراه في هذه الحقبةِ أن الجارية كانت شاعرةً ماهرة تميّزت بالفطنةِ وسرعةِ البديهة. ولاحظنا أن الآباءَ قد عُنُوا عنايةً فائقة بتربية بناتهم على العلم والأدبِ وقولِ الشعر.

واستطاعت المرأةُ أن تجاري الرجال، فقالت الشعرَ الصريحَ والجرىء، وقد تمثّل ذلك بالصبابة في تصوير اللوعةِ والمحاسن والإغراء وضرب المواعيد، ومعاناة الفراق...

ونقول في النهاية إن المرأةَ الأندلسية في عصرِ ملوكِ الطوائفِ نالت منزلةً رفيعة، فاتسعَ نفوذُها الشعري وقوي سلطانُها، وكان إسهامُها في الشعرِ واضحاً، إذ استهوت قلوبَ الأمراء والملوكَ والوزراءَ والشعراء.

وأخيراً ، فإن أكبرَ مشكلةٍ في مثل هذا البحث هي ندرةُ المصادر والأخبار التي تروي لنا أخبارَ هؤلاء الشاعرات، وأحوالهن الاجتماعية وشعرهن، ولكني حاولت جاهداً استقصاء ما وجدته لهن من أخبار وأثبت ما لهن من شعر.

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

الحواشي :

١ – الشعر الاندلسي، غارسيا غوميس، ترجمة حسين مؤنس، ٤٥، ٤٦.
٢– النويري، نهاية الارب، ج٢٢ ق ١، ٨٠ – ٨٤.
٣ – المراكشي، المعجب، ٢٤١.
٤ – الشعر في عهد المرابطين والموحدين بالاندلس، محمد مجيد السعيد، ١٩٨٠، ص ٤٩ – ٥٠.
٥ – الأدب الأندلسي، ١١٧ – ١١٨.
٦ – المراة في حضارة العرب، ٢٣٩، دار النشر للجامعيين ١٩٦٢، الشعر النسوي في الأندلس، محمد المنتصر الريسوني، ٤٠.
٧ – في الأدب الأندلسي، جودت الركابي، ٩٧.
٨ – نفح الطيب، من غصن الأندلس الرطيب، تحقيق محمد محي الدين عبدالحميد، دار الكتاب العربي، بيروت ١/ ١٥٤.
٩ – الأدب الأندلسي، موضوعاته وفنونه، ص ١٤٤.
١٠ – المُغرب في حلى المغرب ٢/ ١٩٢.
١١ – نفح الطيب ٢/ ٥٣٩.
١٢ – المُغرب في حلى المغرب ٢/ ١٩٢.
١٣ – نفح الطيب، ج ٦/ ٢٢.و انظر الأدب الأندلسي ، موضوعاته و فنونه ، ١٤٥ .
١٤ –نفح الطيب ٦ / ٢٢
١٥– نفح الطيب /٦ ٢٢ – ٢٣
١٦ – الأدب في الأندلس، موضوعاته وفنونه، ١٤٧.
١٧ – نفح الطيب
١٨ – المُغرب في حلي المغرب ٢/ ٢٠٢، ٢٠٣.
١٩ – المصدر السابق، ٢/ ٢٠٣.
٢٠ – المصدر السابق
٢١ – مئة أوائل من النساء، ٤٤١.
٢٢ – نفح الطيب ٦/ ٢٤.
٢٣ – المصدر السابق ٦/ ٢٣، ٢٤.
٢٤ – المصدر السابق ٦/ ٢٣.
٢٥ – الأدب الأندلسي، موضوعاته وفنونه، ١٥٦.
٢٦ – المغرب ٢/ ١٢١.
٢٧ – المرجع السابق ٢/ ١٢١، النفح ٦/ ٣١.
٢٨ – نفح الطيب ٦/ ٣١.
٢٩ – المرجع السابق ٦، / ٣١.
٣٠ – الأدب الأندلسي، ١٥٩.
٣١ – نفح الطيب ٦/ ٣٢.
٣٢ – نفح الطيب ٦ /٣١.
٣٣ – نفح الطيب م١، ق١، ١٩٢.
٣٤ – النفح، تحقيق إحسان عباس ١/ ١٩٣.
٣٥ – نفح الطيب ٦/ ٣١، ٣٢.
٣٦ – الشعر النسوي في الأندلس ٩٣.
٣٧ – المراة في الشعر الأندلسي، ٢١٧.
٣٨ – النفح، ٥/ ٧٢ – ٧٣.
٣٩ – الشعر النسوي ١٠٤، ١٠٥.
٤٠ – النفح، ٥/ ٧٤.
٤١ – الأدب الأندلسي، ١٦٧.
٤٢ – نفح الطيب، ٦/ ٢٧.
٤٣ – المصدر السابق،
٤٤ – نفح الطيب، ٦/ ٢٧.
٤٥ – المصدر السابق، ٦/ ٢٠.
٤٦ – نفح الطيب، ٦/ ٢١.

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

٤٧ – المرأة في الشعر الأندلسي، ص ٢٨٨.
٤٨ – مختارات من الشعر الأندلسي، ١٠٥، ١٠٦.
٤٩ – المصدر السابق، ١٠٥.
٥٠ – المصدر السابق، ١٠٥.
٥١ – النفح ١/ ٤٤٠.
٥٢ – الشعر النسوي في الأندلس، ٣٠١.
٥٣ – نفح الطيب ٦/ م٣، ١٩، وأعلام النساء في عالمي العرب والإسلام ٣/ ٣٢٧، ط٢، ١٩٥٨.
٥٤ – المُغرب ٢/ ٣٨.
٥٥ – الشعر النسوي، ٩٤.
٥٦ – نفح الطيب ٥/ ٣٠١، ٣٠٢.
٥٧ – المغرب ٢/ ٣٨.
٥٨ – المصدر السابق ٢/ ٣٨.
٥٩ – الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة، ، قسم أول، مجلد أول، ص ٣٧٩.
٦٠ – المرجع السابق ج ١/ م١/ ٣٨٠.
٦١ – نفح الطيب ٥/ ٣٣٦.
٦٢ – المصدر السابق ٥/ ٣٣٧.
٦٣ – المصدر السابق
٦٤ – الذخيرة ، ق ١/ م ١/ ٣٧٨.
٦٥ – النفح ٥/ ٣٣٨.
٦٦ –المصدر السابق
٦٧ – الشعر النسوي، ٨٢ – ٨٣.
٦٨ – المرجع السابق، ٨٤.
٦٩ – المغرب ١/ ١٤٣.
٧٠ – حلات : طردت ومنعت.
٧١– المغرب ١/ ١٤٣.
٧٢ – الذخيرة م١/ ق١/ ص ٤٣١.
٧٣– ديوان ابن زيدون، ص ١٢٠.



المصادر والمراجع :

– احدادين، محمد، «المرأة في الأدب الأندلسي في عصر بني أمية»، حلب، ١٩٨٧ (رسالة ماجستير).

– ابن بسام، علي بن بسام الشنتريني، «الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة»، تحقيق إحسان عباس، بيروت، دار الثقافة، ١٩٧٩.

– البواب، سليمان سليم، «مئة أوائل من النساء»، دمشق، دار الحكمة ، ط٢، ١٩٨٦.

– بيهم، محمد جميل، «المرأة في حضارة العرب والعرب في تاريخ المرأة»، بيروت، دار النشر للجامعيين، ١٩٦٢.

– جوميس، اميليو غارسيا، «الشعر الأندلسي: بحث في تطوره وخصائصه»، ترجمة حسين مؤنس،القاهرة مكتبة النهضة ، ١٩٥٦.

- الداية، محمد رضوان، «مختارات من الشعر الاندلسي»، بيروت، المكتب الإسلامي، ١٩٦٩.

- الركابي، جودت، «في الادب الاندلسي»، القاهرة، دار المعارف، ، ط٢، ١٩٦٦.

- الريسوني، محمد المنتصر، «الشعر النسوي في الأندلس»، بيروت، مكتبة الحياة، ١٩٧٨.

- ابن زيدون، أحمد بن عبدالله، «ديوان ابن زيدون»، شرح وتحقيق كرم البستاني، بيروت، دار صادر، ١٩٦٠.

- السعيد، محمد مجيد، «الشعر في عهد المرابطين والموحدين بالأندلس، ١٩٨٠.

- ابن سعيد، ، «المُغرب في حلي المغرب»، تحقيق شوقي ضيف، القاهرة، دار المعارف، ط٣، ١٩٧٨.

- سلمان علي سلمى، «المرأة في الشعر الأندلسي (عصر الطوائف)»، بغداد، ١٩٨٦، (رسالة ماجستير).

- الشكعة، مصطفى، «الأدب الأندلسي، موضوعاته وفنونه»، بيروت، دار العلم للملايين، ط٢، ١٩٧٩.

- كحالة، عمر رضا، «أعلام النساء في عالمي العرب والإسلام» ط٢، دمشق، ١٩٥٩.

- المراكشي، عبدالواحد بن علي، «المعجب في تلخيص اخبار المغرب»، تحقيق محمد سعيد العريان، القاهرة، ١٩٦٣.

- المقرّي، أحمد بن محمد، «نفح الطيب من غصن الأندلس الرّطيب»، تحقيق محمد محيي الدين عبدالحميد، دار الكتاب العربي، بيروت، لبنان، ١٩٤٩.

- النويري، أحمد بن عبدالوهاب، «نهاية الارب في فنون الأدب»، القاهرة، المؤسسة المصرية العامة.

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

□ □ □

اثر العرب

في تطور برمجيات الحاسوب



ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

الدكتور عبد جزاع العجيلي
الدكتور احمد مشـــهور
قسم الحاسب الالكتروني – جامعة اليرموك – الاردن

يقوم علم الحاسوب على أسس مختلفة من أهمها العلوم الرياضية بفروعها، من حساب وجبر وهندسة، وهي من العلوم التي برع فيها وأرسى دعائمها علماء العرب الأوائل. ومع أنّ علم الحاسوب وما يقدمه من نظم برمجيّة متعددة لخدمة الإنسان فهو علم حديث، إلاّ أن الروّاد الأوائل من هذه الأمة وضعوا أسس الأنظمة البرمجية ووضحوا كيفية معالجة البيانات الحسابية التي أصبحت فيما بعد الأساس في عمليات الحاسوب، وإنّ الخوارزميات أو الأساليب العامة لحلّ المشكلات لأكبر دليل على مساهمة العرب في هذا المجال.تتكوّن أساسيات البحث من عدة أجزاء، يعرض القسم الأول الآثار التي خلّفها العلماء العرب في الحساب والجبر وأهميتها في علم الحاسوب، في حين يبيّن الجزء الذي يليه أهمية الخوارزميّات على تطوير برامجيّات الحاسوب، وأخيراً نتعرض بإيجاز إلى البرامجيّات العربية الحاليّة والاتجاهات المستقبلية في مجال البرمجة باللغة العربية.

أساسيات البحث :

نوضح في هذا البند أثر الحساب والجبر وكذلك الخوارزميّات على تطور نظم البرمجيّات.

أ - الحساب والجبر :

برع علماء العرب في وضع أسس علم الحساب والجبر والهندسة، التي تعدّ أساس علم الحاسوب، حيث تمّ على أيديهم تعريف الأرقام العشريّة التي تعدّ ذات أهميّة كبيرة في تنفيذ الحسابات المعقّدة بدقة، وقد سمي هذا النظام بالنّظام العشري (ويتكون من الأرقام O ... 9) أو نظام الأعداد العربية. ولايكاد يخلو كتابٌ في الحساب أو أسس الحاسبات من بيان فضل العرب في اختراع الأرقام العشريّة. انظر على سبيل المثال كتاب العالمين Robert Lynch و John Rice اللذين أشادا في كتابهما(١) بأهمية نظم الحساب العربية وأثرهما في تطور العلوم المختلفة، يؤيد ذلك الاقتباس التالي:

"The Arabic number, the one we Use today, Provided the key to efficient Arithematic Calculation".

استطاع علماء الرياضيّات العرب مابين القرن السابع والثاني عشر الميلادي تطوير أساليب العمليّات الحسابيّة الأربع (الجمع والطرح والضرب والقسمة). كما استطاعوا تطوير الترقيم العشري إذ وضعوا له قواعد وأصولاً حسابية. فكانوا أوّل من وضع مراتب الأرقام العشرية إذ مثلت كل مرتبة بالرقم ١٠ وقد استفاد الغرب من هذا في وضع أسس النظام الثنائي الذي يعتمد بصورة مباشرة على هذا النظام وطرق حسابه. فبدون النظام العشري يمكن الجزم أنّ إمكانية الوصول إلى المبتكرات الحاليّة يُعدّ ضرباً من الخيال، والدليل على ذلك أنّ تعليم مبادىء الحاسبات في معظم جامعات العالم يتمّ عن طريق توضيح النظام العشري في بادىء الأمر وطرق التحويل بينه وبين النظام الثنائي المُستخدم في أجهزة الحاسوب، كما يوضّح المثال التالي:

الرقم ٧٥٦٩٢ في النظام العشري عبارة عن:

$$10^4*7 + 10^3*5 + 10^7*6 + 10^1*9 + 10^0*2$$

والرقم ١١٠١١ في النظام الثنائي عبارة عن:

$$2^4*1 + 2^3*1 + 2^2*0 + 2^1*1 + 2^0*1$$

وكان للعلماء العرب دور أساسي في وضع القواعد والنظريات العلمية في حقل الرياضيات، فكان لهم الدور الأول في استعمال الصفر الذي بوساطته نستطيع إجراء جميع الحسابات المطلوبة، وباستخدامه استطاع العلماء حل كثير من مشكلات العصر الحالية، كمعادلات الفرق التفاضليّة والمعادلات من الدرجات العالية وما شابه ذلك.

ولم تقف مساهمات العرب عند هذا الحد بل كان لهم كل الفضل في وضع القواعد الأساسية للكسور العشرية التي لا يمكن لأحد بدونها أن يجري العمليات الحسابيّة المعقدة بصورة دقيقة، وخصوصاً العمليات التي تُستخدم في الحاسبات الالكترونيّة، لما للحاسبات من درجة كبيرة من الدقة في التعامل مع الأعداد والبرامج(٢).

لقد استفاد علماء الغرب من النظم الحسابية التي أرسى قواعدها العرب في تطوير نظم الحاسبات، واستفادوا كذلك من الأسس

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

والمراتب العشرية كما أسلفنا. فقد استعار علماء الغرب على سبيل المثال مفهوم الجمع والطرح لإجراء العمليات الحسابية للضرب والقسمة. وهذا المبدأ هو نفسه الذي يستند عليه نظام الحاسوب. كذلك وضع علماء العرب وخاصّة ابن يونس المصري، وابن حمزة المغربي أصول تحويل الضرب إلى عمليات جمع. ومن الأمثلة على ذلك استخدامهم للصيّغة أدناه لتحويل عمليات الضرب إلى عمليات جمع:

$$\text{جتاس} \times \text{جتاص} = \frac{١}{٢}\text{جتا}(\text{س}-\text{ص}) + \frac{١}{٢}\text{جتا}(\text{س}-\text{ص})$$ 4,3

ب - الخوارزميّات

تعدّ الخوارزميّات من العلوم الأساسية في برمجيات الحاسوب، فعن طريقها يتم برمجة الحاسوب، والخوارزميّات مجموعة من التعليمات يمكن للحاسوب اتّباعها. أخذت كلمة خوارزميّة من اسم العلاّمة العربي محمد بن موسى الخوارزمي واضع نظرية المجاهيل والمعاليم ونقل الحدود وكتاب مفاتيح العلوم(٥)، فقد وضع أسس حل المسائل على شكل مجموعة من الخطوات المتسلسلة التي تستخدم في حل المسائل بمختلف أنواعها والتي تعدّ أحد المفاهيم الأساسية في علم الحاسبات الالكترونية. نستطيع القول بأن نظرية الخوارزميات وأسسها التي وضعها الخوارزمي لا زالت متطورة عمّا هي عليه في الوقت الحاضر، إذ إنّ التعليمات التي أفاد بها الخوارزمي هي نفسها التي يصبو إليها علماء الحاسوب في الغرب. ففي الوقت الحاضر يحاول معظم علماء الغرب إيجاد طريقة أو لغة مشتركة هي «الخوارزمية» التي عن طريقها يتم تلقين الحاسوب طريقة الأداء.

لقد قام الخوارزمي بتصنيف المشكلات ودراستها وحلّها، وذلك وفق مجموعة من الخطوات، التي سنوردها، والتي لا زالت تُستخدم في معظم كتب الحاسبات الالكترونيّة والبحوث المنشورة في شتى أنحاء المعمورة (٦، ٧، ٨).

وكما ذكرنا فان الخوارزميّات هي أساس البرمجيّات في الحاسبات الالكترونية إذ يمكن إيجاد الحلول المقبولة عن طريق الخوارزمية الصحيحة بالرغم من وجود بعض المشكلات التي ليس لها حلول بواسطة الحاسوب وذلك لعدم توافر الخوارزمية الصحيحة. فمسألة البائع المتجوّل مثلاً وغيرها من تطبيقات الذكاء الاصطناعي، مثل الرجل الآلي إذ لا يمكن إيجاد حل للمسائل التي يزيد عدد أنشطتها عن ثلاثين نشاطاً حتى في أكبر الحاسبات الالكترونية. وهذا يدل على أنّ الحاسوب بدون الخوارزمية الصحيحة لا يمكن أن يؤدي الدور المطلوب. لقد وضع الخوارزمي الخطوط الرئيسة لعلم الخوارزميّات وما اشتقّ منها من علوم أخرى، وأوصى عند تصميم الخوارزميّة بما يلي:

١ - وصف الخوارزمية

تعتمد طريقة الوصف إلى درجة كبيرة على المشكلة التي ترغب في وصف طريقة حلٍ لها، ومن خلال معرفة طرق الوصف هذه يستطيع الباحث معرفة وتدقيق كفاءة الخوارزميّة أو تبديلها أو تحويرها بحيث تتلاءم والمعطيات.

٢ - التعبير عن الخوارزميّة

لقد عبّر عنها الخوارزمي بصورة واضحة

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

ويجمل مفهومة ومحسوسة، وهذا التعبير هو الذي أدّى إلى ما يسمّى بالبرمجة الهيكليّة Structured Programming.

٣- تدقيق صحة الخوارزميّة

أكّد الخوارزمي على ضرورة تدقيق صحة الخوارزميّة وأنّ الخوارزمية يجب أن تعطي النتائج المطلوبة، وهذا الاصطلاح أطلق عليه الغرب Algorighm Validation .

٤- تحليل الخوارزمية

أوفى العلماء العرب هذه الخطوة حقها إذ قاموا بتحليل التجارب وإجرائها على كل ما اخترعوه، وقد وصف الخوارزمي الخوارزميات في أيسر صورة لها وتطرق إليها بأسلوب سلس وبيّن أسلوب حساب الوقت الذي تستغرقه الخوارزمية من خلال إعطاء بعض القيم. وهذا العلم سماه العرب Algorithm Complexity

والخطوات السابقة قد تجدها في معظم كتب الحاسبات الالكترونية الحديثة، وقد عدّها الغرب اكتشافاً كبيراً لعلمائهم أمثال Brims, Kruskal, Dijkstra، (٩، ١٠).

- البرمجيات باللغة العربية في الوقت الحاضر

قطع الباحثون العرب شوطاً طويلاً في تمثيل الحروف بالحاسوب باستخدام ثماني ثنائيات (بت) bit مستوحاة من النظام العالمي القياسي للحاسوب لأنّ في اللغة العربية بعض الاختلافات مثل وجود الحرف في أشكال حسب موقعها من الكلمة التي قد تصل إلى أربعة أشكال.

لقد استطاعت بعض شركات الحاسوب التجارية عمل مرادفات للغة العربية من أجل تسويق منتجاتها. فقامت بإنتاج لغات برمجة متعددة تستند في معظمها إلى لغة بيسك Basic Programming Language نذكر منها على سبيل المثال الخوارزمي، ديوان، صخر، نجلاء، السعودية، وجميعها تعمل على الأجهزة الصغيرة. كما قامت شركة Digital Corporation بتعريب لغة البرمجة المسمّاة «المحترف ٣٨٠» وهي تعمل على أجهزة PDP-11 و VAX-11 وهي من الحجم المتوسط. وهناك لغات أخرى تعمل على أجهزة HP3000، كما أن شركة Apple Macintosh أقدمت على تعريب جهازها. ويبدو أنّ هذه اللغات لم تلق شيوعاً جيداً في الوطن العربي وذلك لتباين الترجمات واستخدام عبارات تنمّ على الترجمة الحرفية عن اللغات الأجنبية، مما جعل المختصين من أبناء هذه الأمة يعزفون عن استخدامها.

- الاتجاهات والمستقبلية في مجال البرمجة العربية

اتّسعت الهوّة بين العالم المتقدم والعالم العربي في مجال البرمجيّات، حيث أخذ الغرب يدخل منظومة البرمجيّات في مجالات الحياة اليومية المختلفة. أمّا نحن العرب فنركض وراءهم للحصول على البرمجيّات الجاهزة التي ليست لهم حاجة بها والتي لا تسمن ولا تغني من جوع. لذا يتوجب الأمر اتّخاذ إجراء حاسم لكتابة البرمجيّات باللغة العربية، وقد يجد القارىء أنّ اللغة العربية لها ميّزات كبيرة تساهم في تقدم عجلة التطور، ولا يمكن أن يُنكر المرء أنّ العلماء

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

العرب قد قطعوا شوطاً واسعاً في مجال التعريب ولكنّ الجهود المبعثرة هنا وهناك وعدم وجود جهة حكوميّة تولي اهتماماً كبيراً في احتضان الباحثين أدّى إلى تدنّي المستوى وتشتت الجهود.

ومن جملة البرمجيّات التي نحتاج إلى تعريبها:

١ - **نظم التشغيل** Operating Systems

٢ - المترجمات (نظم التأليف) Compilers

٣ - البرامج التطبيقيّة Application Programs

بالنسبة لنظم التشغيل يستطيع المرء أن يجزم أنّ للغة العربية ميزة في هذا المجال، وبإمكان العرب بدلاً من ترجمة نظم التشغيل اختيار فريق عمل لإنشاء نظام عربي موحّد، وهذا النظام لا يمكن أن يكون مجرّد نظام تشغيل وإنّما مجموعة من البرمجيّات المساعدة في تنفيذ مهام المبرمج بسرعة كبيرة، وهذه يمكن أن تكون مشابهة للنظام الذي تقوم بتطويره المجموعة الأوروبية PCTE ونظام CASE الذي تقوم بتطويره الولايات المتحدة.

أمّا المترجمات فهناك محاولات عديدة منذ أوائل الثمانينات لكتابة المترجمات باللغة العربية. ونحن لا نرى أية صعوبة في وضع مواصفات خاصة للغة عربية بعيداً عن أسلوب محاكاة اللغات الأجنبيّة. بحيث يتم إنشاؤها دون المرور عبر مرحلة اللغات الرمزية ذات المستوى المتدنيّ Low-Level Languages وإنّما مباشرةً إلى لغة الآلة، وبهذا يسهل التعامل مع الآلة مباشرة، دون الرجوع إلى الترجمات السطحيّة.

أما البرامج التطبيقيّة وبرامج التحرير فليست من الصعوبة بمكان سواء تمّ تحويرها أم إنشاؤها من الأصل، وهناك الآن تطبيقات عديدة في اللغة العربية مثل النافذة، مساعد العربي، الناشر العربي، وكثير غيرها(١١).

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

**

لقد أرسى العرب الركائز الأساسيّة لمعظم العلوم الحديثة، كما استفاد العالم من الصرح الحضاري الهائل لهذه الأمّة في عصر نهضتها في مختلف مجالات الحياة العلمية والعمرانيّة. فقد برع العلماء العرب في وضع أسس النظم الحسابيّة بمختلف أنواعها وهي أساس علم الحاسوب. وكذلك أسسوا ووضعوا قواعد علم الخوارزميّات الذي لا يزال علماء الحاسوب ونظم البرمجيّات مدينين لهم. أمّا في الوقت الحاضر فقد ساهم العلماء العرب في توسيع علم الحاسوب من خلال الترميز العربي، ولا يخفى ما لهذا من أثر في تحسين أداء الحاسوب، ومازال يُنتظر منهم القيام بدور أكبر لخدمة أمتهم في هذا المجال الهام ذي الآثار الحضارية الواضحة.

□ □ □

الحواشي

1 - Robert E. Lynch and John R. Rice, "Computers: Their Impact and Use", Holt-Rinehart and Winston Inc., 1975.

٢ - خضير المنشداوي «المعرفة في علم الحساب الهوائي»، بغداد، دار الآثار والتراث، ١٩٨٨.

٣ - محمد عوين، «مقدمة في علم الحاسب الآلي»، ليبيا، الدار الجماهيرية للنشر والتوزيع والإعلان، ١٩٨٧.

٤ - علاء الدين عويد، «الحاسبات الالكترونية وبرمجتها»، بغداد، مطبعة الرسالة، ١٩٨٧.

5 - Ellis Horowitz, Sartaj Sahn

i "Fundementals of Computer Algorithms", Computer Science Press, Inc., 1978.

6 - D. E. Knuth, "Algorithms", Scientific American, April, 1977.

7 - J. Darligton, R. M. Burstall, "A System which automatically improves programs", Standford, 1973, pp 479-485.

8 - ACM Computing Survey, Vol 8, No. 3, September, 1976.

9 - Thomas A. Reed, "An Introduction of Algorith Design and Structured Programming", Prentice-hall, 1988.

10 - Alfred V. Aho, John E. Hopcroft, and Jeffery D. Ulman" The Design and Analysis of Computer Algorithms", Addison-Wesley publishing company, 1974.

11 - Microsoft: Windows User, Middle East, Vol. 1, Nov., 1992.

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

الأسلحة الخفيفة في التراث العربي الإسلامي

المهندس الدكتور محمود فيصل الرفاعي

رئيس قسم تاريخ العلوم التطبيقية

معهد التراث العلمي العربي - حلب

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

ارتبط العلم بالصناعات الحربية عبر التاريخ، ذلك أن الحرب كانت من الحوافز الهامة لتطور العلوم الأساسية والتطبيقية. إذ يستدل من الأحداث التاريخية على أنّ كلّ دولة أو حضارة انتقلت في فترات من تاريخها من السلم إلى الحرب بحيث صارت الحرب أمراً لا مفر من مواجهته.

يقول الفيلسوف الألماني كلوزويتر(١) «الحرب بمعناها الدقيق هي القتال وضرورة القتال دعت الإنسان بصورة ملحة للتفكير بالمخترعات التي تستهدف بصورة خاصة ضمان النصر وكسب المعركة... فالمعركة هي التي تحدد كل ما له علاقة بالأسلحة والعتاد».

الأسلحة الخفيفة واستخداماتها

يقسم المهندس العسكري الأسلحة من حيث وظيفتها إلى هجومية ودفاعية، كما تقسم الأسلحة من حيث الاستعمال إلى خفيفة ومتوسطة وثقيلة. وتضم الأسلحة الخفيفة نوعين: الأول الأسلحة الجارحة أو الراضّة التي يستخدمها المحارب فردياً في الالتحام المباشر مع العدو كالسيف والرمح والدبوس والخنجر والفأس والطبر. والنوع الثاني الأسلحة الرشيقة، وهي أسلحة فردية أيضاً ولكنها تستعمل على مسافة من العدو، وتضم القِسِيّ بأنواعها والسهام والقنابر والبندق.

وقد بيّن التراث الحربي العربي الإسلامي الاستعمالات الميدانية للأسلحة الخفيفة الرئيسة؛ فعندما اجتمع الرسول صلى الله عليه وسلم بفريق من أصحابه ليلة بدر قبل أن يستنفرهم إليها وسألهم بقوله: «كيف تقاتلون؟» قام إليه عاصم بن ثابت الأنصاري رضي الله عنه وكان قوي القلب والإيمان

والجسم، يحمل كل معدات القتال الفردي في ذلك الوقت، وهي السيف والرمح والقوس والكنانة، فوقف وقفة الجندي المستعد للقتال وأمسك القوس والسهم وقال: يارسول الله، إذا كان العدو على مئتي ذراع كان التراشق بالنُّبل، ورمى بإحداها. ثم أمسك رمحه وأخذ يحركه بيد الخبير المجرب، ثم قال: فإذا كان قيد رمح كانت المداعبة بالسِّنان. ثم ركزه في الأرض، واستل سيفه، وأخذ يقفز ويضرب به الهواء كأنه يقارع خصمه وهو يقول: حتى إذا التحم الجيشان وتلاقى الأقران وتواجهت الأبطال كانت المجالدة بالسيف حتى يظهرنا الله على عدوه. فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «هكذا أنزلت الحرب، من قاتل فليقاتل كما يقاتل عاصم».

خواص السيف الحربية

يعدّ السيف من أشرف الأسلحة التراثية عند العرب، يحافظ عليه كل محارب ولا يكاد يفارقه، وهو أعم الأسلحة الفردية وأكثرها شيوعاً. والأدب العربي مليء بتمجيد السيف الذي تجاوزت أسماؤه المئة كما ذكرها أصحاب اللغة.

وأخذ السيف مكانته الدينية العالية بعد أن بيّن الإسلام أهميته؛ فقد جاء عن أبي بكر بن أبي موسى الأشعري أنه قال: سمعت أبي رضي الله عنه وهو بحضرة العدو يقول: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «إنّ أبواب الجنة تحت ظلال السيوف». فقام رجل رثُّ الهيئة فقال: ياأبا موسى، أنت سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول هذا؟ قال: نعم. فرجع إلى أصحابه، فقال: أقرأ عليكم السلام. ثم كسر جفن سيفه فألقاها، ثم مشى بسيفه إلى العدو، فضرب حتى قتل(٢).

وفي حديث عتبة بن عبدالسلمي أنّ رسول الله صلى الله عليه وسلم قال وهو يصف القتلى في الحرب: «إن السيف محّاء للخطايا إنّ السيف لايمحو النفاق»(٣). وفي حديث آخر عن طاووس اليماني أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: «إن الله بعثني بالسيف بين يدي الساعة، وجعل رزقي تحت ظل رمحي، وجعل الذل والصَّغار على من خالفني، ومن تشبه بقوم فهو منهم»(٤).

اكتسب السيف قيمته الكبيرة لكونه السلاح الأول في الالتحام بالعدو وقتاله عن قرب، واستخدمه المجاهدون في الإسلام على مر العصور. وطريقة استخدام المحارب للسيف هي التي حددت شكله، فالسيف الإسلامي خفيف الوزن يستعمله الجندي بحركة دائرية للرسغ مع تحريك خفيف للذراع كلها، مما كان يساعد المحاربين على القتال ببساطة ورشاقة وخلال وقت طويل.

كان السيف في صدر الإسلام مستقيماً مدبباً ذا حدين قاطعين، ويبدو أنه كانت هناك علاقة تربط بين طوله وعرضه وسمكه وثقله وطبيعة المعدن الذي صنع منه، هذه العلاقة كانت تجريبية يعرفها الصناع ويكتسبونها بالخبرة والمران والممارسة، والكتب التراثية تخلو من أية إشارة إلى قياس أو رقم يعبّر عن أبعاد السيوف.

وواجه السيف الإسلامي سيوف الأمم الأخرى كالفرس والبيزنطيين والصليبيين، وكانت سيوف هؤلاء ذات صفات مشتركة في الكبر والثقل، وكان السيف الثقيل يستخدم بتحريك الفارس الذراع بكاملها أو بتحريك الراجل كلتا اليدين، وكان المحارب يلوِّح به في دائرة واسعة ليصيب عدوه، فيوقعه بضربة تفوق حركته.

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

ونظراً لكون طريقة استخدام السيف الإسلامي لم تتغير خلال مدة طويلة فإنّ شكله ظل محتفظاً بهيئته العامة.

ويبدو أن تغيّراً طرأ على شكل السيف الإسلامي بين القرنين السابع والتاسع الهجريين/ الثالث عشر والخامس عشر الميلاديين فتحوّل تدريجياً من المستقيم ذي الحدين إلى الشكل المقوِّس ذي الحدّ الواحد، وكان لهذا التحوّل علاقة باستخدام السيف وبطريقة القتال التي وفدت من آسيا الوسطى، واكتسبها المسلمون بعد قتال المغول.

صناعة السيف

ترجع الشهرة التي اكتسبها السيف الإسلامي في العالم الغربي إلى سببين: الأول الجودة العالية لصناعة السيف، والثاني مهارة المحارب في استخدامه.

وقد وصف عدد من الأوائل السيوف منهم الكندي والبيروني والجلدكي والطرسوسي والزردكاش(٦).

يقول البيروني في كتاب «الجماهر في معرفة الجواهر» في وصف صهر فولاذ البوطقة (Crucible Steel) في دمشق: «ولمزيد بن علي الحداد الدمشقي كتاب في وصف السيوف التي اشتملت رسالة الكندي على أوصافها ابتدأ العمل بنصب الفولاذ وصنعة الكور وعمل البواطق ورسومها وصفة أطيانها وتعيينها، ثم أمر أن يجعل في كل بوطقة خمسة أرطال من نعال الدواب ومساميرها المعمولة من النرماهن (الحديد الطري) ومن كل واحد من الرونتج والمرتشيشا الذهباني والمغنيسيا الهشة وزن عشرة دراهم، ويطين البواطق، وتودع الكور ويملأ فحماً وينفخ عليها بالمنافيخ الرومية، كل منفاخ برجلين إلى أن تذوب وتدور، وقد أعدّ له صرراً فيها إهليلج وقشر رمان وملح العجين وأصداف اللؤلؤ بالسوية مجرشة، في كل صرة أربعون درهماً، يلقى في كل بوطقة واحدة، ثم ينفخ عليها ساعة نفخاً شديداً بلا رحمة، ثم تترك حتى تبرد وتخرج البيضات عن البواطق».

ويقول الجلدكي: «ويخرجون منه الفولاذ المصفى كبيوض النعام، ويصنعون منها السيوف والخوذ وأسنة الرماح وساير العدد، وبالجملة اعلم أن الفولاذ أصفى من الحديد وأصلب».

يبدو أنّ الفولاذ الدمشقي الذي صنعت منه السيوف الإسلامية قد تميّز بمستوى عال من الصلابة والمرونة في وقت واحد، فالسيوف الدمشقية كانت تصنع بصهر أسياخ الحديد اللينة وطرقها وخلطها مع أخرى صلبة بحيث يتم شحذ الحد لفولاذ ذي نسبة عالية من الفحم، ثم يخلط مع فولاذ ذي نسبة ضئيلة من الفحم، فيمكن بذلك تبديل هشاشة السيف وقابليته للكسر، وتحويله إلى قطعة صلبة، ويصبح حدُّه قاطعاً شديد المضاء.

وأكد الحسن(٧) بنتيجة دراسة كتب تراثية أنّ الحديد كان يصنع في دمشق من خامات سورية، وكانت السيوف الدمشقية تطبع من فولاذ مصنوع في دمشق. وقد اكتسبت السيوف الدمشقية شهرة في المشرق والمغرب، لكن هذه الصناعة انقرضت بعد أن غزا تيمورلنك سورية وأخذ معه صناع السيوف من دمشق عام ٨٠٣ هـ/ ١٤٠١ م.

أجزاء السيف

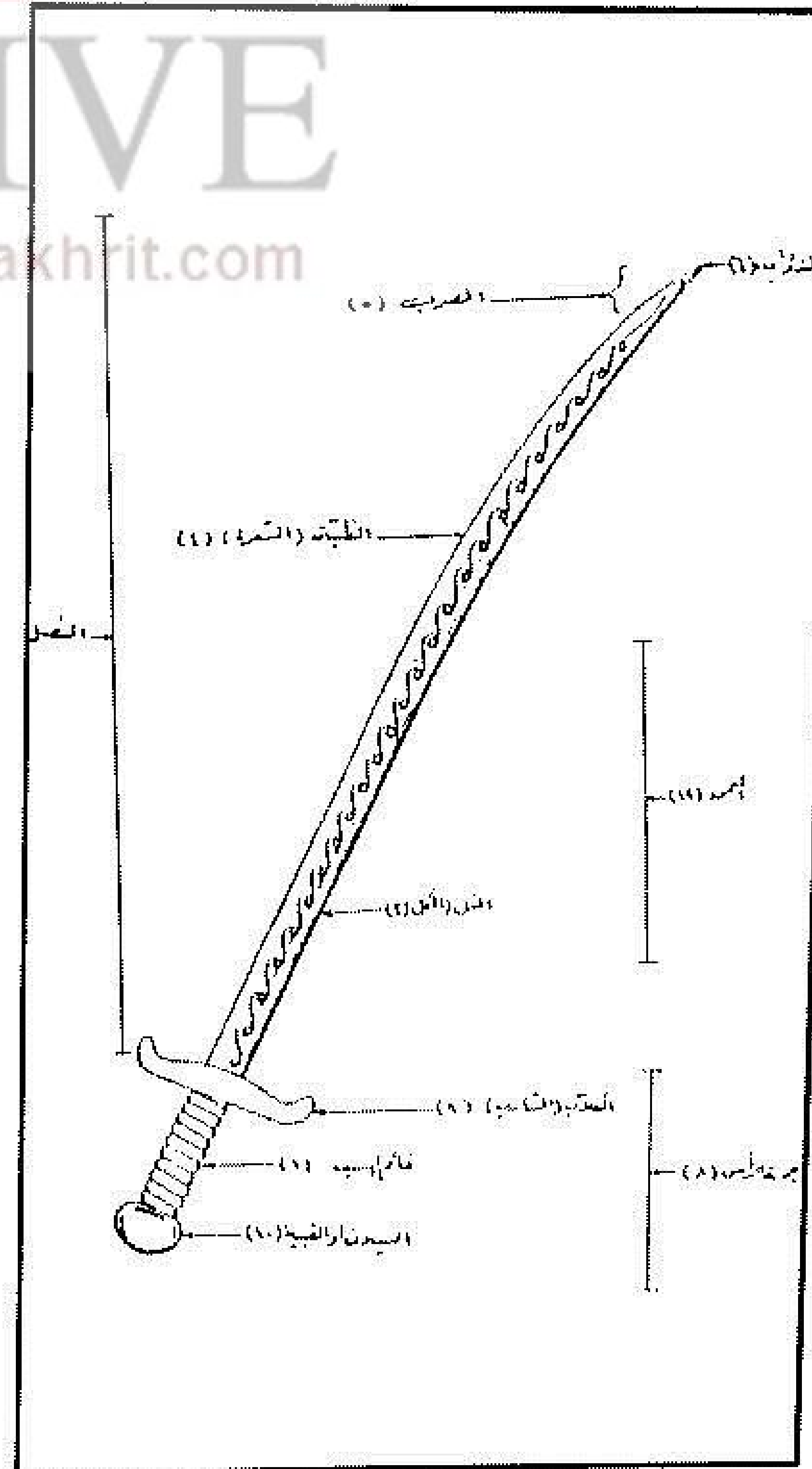
يبين الشكل رقم (١) تسميات أقسام السيف

الإسلامي المقوس ذي الحد الواحد، وقد حصرت من مجموعة من الكتب التراثية.

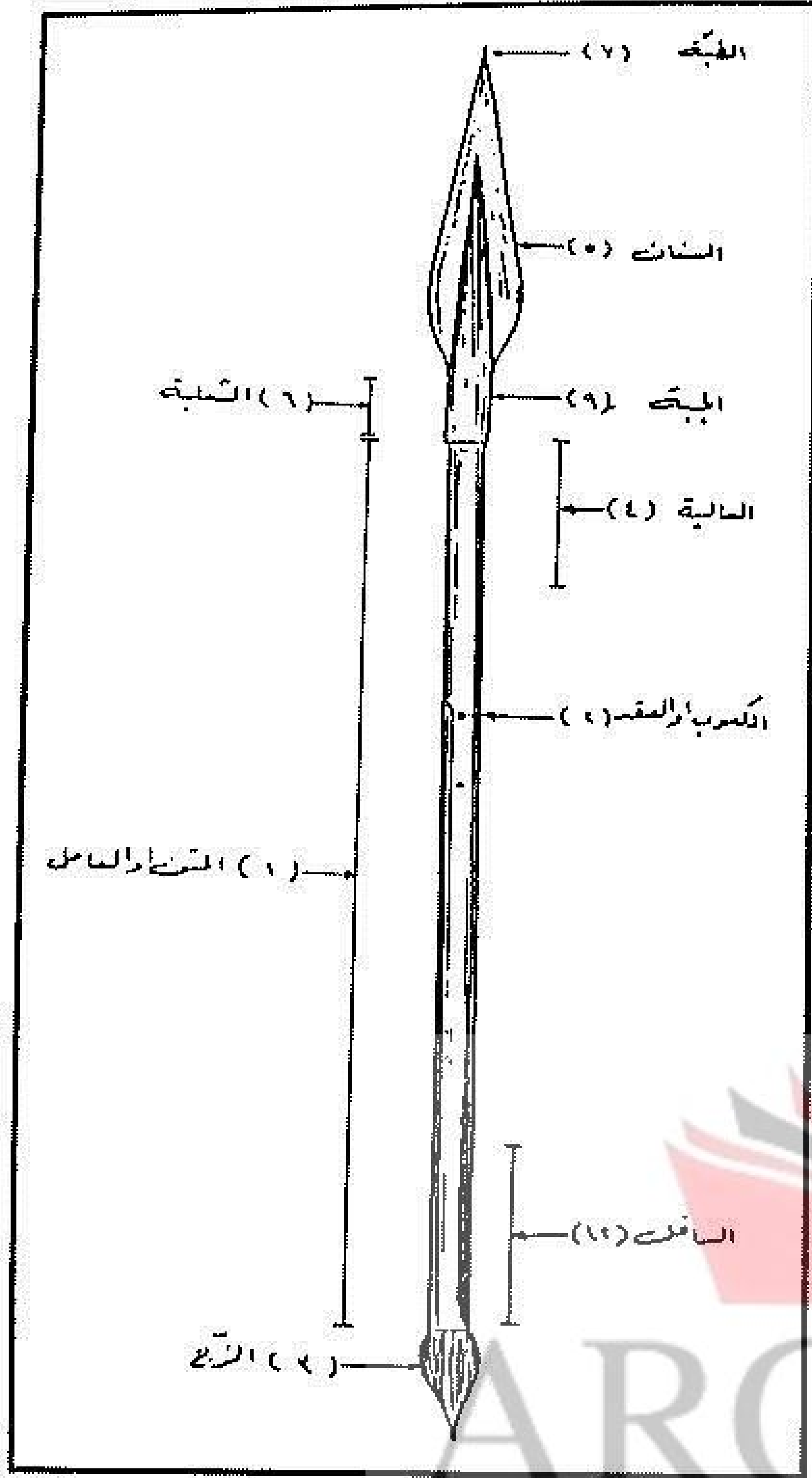
الرمح

سلاح هجومي فردي خفيف، مكون من عود، طوله بين ثلاث أذرع وخمس، في رأسه حربة حادة يستعملها الفرسان أو المشاة للمناجزة، وقد يرمي المحارب خصمه به على مسافة منه.

يصنع الرمح من فروع أشجار صلبة لدنة، أشهرها النبع والشوحُ، ويصنع أحياناً من القصب الهندي أو الخيزران. وبعد تسوية عقد هذه الفروع بالسكّين، يركّب عند رأسه نصل فولاذي قاطع مدبب، ويركّب في أسفله



الشكل (١) و يمثل أقسام السيف



الشكل (٢) و يمثل أقسام الرمح

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

قطعة فولاذية مدببة الرأس أيضاً. (انظر الشكل رقم ٢).

أ - **أنواع الرماح**: للرماح العربية أنواع ورد ذكرها في التراث، تختلف عن بعضها البعض باختلاف الطول أو الوزن أو باختلاف الاستعمال.

ب - **أجزاء الرمح**: في كتب التراث مصطلحات لأجزاء الرمح، (مبينة في الشكل رقم ٢).

ج - **صناعة الرمح** : نسب العرب الرماح إلى صُنَّاعها؛ فالسمهرية عندهم الصُّلبة، سميت برجل معروف بتقويم الرماح يدعى سمهر،

واليزنية نسبوها إلى ذي يزن، والرمح الرُديني عُرف بامرأة تسمى ردينه، كانت تبيع الرماح(٨).

والرمح سلاح قديم عرفه العرب منذ الجاهلية، وكانوا يستوردون الرماح من الهند أول الأمر، ثم بدؤوا يصنعونها بأنفسهم، وكانوا يتخذون قناة الرمح من قصب صُلب أو خشب قوي كالزّان والشوح بطول يتراوح من ٣ إلى ٥ أذرع وسطياً. أما السِّنان فقد كانوا يصنعونه من الفولاذ بأشكال مختلفة، تتراوح بين المشعَّب والعريض والرفيع والمستوي والمموَّج.

وفي كتب التراث إشارات إلى قواعد صناعة الرمح وأصول القتال به(٩).

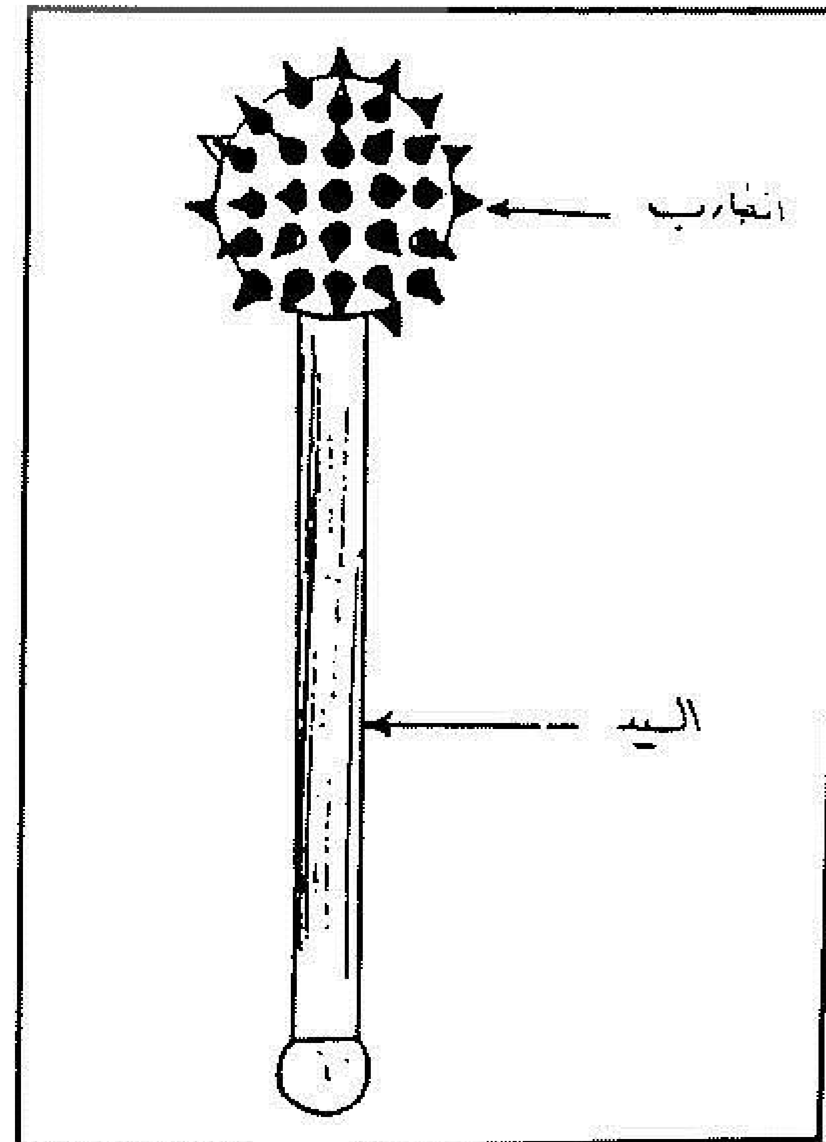
الأسلحة الجارحة الرَّاضَّة

أ - **الدبوس** : ويسمى أحياناً المطرقة، وهي عصا قصيرة برأسها كتلة مكعبة أو كروية معدنية ذات أسنان حادة (انظر الشكل رقم ٣) يحملها الفرسان في سروجهم عادة، ويقاتلون بها عدوهم عند الاقتراب. ومثل الدبوس العمود، لكنه لا يكون إلا قطعة واحدة على شكل قضيب من الحديد برأس ضخم ومضلع.

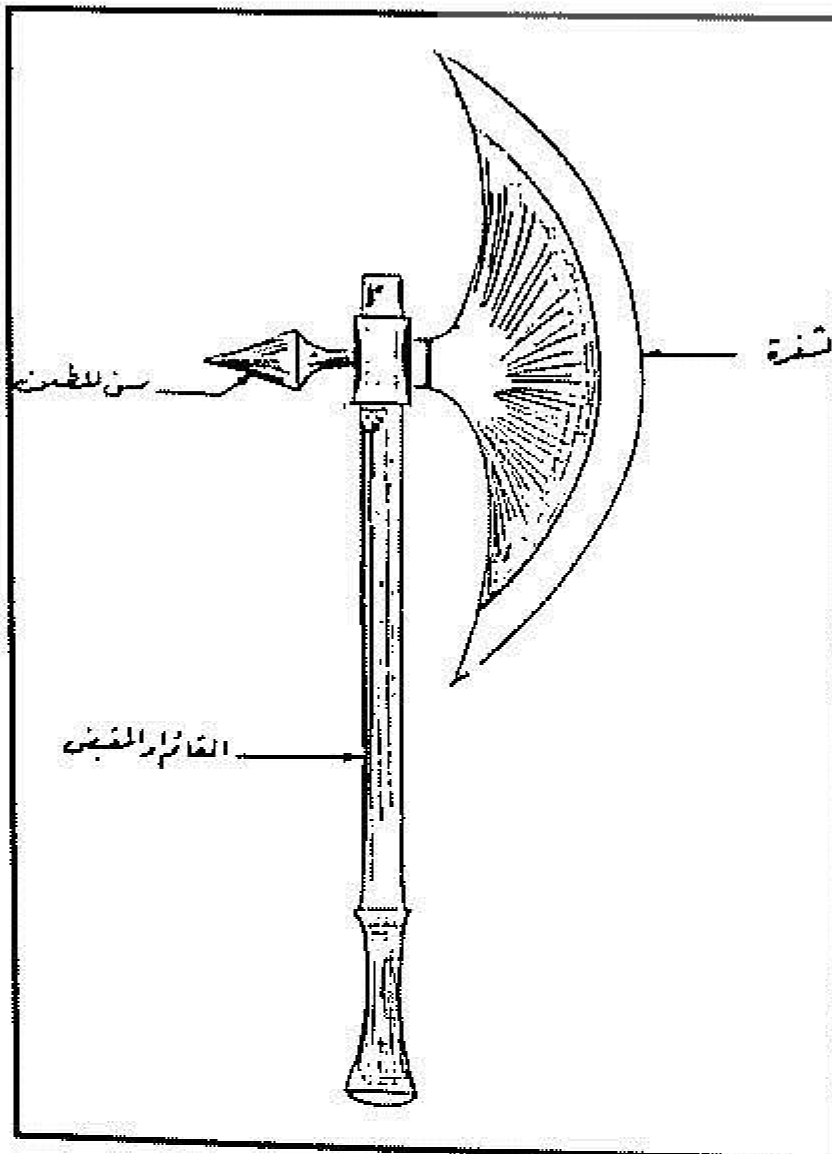
ب - **الفأس والبلطة والطَّبر والخطاف** : وهي تسميات لأسلحة شكلها العام واحد تقريباً. تتألف من قائم خشبي، يتراوح طولها من ٣٠ إلى ٦٠ سم، ركب في رأسه حد قاطع من قطعة فولاذية ذات ثقل، بحيث يستخدم المحارب مفعولها الديناميكي في الضرب لكي يثخن عدُوَّه بالجراح ويحدث به رضّاً أو كسراً في وقت واحد.

ففي الفأس والبلطة يكون النصل مشحوذاً كالسكين من جهة، وله كتلة ذات وزن كالمطرقة من الجهة الثانية. وفي حالة الطَّبر يكون النصل طويلاً ومقوساً من الوجه الأمامي، ومدبباً من الوجه الخلفي (انظر

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com



الشكل (٣) و يمثل الدبوس



الشكل (٤) و يمثل الطبر

الشكل رقم ٤). وكانت تنقش عليه كتابات. وقد كثر استعماله في عهد المماليك. وكان الفارس يعلقه على سرجه في الحرب. وكان حرس سلاطين المماليك يستعملونه وقت السلم. أما الخطاف فهو فأس القتال يشبه الطَّبر في شكله واستعماله، لكن رأسه أقل كروية وأصغر حجماً من رأس الطبر.

الأسلحة الرشيقة

هي أسلحة هجومية فردية يستعملها المحارب لإصابة عدوه على مسافة تصل إلى ١٥٠ متراً، وذلك بأن يرمي قذيفة جارحة بأداة تعتمد على مفعول الشد الذي يتحول إلى قوة دافعة للقذيفة بآلية الإطلاق. أهم هذه الأسلحة القسي والسهام.

القسي: وهي أدوات الرمي تصنع من أعواد خشبية لينة ومتينة، تقوس كالهلال وتثبت عليها أوتار من الجلد ترمى بها السهام، وتتكون من:

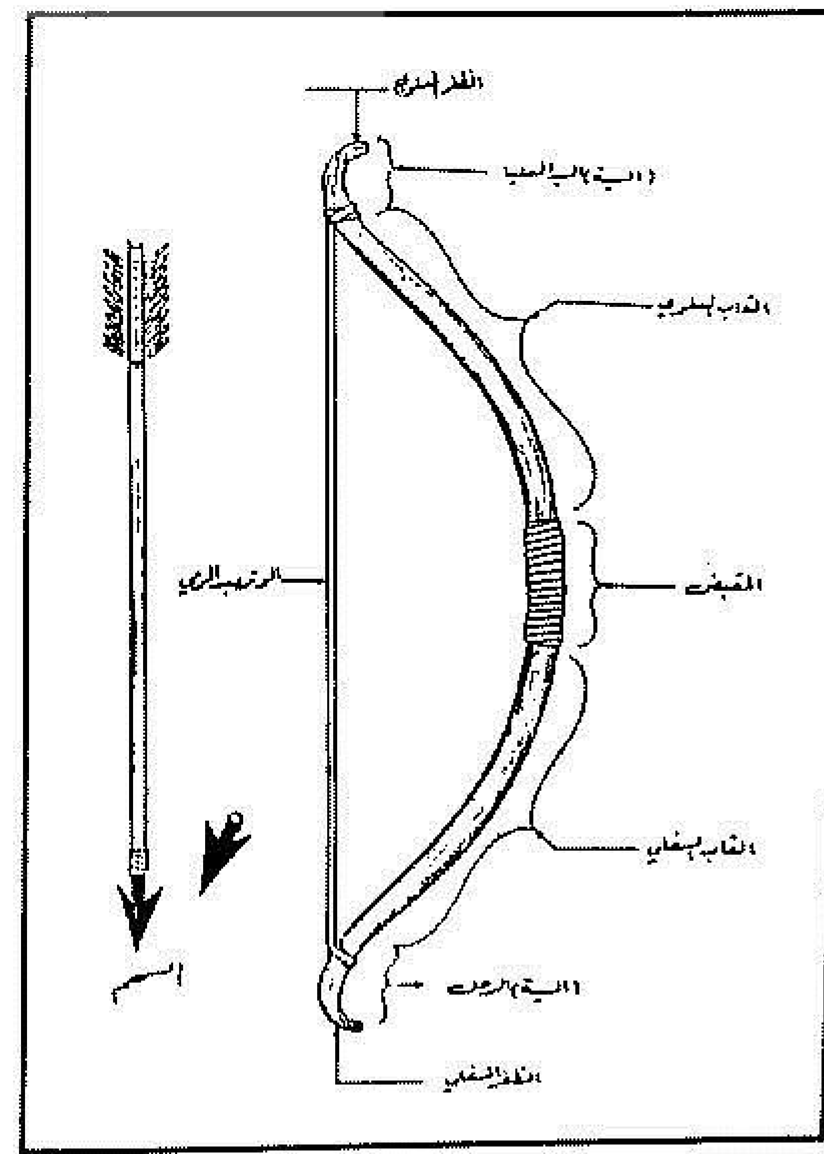
١) **القوس**: لنوع مادة القوس أهمية، خاصة للمحافظة على المرونة والمتانة، وقد عرفت أقواس بصلابتها وشدة جفافها، تؤخذ من شجر النبع أو الشوحط أو الخشب المرن القوي. وللقوس أسماء عديدة تختلف باختلاف صفاته ونعومته منها: المرِّيخ والخطوة والصيخ والمسير والرهب والمسلة.

عرف العرب عدة أنواع من الأقواس، وكانوا يفضلون منها العصفورية، نسبتها لرجل كان يصنعها اسمه عصفور، والزغرية نسبة إلى موضع في بلاد الشام يقال له زغر، والشريحية وهي أحسن أنواع الأقواس.

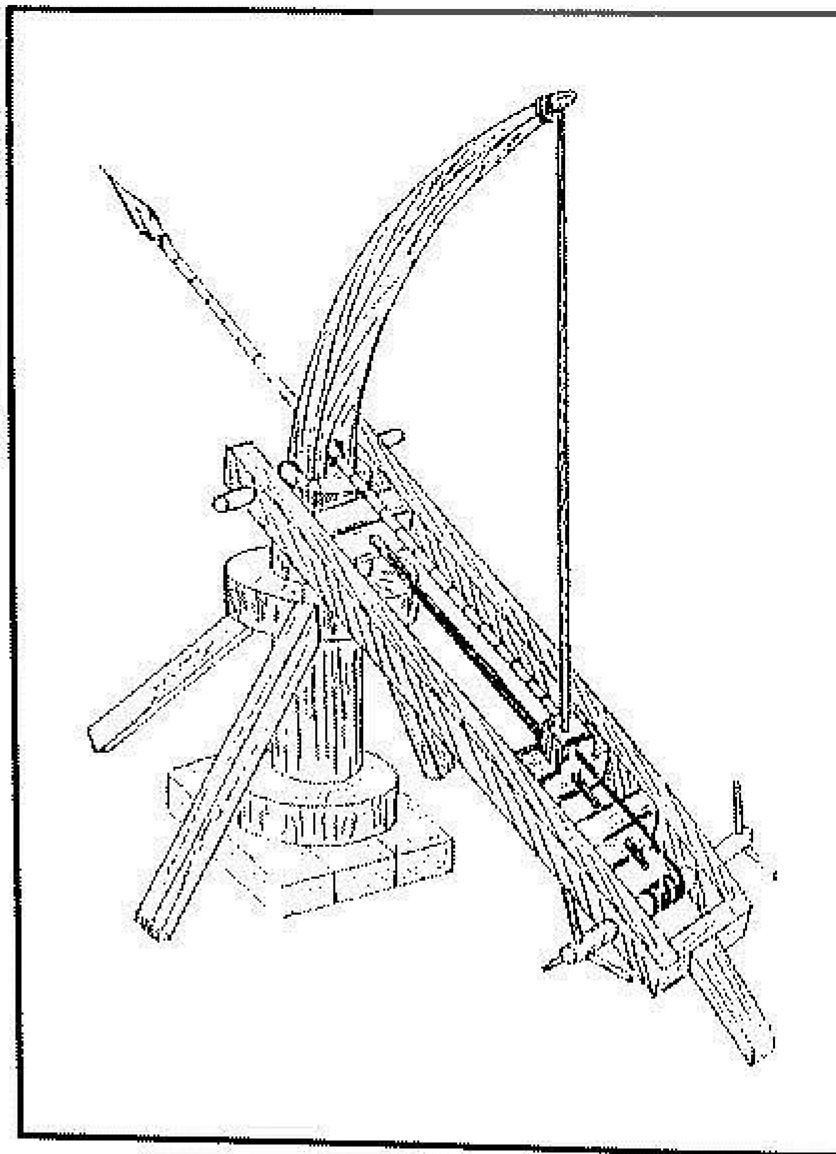
وللقوس أجزاء وردت تسميتها في الكتب التراثية (انظر الشكل رقم ٥).

وللقسي أنواع استعملت عبر التاريخ الحربي العربي الإسلامي، تختلف عن بعضها بعضاً بقياساتها وطريقة شدها، قسم منها كان سائد الاستعمال لدى العرب، وآخر طُوِّر أو اقتُبس من أمم أخرى نذكر منها:

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com



الشكل (٥) و يمثل القوس اليدوي



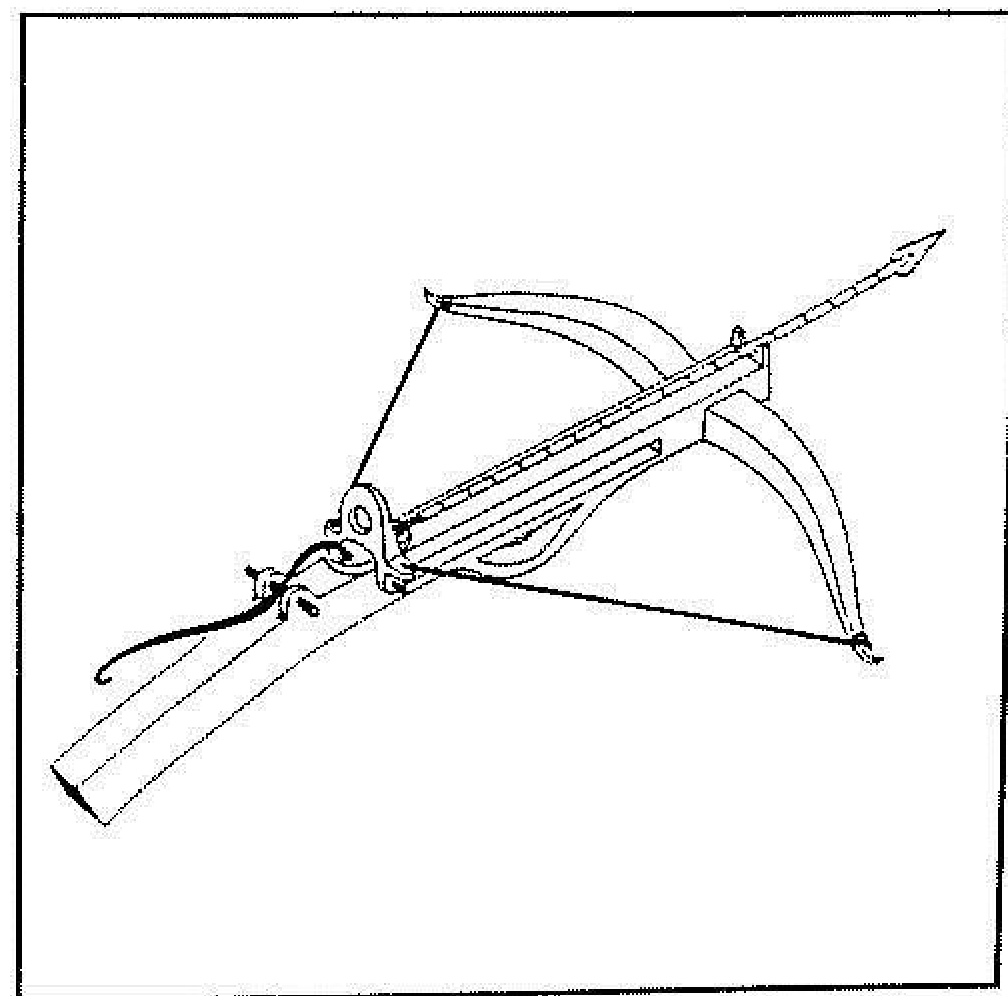
الشكل (٦) و يمثل القوس الأنبوبي

أ - **القـوس اليـدوي**: استخدمه العرب في الجاهلية لذا يدعى أحياناً «القوس العربي» وهو سلاح فردي يمسك بيد وهي اليسرى عادة من مقبض الرمي، ويشد الوتر إلى أقصى مداه باليد اليمنى، ثم يترك الوتر لينطلق السهم إلى هدفه، وهناك عدة أنواع للقوس اليدوي، منها القوس الحجازي، يصنع من عود النبع أو الشوحط، استخدم في جزيرة العرب، وهو أشهر قوس لديهم. والقوس الشريحي، يصنع من عودين، يشبه الحجازي، والقوس الواسطي، وهو القوس الذي يحوي مجرى غائراً في الخشب يسري فيه السهم، والقوس الدمشقي، وهو مكون من عدة أجزاء متمفصلة يركب بعضها على بعض وتلصق بالغراء.

ب - **القوس الأنبوبي**: أخذه العرب عن الأعاجم في أواسط حكم الدولة العباسية، وكعادتهم أجروا عليه الشيء الكثير من التعديلات والتحسينات. ويتألف من قوس ووتر عاديين، مع إضافة قطعة جديدة إلى القوس، سموها «المجراة» أو «النفق» أو «العمود». (والشكل رقم ٦ يبيّن تصوراً للقوس الأنبوبي).

جـ - **القوس القدمي**: ويدعى أحياناً بقوس الرِّجْل لأن المحارب يشده بإحدى رجليه أو بالاثنتين معاً، وهو قوس أنبوبي والعكس ليس بصحيح. تنتهي مجراة هذا القوس بحلقة تسمى «ركاب الرجل» فإذا أراد الرامي أن يوتر قوسه أدخل قدمه في الركاب وشدّ الوتر بها بمساعدة اليد ليأخذ السلاح الوضع المطلوب، ثم يكون إطلاق الوتر بواسطة «الجوزة». (ويبين الشكل رقم ٧ تصوراً للقوس القدمي).

د - **قوس الحسبان**: لهذا النوع من القسي «مجراة» ليس لها قفل أو جوزة كما في النوعين السابقين، وهو قوس يرمي به رجل واحد جملة من السهام دفعة واحدة.



الشكل (٧) و يمثل القوس القدمي

٢) الوتـر

وهو الخيط الذي يصل بين نهايتي القوس (السِّيَتيْن) وكان يصنع من خيوط مفتولة أو شراك جلد، ثم صار يتخذ من عنق البعير المسن أو من وظيف الساق.

٣) السـهم

هو القذيفة التي تنطلق باتجاه الهدف، بينما تبقى أداة الرمي في يد الرامي، أي إن القوس كالبندقية والأسهم كطلقاتها. والسهم عود رفيع من شجر صلب بطول الذراع تقريباً، يُنحت ويُسوى. ثم تُفرض فيه فروض دائرية، ليركب فيها الريش ويُشد عليها بالجلد المتين أو يُلصق بالغراء ويُربط ثم يُركب في قمته نصل من حديد مدبب، له سنان في عكس اتجاهه، ليكون صعب الإخراج إذا نشب في الجسم.

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

النّصل

قطعة حديد جارحة تركب في رأس السهم لها، شوكات جانبية، ولها أسماء مختلفة ذكرها ابن سيده(١١).

أسلحة فردية متنوعة

عرفت الترسانة العربية الإسلامية أسلحة هجومية ومعدات حربية ذات استعمالات متعددة، وهي إما أصيلة أو مأخوذة عن أمم أخرى، نذكر منها:

١) **الخنجر والجنبية والصلت والرميض:** الخنجر سلاح قاطع صغير يحمله المحارب في منطقته أو تحت ثيابه، شكله المعروف في العهود الإسلامية المتأخرة، مقوس ذو حد واحد أو حدين، رأسه مدبب، فهو سيف مصغر، إلا أنّ تقوسه أكثر من تقوّس السيف، وهو من السيف كالمسدس من البندقية، ويعدّ سلاحاً فردياً اليوم. وكانت بعض النساء المسلمات يحملنه في أثناء مرافقتهن للمحاربين عند الغزو لكي يحمين أنفسهن. أمّا الجنبية فهي مُدية إما مستقيمة مدببة الرأس أو مقوسه بحدّين، يثبتها المحارب على جنبه. والصلت سكين كبيرة مدببة الرأس، ذات حد أو حدين. والرميض مُدية ذات حد قاطع ورأس مدبب، لكنها شديدة المضاء.

هذه الأسلحة تعتمد في مفعولها على اختراق جسم الخصم بقوة الطعنة التي يزيدها إيذاء دقة الرأس ومضاء الحدّ وبأس المحارب.

٢) **الـوَهَق:** حبل يطرح في عنق الدابة الطليقة للإمساك بها وله في آخره عقدة وقد يسمى الأنشوطة. كما كان يستخدم لتسلّق الأسوار والمرتفعات أو لتقييد الأسرى.

٣) **المِقْلاع والبُنْدُق:** المِقْلاع أداة قاذفة، مكوّن من حبلين أو ثلاثة، مربوطة بكفة من الجلد أو القماش، وهي على شكل بيضوي أو مستدير، ومرسلة من الجهة الثانية. يتراوح طول الحبال بين ٥٠ و٦٠ سم، وفي أحد طرفي الحبل عروة ليدخل الرامي أصبعه فيها. يكون رمي الحجارة والبندق – وهي الحصى – بوضع القذيفة ضمن كفة المقلاع، ثم يدور الرامي المقلاع عدة مرات فوق رأسه بدائرة أفقية أو إلى جنبه بدائرة شاقولية وهو يمسك بحبلي المقلاع، ثم يفلت أحد الحبال لتعطي الحركة الدائرية إلى الجسم المقذوف قوة اندفاع أفقية باتجاه الهدف. وكان المقلاع أحد الأسلحة لصنف العيّارين من المحاربين.

٤) **القنبرة أو القنبلة:** قارورة بشكل خاص، تحشى بالنفط والقيْر وبزر القرطم المقشور، وغير ذلك من المواد، وتُجعل بها فتيلة ليشعلها الرامي ويقذفها باتجاه العدو، فتحرق بنارها ما تقع عليه أو تنفجر. وكان يقال للقذائف التي ترمى بواسطة المنجنيق «القنابر» أيضاً.

الأسلحة الدفاعية المتحركة

أدوات حربية يستخدمها محارب واحد لحماية نفسه من تأثير أسلحة العدو في المعركة نذكر منها:

١) **الدرع:** رداء ينسج ويصنع من مواد مختلفة، يرتديها المقاتل لتغطية صدره وظهره وأحياناً ذراعه كاملة أو نصفها للوقاية من ضربات السيوف، أو رمي السهام، أو طعنات الرماح والخناجر. والدروع التي استعملها العرب كانت من مختلف المواد؛ فمنهم من لبس دروعاً من جلد أو كتان سميك نظراً لارتفاع ثمن الدروع المعدنية، وكانت تدعى «دِلاص».

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

وأكثرها كان يصنع من الحديد أو النحاس أو الفولاذ. وهي إما أن تكون صفائح من الصلب تدعى «لَأمة» أو تنسج من حلَق حديدية رفيعة تدعى «زَرَد». وتختلف تسميات الدروع بعضها عن بعض، حسب شكلها وحجمها والمكان الذي صنعت فيه والمواد التي نسجت منها. وللدروع ملحقات، منها:

- **المِغْفَر**: نسيج من الحديد يلبس على الرأس ليكون واقياً له، ويكون عادةً متصلاً مع الدرع من الخلف ومن الأمام، يتدلى جزء منه على الوجه لحمايته.

- **الخُوذة**: بيضة من الحديد أو الفولاذ، تبطنها بعض المواد اللينة كالقطن وغيره، تغطي الرأس، لها مقدم يسمى «الفونس» ومؤخرها الدائرة. وأخذت الخوذة أشكالاً مختلفة.

٢) **واقيات الأذرع والسيقان والأكف**: قطع حديدية تلبس في هذه المواضع من الجسم لتقي المحارب الضربات.

٣) **الجوش**: ألواح صغيرة من الحديد تقي الصدر.

٤) **التُرس**: أداة دفاعية يقي بها المحارب نفسه ضربات السيف وغيره من الأسلحة. والترس قديم، استعمله قدماء المصريين واليونان والرومان والفرس. كان يصنع من مواد مختلفة كالخشب والجلود ثم المعادن.

يبين الشكل رقم ٨ تصوراً لجندي يحمل الأسلحة الدفاعية وبعض الأسلحة الهجومية الفردية التي عرفت في التراث الحربي العربي الإسلامي.

□ □ □

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com



الشكل (٨)

الحواشي :

١ – ج. ف. ت فوللر : «أثر التسلح في التاريخ»، سلسلة عيون التاريخ العالمي ١٣، دمشق، دار اليقظة العربية ١٩٥٤.

٢ -اخرجه الدرامي ٢\ ٢٠٦ ، و الطيالسي ١\ ٢٣٤ و البيهقي ٩ \ ١٦٤

٣ – ابن المبارك، عبدالله (– ١٨١ هـ)، «كتاب الجهاد» تحقيق نزيه حماد، بيروت دار النور.

٤ – المرجع السابق ٩٠ يقول في الهوامش: قال السرخسي:المراد بقوله: بعثني بالسيف. اي بعثني بالقتال في سبيل الله كما قال عليه الصلاة والسلام: «امرت أن اقاتل الناس حتى يقولوا لاإله إلا الله، فإذا قالوها عصموا مني دماءهم واموالهم إلا بحقها وحسابهم على الله»، ولأن القتال في حق غيره من الأنبياء لم يكن مأموراً به، وخُصَّ رسول الله صلى لله عليه وسلم بذلك.

وقوله: «بين يدي الساعة» أي بالقرب من يوم القيامة، ومعنى قوله: «وجعل رزقي تحت ظل رمحي» قيل: هذا كان في ابتداء الإسلام، كان الغازي إذا جنه الليل يركز رمحه عند قوم فعليهم أن يضيفوه، فإن لم يفعلوا ذلك حتى أصبح كان متمكناً من أن يغرمهم. ثم انتسخ ذلك بقوله عليه الصلاة السلام: «لا يحلل مال امرىء مسلم إلا بطيبة نفس منه». وقيل: المراد به حِلُّ الغنائم لهذه الأمة، فإنها ما كانت تَحِلُّ لأحدٍ قبل مبعث رسول الله صلى الله عليه وسلم، وبيان ذلك في قوله تعالى: «فكلوا مما غنمتم حلالاً طيباً». وقال صلى الله عليه وسلم: «خصصت بخمس»، وذكر من جملتها الغنائم. ومعنى قوله: «وجعل الذّل والصَّغار على من خالفني» أي ذل الشرك، لقوله تعالى «ولله العزة ولرسوله وللمؤمنين»، فهذا بيان الذُّل على المشركين، وقيل المراد من الصَّغار صغار الجزية على ما قال تعالى: «حتى يعطوا الجزية عن يدٍ وهم صاغرون».

٥ – يوجل او نصال، «السيوف الإسلامية وصناعها»، ترجمة تحسين عمر طه اوغلي، منظمة المؤتمر الإسلامي، مركز الأبحاث للتاريخ والفنون والثقافة الإسلامية باستنبول، الكويت ١٩٨٨.

٦ – الطرسوسي، مرضي بن علي «تبصرة الألباب»، [مخطوط] معهد التراث العلمي العربي بجامعة حلب ميكروفلم رقم ٥.

الكندي، يعقوب بن إسحاق (– نحو ٢٦٠ هـ) «السيوف التي كانت عند العرب واجناسها»، رسالة كتبها خلال القرن الرابع الهجري، تحقيق عبدالرحمن زكي، مجلة كلية الآداب بجامعة القاهرة ١٩٥٢ م، مج ١٤، ٢/ ١ – ٣٦.

– الزردكاش، ابن أرنبغا (– ٨٦٧ هـ) «الأنيق في المناجنيق» تحقيق إحسان الهندي نشر معهد التراث العلمي العربي بحلب ومعهد المخطوطات العربية ١٩٨٥. وفيه أبواب خاصة بسقايات السيوف.

– الجلدكي، (– بعد ٧٤٢ هـ)، «شرح كتاب الحديد» لجابر بن حيان [مخطوط] تشستربتي رقم ٤١٢.

٧ – الحسن، أحمد يوسف: «صناعة الفولاذ الدمشقي في التاريخ العربي»، أسبوع العلم الثالث عشر، دمشق، منشورات المجلس الأعلى للعلوم ١٩٧٤.

٨ – النويري – «نهاية الأرب» ٦/ ٢١٠.

ابن سيدة، أبو الحسن علي بن إسماعيل (– ٤٥٨ هـ) «المخصص» ٦/ ٣٣، مصر المطبعة الأميرية ١٣١٦ هـ.

٩ – الرماح، نجم الدين حسن أيوب الأحدب :

– «الفروسية والمناصب الحربية» [مخطوطة]، معهد التراث العلمي العربي، ميكروفلم رقم ١٥.

– «في عمل الرمح على الأرض والفرس» [مخطوطة]، معهد التراث، ميكروفلم رقم ١٣٢.

– «الفروسية في رسم الجهاد» [مخطوطة]، معهد التراث، ميكروفلم رقم ١٣٣.

١٠ – ابن سيده، علي بن إسماعيل (– ٤٥٨ هـ) «المخصص» ٦/ ٥٨ و٥٩.

المراجع والمصادر :

– الخوارزمي، جمال الدين، محمد بن العباس (– ٨٣٤ هـ) «مفيد العلوم ومبيد الهموم»، تحقيق عبدالله الأنصاري، بيروت، المكتبة العصرية، ١٩٨١.

– زكي، عبدالرحمن «السلاح في الإسلام» القاهرة، دائرة المعارف، ١٩٥١.

– طرابيشي، محمد رشيد «فن الأسلحة» دمشق، مطبعة الفيحاء.

– عون، عبدالرؤوف «الفن الحربي في صدر الإسلام»، القاهرة، دائرة المعارف، ١٩٦١.

– القلقشندي، أبو العباس أحمد بن علي (– ٨٢١ هـ) «صبح الأعشى في صناعة الإنشا»، القاهرة، المطبعة الأميرية، ١٣٣٢.

– مصطفى، محمود إبراهيم «الحرب عند العرب» دمشق، وزارة الثقافة، ١٩٧٥.

– هندي، إحسان «الحياة العسكرية عند العرب» دمشق، وزارة الثقافة، ١٩٦٤.

- Parry, V. J. & Yapp M. E.; War, Technology and society in the Middle East, 1975, Oxford University Press.

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

زكي قنصل

آخر الغرباء

ألقى الشاعر خالد البرادعي هذه القصيدة في حفل التأبين الذي أقامه اتحاد الكتّاب العرب للشاعر المهجري الراحل زكي قنصل في يبرود - سوريا وهي مدينة الشاعرين بتاريخ ١٠/ ١٠/ ١٩٩٤.

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

أبا عُمَرٍ نَبا فؤادُكَ كيفَ تُحْدى ؟
وكنتَ دليلَ غربتِها المُجِدّا ؟

وحاديَها لتخترقَ المنافي
وتكبرَ عن سُراةِ الليلِ سُهْدا

تَجُوبُ بها الدُّنى مُتَرَنِّحاتٍ
وراءَ البيدِ تَشْهَدُ ما استجدّا

وتَسْقيها كُؤوسَكَ مُتْرَعاتٍ
كأنَّكَ بينَ عفراءٍ وسَعْدى

وتُتْعِبُها بأحْلامِ الأماني
وطيرُ الموتِ خلفَ الركبِ جِدّا

يُراقِبُ هودجَ الحادي ليهوي
على قلبٍ لِرِفْقَتِهِ أَعَدّا

فألْقِ عصا الرحيلِ وقَرَّ عيناً
فموتُكَ ليسَ يُشْبِهُ الموتَ فَقْدا

أما ثلاثٌ فارقْتَ الخطايا
لِتَحْيَاها سُلالةَ وَرْدا

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

وَصُغْتَ مِنَ الْحُرُوفِ مُذَهَّباتٍ
على جِيدِ الزَّمانِ نَظَمْنَ عِقْدا؟

* * *

زَكِيُّ، أَغُرْبَةُ الشُّعَراءِ وَعْدٌ؟
لِيَشْكُوَ مِحْنَةَ الْغُرَباءِ فَرْدا؟

غَرِيبٌ في الْوُجُودِ وَأَنْتَ حَيٌّ
وما في غُرْبَتِكَ نَسِيتَ وَعْدا

ثَمانُونَ انْقَضَتْ، وَيَداكَ صِفْرٌ
مِنَ الدُّنْيا لِتَهْدِيَ أَوْ لِتُهْدَى

كَحَوْمِ الطَّيْرِ لامَسَتِ الأَماني
بمَسْقَطِها تَبارِيحاً وَجَهْدا

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

ومَنْ يسبقونَ مثلكَ لم يخونوا
لِغربتهمْ على الأيّامِ عهدا

أليسَ الهائمونَ بكلِّ وادٍ
حُداتكَ في السُّرى وجعاً وسُهدا؟

فتابعهمُ الغرابةُ حيثُ حلّوا
ومغنمُهمْ فراغٌ لنْ يُحدّا

وزادُ الأبجديةِ أيُّ زادٍ
تزاحمهُ الشجونُ أسىً وصدّا؟

* * *

لقد عرّبتَ جرحكَ في نوادٍ
أعاجمُها على الأرقامِ تردى

فلا عرفتْ صحاراهُمْ نزاراً
ولا مُدُنُ الحديدِ رأتْ معدّا

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

ولا زجوا السوابق في فتوح
ولا خضبوا مع الخصر الفرندا
ولا نشروا الضحى في الليل حتى
كأنهم بنوا للعتم لحدا
ولا أعراضهم بالسيف توقى
إذا همس الدخيل: عشقت هندا

وهل عرفوا من السبع المثاني
سوى ظنّ على الظلماء قُدّا؟
وكنت قرأت من حفظ الوصايا
لعصر يعربيّ سوف يبدا

وقد شق القريض إليك دربا
سألت تهامة وبكيت نجدا
وكان الضاد ضوءك في الليالي
لمن ركزوا مع الخطيّ بندا

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

ومن كبحوا جماحَ القهرِ قهرا
ليجتازوا به الزمنَ الأشدّا

أولئك كنتَ تسبحُ في رؤاهم
وتلهثُ خلفهم شغفاً ووجدا

فلا صخبُ العصورِ طواكَ عنهم
ولا فارقتهم مللاً وزهدا

وما الإسراءُ نحوَ الحلمِ سهلٌ
بليلٍ لستَ تبصرُ فيه هدا

وما في صحبةِ الشعراءِ إلا
قواسمُ من زمانٍ لن يُردّا

تسيلُ جراحهم في أيِّ سهلٍ
تزاحمه الرؤى غيّاً ورشدا

*

أبا عمرٍ.. ألستَ تراكَ منهم؟
تروّدُ الصعبَ فتحاً وقصدا؟

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

وتستقصي الرؤى حتى تراها
كما الحسناء مبتسماً وقدّا؟
رسمت جراح شعبك بالقوافي
وأنت تقلّب الرايات عدّا
ورثت الفتوح وأنت تبكي
مع الغرباء، مجداً ضاع مجدا
وتسأل: هل تمخضت الليالي
عن الماضين تطريباً وعودا
فيوماً أنت نادبة، ويوماً
بشعرك موكب العشاق يُحدى
ونائلة تطوف على شهيد
لتلثم منه أنملة وخدّا
وأنا تستريح مع الندامى
لتشبع جرحك المفتوح شدّا

وكم أوقدتَ للعظماءِ نارًا
وكم طرّزتَ للشهداءِ بُردًا؟

وباغتكَ الحِمامُ وأنتَ تروي
جميلَ الأقدمينَ أبًا وجدّا

وغبتَ وفي يديكَ مطوّقاتٌ
تُنمنِمُ فوقها عبقًا وندّا

ولم تصمتْ ملالةً وعجزًا
ولكنّ الحِمامَ بكَ استبدّا

بموتِكَ صفحةٌ تُطوى وسِفرٌ
تجدّدُهُ مواجعُنا فيبدى

تركتَ عليه بصمةَ يعربيٍّ
ولهفةَ موعدٍ يزدادُ بُعدا

* * *

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

أبا عُمَرٍ، تَقَصَّتْكَ الدَّواهي
وزادَكَ قِسْمَةٌ لَنْ يُصَدّا
وأَنْتَ نَجِيُّ أَحْرُفِكَ اللَّواتي
مَنَحْنَ المُهْجَتَيْنِ رِضاً وَوُدّا
فأَلْقَيْتَ اليَراعَ لِسامِعيه
وغادَرْتَ البَيانَ لِمَنْ تَصَدّى
رَحَلْتَ وأَنْتَ آخِرُ مَنْ تَبَقّى
مِنَ الغُرَباءِ في الأُفُقِ المُنَدّى

فهل يَفْديكَ في التّابوتِ فَنٌّ؟
وطارِقَةُ الفَصاحةِ كيفَ تُفْدى؟

* * *

أبا عمرٍ صحابك قد تساقوا
كؤوس الموت منتجعاً وِرْدا

فأدركهم، فإسمك صار فيهم
يعطّر في رياض الخلد وَرْدا


ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

تاريخ الوراقة المغربية

الكتاب من المصنفات النادرة التي يصعب على غير الخبير بالمخطوطات أن يؤلف على شاكلتها أو منهجها بدقة ووضوح، ومن ثمّ يتميّز الكتاب بالتفرّد والخصوصية منهجاً ومعلومات وإفادات.

تأليف الأستاذ
محمد المنوني
عرض ونقد
الدكتورة نجاة المريني
سلا- المغرب

اهتمامات الأستاذ العلاّمة محمد المنوني بالمخطوط المغربي تصنيفاً وفهرسةً ودراسة اهتمامات خبير ممارس، وهبه الله ذاكرة حافظة تسعفه حين يستدعيها بما اختزنته وتختزنه من معلومات وإفادات، فلم يبخل يوماً على طالب أو باحث أو غيرهما من أهل العلم. بمعارفه أو معلوماته حول مخطوط أو حول محتويات خزانة ما.

والأستاذ محمد المنوني في أبحاثه ودراساته حول الخزانة المغربية أسدى خدمة كبيرة للباحثين بإرشادهم وتوجيههم إلى المخطوط المطلوب أو إلى الكناشة المفقودة، وجهوده القيمة في هذا المجال أكبر شهادة له على خدمته التراث المغربي في ميادينه المتعدّدة وموضوعاته الكثيرة، فصنع أزيد من أربعة فهارس لمخطوطات الخزانة الحسنية والخزانة العامة والناصرية.

وتعتز المكتبة المغربية اليوم بصدور الكتاب القيّم «تاريخ الوراقة المغربية» للأستاذ العلاّمة محمد المنوني في طبعة أنيقة، وفي ظرف زمني وجيز بعناية قيدوم كلية الآداب بالرباط الأستاذ عبدالواحد بن داوود الذي سهر على إنجاز هذا العمل الجاد وطبعه ضمن منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية بالرباط في ظرف لا يتعدّى عشرة أشهر(١).

وكما أشار الأستاذ محمد المنوني في كلمة الشكر التي صدّر بها كتابه بأنّ «نشر هذا العمل التفاتة كريمة نحو مساهمة المغرب في صنعة الكتاب العربي، وهي المبادرة الحضارية التي تبنّتها كلية الآداب والعلوم الإنسانية بالرباط بهمة كلٍ من القيدوم ونائبه والكاتب العام وكل من أسهم في الإعداد والتصحيح والتشجيع».

إن صناعة المخطوط المغربي عمل جبّار أثبت تفوّق المغاربة في فنون النساخة والزخرفة والتسفير منذ العهود الأولى، فسجّلتْ بعض المصادر معلومات دقيقة عن الناسخ وتاريخ النسخ. ويبرز الأستاذ المنوني في مقدمة كتابه فوائد النساخة وتوقيعات النّساخ، فيقول إن «الخط ربّما يرشد إلى تحديد اسم المزخرف والمسفّر لمخطوط بعينه، وذلك في حالة ما إذا علمنا من مصدر ما أنّ المعنيّ بالأمر كان بعد

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

كتابته لمنتسخه يعالج بنفسه زخرفته وتسفيره كما هو واقع بعض الوراقين»(٢).

والكتاب الذي بين أيدينا «تاريخ الوراقة المغربية» من المصنفات النادرة التي يصعب على غير الخبير بالمخطوطات أن يؤلف على شاكلتها أو منهجها بدقة ووضوح، ومن ثمّ يتميّز الكتاب بالتفرّد والخصوصية منهجاً ومعلومات وإفادات.

* *

يتضمن الكتاب مبحثين ومدخلاً وكشافين.

يتناول المدخل تعريف الوراقة، فهي صناعة الورق في رأي بعضهم وهي النساخة والتصحيح والتسفير في رأي غيرهم، اتخذها الناس حرفة يتعيشون بها، بل إنها «من أحسن الحرف والأشغال لما فيها من نشر العلم وتخليده»(٣).

يؤكد المؤلف أن الخط المغربي تأثر بطابع الخط المشرقي ثم الخط الأندلسي قبل أن يكتمل ويتميّز من الخطوط الأخرى في العصر المريني.

المبحث الأول

يتناول الوراقة في العصور الإسلامية الأولى، أي في عهد المرابطين والموحدين والمرينيين والوطاسيين والسعديين.

أما صناعة الورق، فقد انتشرت في عهد يوسف بن تاشفين، كما اشتهر ورّاقون مغاربة احترفوا النساخة ما تزال بعض منتسخاتهم بخزانة القرويين بفاس والخزانة العامة بالرباط.

وكان لاهتمام الأمراء الموحدين بالوراقة أثر في تشجيع الوراقين على الإجادة خطوطاً وزخرفة وتسفيراً، إذ عرف أول مركز عام للنساخة في هذا العهد، كما أصبح للوراقين ديوان ينتظمون فيه يعرف «بديوان النسّاخين». وبلغ عدد معامل صناعة الورق أربعمائة معمل في مركز الكفادين بفاس. أمّا ازدهار صناعة التسفير فيعود إلى عناية الموحدين بتسفير المصاحف وتشجيعهم على التخصص فيها، وقد كتب اللّخمي الإشبيلي رسالة في الموضوع سمّاها «التيسير في صنعة التسفير» حققها العلامة عبدالله كنون رحمه الله(٤).

ويلخص الأستاذ المنوني عن صاحب الكتاب أن أدوات الكتابة تستلزم: المحبرة، والسكين، والمقراض، والأقلام وغيرها.

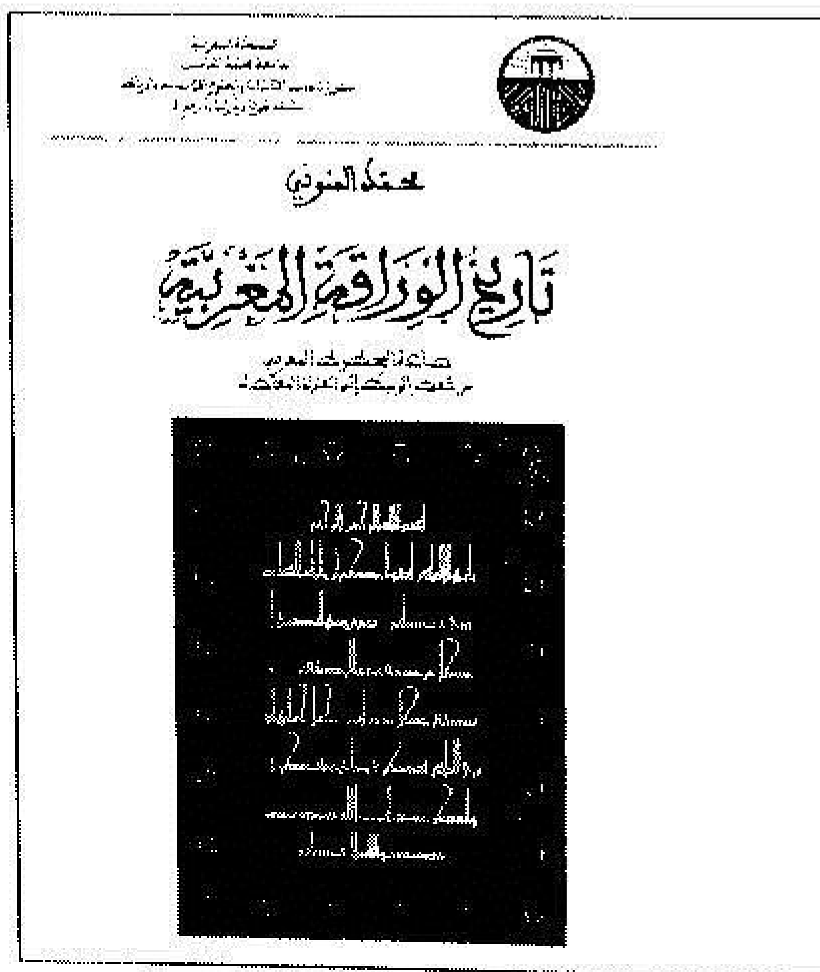
أما الخط في العصر المريني فإنه ثلاثة أصناف: مغربي حضري ومغربي بدوي - وأندلسي، وهو خمسة أنواع:

١ - خط مبسوط كما في المصاحف القديمة.

٢ - خط مجوهر كما في المراسيم السلطانية والرسائل الخصوصية.

٣ - خط مسند أو زمامي للوثائق العدلية.

٤ - خط مشرقي أخذه المغاربة عن



كتاب تاريخ الوراقة المغربية

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

المشارقة وطبعوه بطابعهم، وبه يزخرفون عناوين الكتب وغيرها ويكتبونها بماء الذهب ومن أمثلة ذلك الوقفيات المنقوشة على اللوحات الرخامية في المدارس المرينية بفاس وسلا ومكناس.

٥ - خط كوفي، ومن نماذجه بعض المصاحف القديمة ومنقوشات أبواب بعض المدن والقصبات.

وتعددت أدوات الكتابة في العصر المريني وتنوّعت، منها: المحبرة والقلم والسكين ومحمل الكتب، يقول الشريف السبتي في وصف محبرة من عاج موشح بالذهب (٥):

وناصعة البياض تخيّروها
من العاج الموشّح بالنّضار
أقول وقد صَبَبْتُ الحبر فيها
كذاك الليل يولج في النهار

وفي هذه الفترة تراجعت صناعة الورق المغربي لمزاحمة الورق الإفرنجي المستورد الذي أثار جدلاً حول جواز استعماله، كما أشار إلى ذلك الونشريسي في المعيار نقلاً عن ابن مرزوق الحفيد في رسالته في الموضوع(٦).

وإذا كان عصر السعديين عصر التميّز في المغرب سياسة وأدباً وتأليفاً، فإنه تميّز أيضاً بإنشاء «شبه مدرسة لتلقين الكتابة» متمثلة في درس لتعليم الخط في جامع المواسين بمراكش، وهو في الغالب من عمل السلطان المنصور الذهبي.

وكعادة هذا السلطان في مشاركته بالتأليف وقول الشعر فقد اخترع «أشكالاً من الخط على عدد حروف المعجم، واستعملها في المراسلات السريّة للدولة»(٧).

أمّا النساخة فقد ازدهرت في المراكز الحضرية والبدوية وفي الزوايا، كما أنّ تحضير المداد يقوم على فائق العنبر المخلوط بمياه الورد والزهر، وتنشيفه بسحيق الذهب الخالص خاصة في الكتابات السلطانية.

ومن أشهر كتب التسفير كتاب «تسفير الكتب وحل الذهب» للسفياني المتوفى سنة ١٠٢٩ هـ، وفيه يشرح عمل ألواح الورق التي يكسوها وطريقة حزم كراريس الكتاب وكسوته بالجلد، وصفة حل الذهب والكتابة به على الورق والجلد(٨).

ويصنف المؤلف النساخين في هذا العصر صنفين معرفاً بكل واحد حسب ما توصل إليه من معلومات عنه، ذاكراً آراء العلماء في خطه ومنتسخاته وأسمائها:

الصنف الأول : الوراقون السعديون، أوردهم حسب تسلسلهم التاريخي، وعددهم سبعة وعشرون.

الصنف الثاني : الوراقون في المراكز والزوايا والإمارات وبلغ عددها ثمانية، وأهمها زاوية الصومعة ببني حلال وزاوية تافيلالت والزاوية الفاسية، والإمارة الإيلغية، والدلائية والناصرية.

المبحث الثاني

ويهتم بالوراقة وصناعتها في العصر العلوي الذي قسمه المؤلف إلى خمسة أعصر.

ولعل ازدهار هذه الصنعة في العصر العلوي الأول يعود إلى تأسيس خزانات عامة وخاصة، فأصبح عمل الوراقين يميل إلى التخصص، فهناك النساخون والمصححون، والمزخرفون للعنوان، والمخرجون للمؤلفات وغيرهم ممّنْ برعوا في الميدان.

وتنوعت الوراقة في العصر العلوي الثاني لأسباب، أهمها: طابع الوراقة الرسمية حيث انتشرت الوراقة في مراكز مختلفة كفاس ومراكش وسلا وفق شروط معينة من

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

الاعتماد على النسخ القديمة في النساخة والعناية بالمقابلة والتصحيح والزخرفة وغير ذلك.

وإذا كانت الوراقة في العصر العلوي الثالث قد انتهجت الخط التطوري الذي كانت عليه في العصر السابق، فإن أرجوزة أبي العباس الرفاعي في الخط «نظم لآلىء السمط في حسن تقويم بديع الخط» مع تعليقه عليها «حلية الكتاب ومنية الطلاب» وكذلك أرجوزة العربي المساري «سراج طلاب العلوم» أضافتا جديداً إلى التعريف بقواعد الخط وأدوات الكتابة والوراقة بتفصيل.

أمّا العصر العلوي الرابع فقد شكّلت الوراقة فيه مهنة مربحة لا يكتفي الوراق بالتكسب بها، ولكنه يستطيع أن يشتري عقاراً أو غيره.

وإذا كانت المطبعة الحجرية قد ظهرت بفاس في هذه الفترة فإنها لم تؤثر على نشاط الوراقة والنساخة بل كثر النساخون والمصححون للكتب التاريخية والأدبية والفقهية.

ويظهر أنّ «الطباعة العربية الوافدة والمحلية» قد زاحمت صناعة الوراقة في العصر العلوي الخامس، وأصبح الخط المغربي العربي وقفاً على «إعداد المخطوطات التي لم يسبق نشرها أو كانت ذات أهمية مصحفية أو حديثية»(٩).

ومع ذلك، فإنّ المغاربة لم يزدادوا مع الطباعة إلاّ عناية بالخط المغربي وزخرفته وتنميقه، وأشهر خطاط في تلك الفترة هو عبدالكريم سكيرج المتوفى سنة ١٩٨٤، فبالإضافة إلى براعته وإجادته لكثير من الخطوط المغربية والمشرقية، فقد كتب مقالاً نشره بمجلة الثقافة المغربية «تحدث فيه عن طريقة تعلّمه تجويد الخط المغربي والعربي عامة، وعن نشاطه وإبداعه»(١٠).

* *

هذا وتتخلّل مباحث الكتاب مسارد تضم أزيد من ستمائة اسم للوراقين والنساخين والمزخرفين والمسفرين دون أن يغفل ذكر الوراقات من النساء اللائي تفوّقن في هذا الفن في المغرب.

وقد حلّى المؤلف كتابه بلوحات بديعة لأنواع الخطوط المغربية والزخرفات الافتتاحية للكتب وللجداريات الملوّنة الجميلة.

وأخيراً، فإن هذا الكتاب العلمي الدقيق إضافة جديدة للتعريف بالوراقة المغربية والتأريخ لها عبر العصور في أسلوب مشرق وصياغة رائقة.

□ □ □

الحواشي

١ – ويقع الكتاب في ٣٥٨ صفحة من القطع المتوسط طبع بالدار البيضاء عام ١٩٩١.
٢ – تاريخ الوراقة المغربية، ٧.
٣ – المرجع السابق، ١٢.
٤ – نشرتها صحيفة معهد الدراسات الإسلامية بمدريد، تاريخ الوراقة المغربية، ٣٢.
٥ – تاريخ الوراقة المغربية، ٥٢.
٦ – المرجع السابق، ٥٨.
٧ – المرجع السابق، ٧٦.
٨ – حقق هذا الكتاب المستشرق ريكار ونشرته المطبعة الشرقية بباريس سنة ١٩٢٥.
٩ – تاريخ الوراقة المغربية، ٢٧٥.
١٠ – المرجع السابق، ٢٧٨.

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

كان شاعراً

– مع الدكتور أمجد الطرابلسي في مجموعة –

عرض الدكتور محمد قرقزان
مسؤول مكتبة الايسيسكو وبرنامج المخطوطات – الرباط

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

تندرج هذه المجموعة الشعرية(١) التي صدرت للأستاذ الدكتورأمجد الطرابلسي ضمن آثاره السابقة الرصينة التي تنطبق عليها حكمة القائل: «إذا شئت أن تحيا بعد موتك فافعل واحدة من اثنتين: اكتب شيئاً يستحق أن يقرأ أو افعل شيئاً يستحق أن يكتب».

والدكتور الطرابلسي عانى قرض الشعر مبكراً، في مرحلة تعود إلى ماقبل عام ١٩٣٥ فكان يافعاً؛ ينظم قصائده ويرسلها إلى الأستاذ أحمد حسن الزيات – رحمه الله – فينشرها له في مجلته (الرسالة) دون معرفة سابقة بين الفتى الشامي والأديب المصري.

وهو إلى جانب اقتداره في النقد، والنقد العروضي منه تطالعك اراؤه عن الشعر والشعراء في مجالسه الجادة، خاصة حينما يفيض في الحديث عن أساتذته الكبار في «مكتب عنبر»(٢)، أو حينما يشرح لك وجهات نظره في أمير الشعراء أحمد شوقي الذي يجله أعظم التجلة، ولا يدانيه لديه شاعر في العصر الحديث، أو في العقاد ونقده له مما يجعلنا نعجب إذ تصدر هذه الآراء عن علاّمة تشبع بالثقافة الغربية وترعرع في أحضانها.

وقد قام بعض الدارسين بجمع أشعار الدكتور أمجد الطرابلسي مع دراسة عن حياته وآثاره، ولكنها – مع الأسف – لم تطبع.

وإنه لمن طالع اليمن والحبور لتلامذته ومحبيه أن تصدر هذه المجموعة لتميط اللثام عن جانب مهم من جوانب شخصية الدكتور

الطرابلسي «الإنسان».

وإذا فاجأك بهذا العنوان: «كان شاعراً»؛ فلأن طلبة كلية الآداب في جامعة دمشق في أوائل الخمسينات أقاموا معرضاً لرسومهم الكاريكاتورية، ووجد حين زاره رسماً له كتب تحته: «كان شاعراً»، ومن تلك اللحظة نوى أن يجعل من هاتين الكلمتين عنواناً لأول مجموع شعري ينشره، وهكذا كان، ولكن بعد أربعين عاماً!

إنه اختيار مصطفى من بين رصيده الكلي، جاء في أربعين قصيدة مابين نص طويل وقصير، تمتد على مساحة زمنية مابين أعوام ١٩٣٤ و١٩٨٥، فيها القديم والأقل قدماً، تمثل المضامين التي أدار عليها معظم شعره والقوالب التي صبها فيها، أرادها أن تخرج في مجموعة محدودة الحجم؛ لأنها أقرب إلى ذوق العصر، وأدنى إلى تحمُّل القارىء.

والدكتور أمجد كما عرفناه تبدو فيه صراحة جريئة، وتظهر هذه الصراحة في أول قطعة حين يقول متطاولاً على نفسه(٣):

قلبُكَ الرّاكِدُ كادت تنبتُ الأعشاب فيهْ
وعلى احنائِكِ التَفّت خيوطالعنكبوتْ
وقضى في صدرك الحُلْم الذي كان يتيهْ
وبريقُ العُجْب في عينيك قد كاد يموتْ

وكأني به حينما يطالب نفسه بالعودة إلى جوّه يقصد جو الفن الفاتن القديم، وألقه الساحر، لاجوّ الطفولة البريئة والمنشأ في مدارج الصبا وأريج الشام كما قد يتبادر إلى ذهن القارىء العارف لأول وهلة(٤):

عُدْ إلى جوك ياحيرانُ إن شئت البَقاءْ
واضرب الريح بجُنحيكَ وطِرْ عَبْرَ الألَقْ
دعْ على الأرض خمول الأرض فالفنُّ سماءْ
في مداها تسقط الحُجْب ويُستجلى الشفقْ

إلا أننا نتنسم – مع الشاعر – هاهنا – روائح الشباب، وعنفوان القوة المؤثرة، والطبع الشعري الآسر الغلاب، فيرفعنا على خيال مجنَّح عبقري، ونستمتع بلذة الفن المثلى.

وعلى الرغم من أن المجموعة في مئتين وست صفحات فقد جاءت غنية بالمضامين، ثرية بالمعاني، فمن المدخل: «حنين» والروحانيات الدينية في همزتي، «الفداء، والإسراء»، و«مع آذان الفجر» وعبر الأوابد: «هيا كل بَعْلَبَكُّ وأرزة لا مرتين»، والقوميات: «فوزي القاوقجي»، و«بورسعيد»، و«علمان يطويان وعلم ينشر»، والتأملات: «رصاص فتح ١٩٦٧»، و«الاسطورة»، و«بين صحراوين»، و«أحب ولا أحب»، و«زهرة الشوق»، و«أصوات وأضواء»، و«إعصار»، و«احترق احترق»، و«وحدة»، و«أمام تمثال»، و«الرجل الساندويتش»، والعبرات: «خيال أمي غاب»، و«مصرع الصقر»، و«في رثاء شقيق»، و«عدنان المالكي»، و«غربتان»، والذاتيات: «المصباح، واللحن المخنوق». و«أنت وأنا»، و«سراب»، و«أحب فيك»، و«الفصول الثلاثة»، و«عيناك»، و«ترنيمة»، و«مراكش الحبيبة»، و«همسات في أذن صورة»، و«دعابة»، و«الأميرة الصغيرة»، إلى الخاتمة: «قالوا سكت؟».

بيد أن منظومةً(٥) على براءة مضمونها، وطفولة عباراتها – لها في قلبه مكانة خاصة؛ لأنها أولاً في مناجاة أُمٍّ لا يعرف صورتها، ولأنها ثانياً أول ما نشر له في مجلة الرسالة، حينما كان تلميذاً في المرحلة الثانوية، يقول فيها(٦):

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

ما لفؤادي ذابْ
يلفحه الوَجْدُ؟
ما للأسى قد ثارْ
في كبدي الحرّى
أمِنْ شدا الأطيار
تستقبل الفجرا
ام لزمانٍ حار
قد ألِفَ الغَدرا؟
احنو إلى التذكارْ
وليسَ من ذكرى...
خيال امي غابْ
وإلفيَ المَهْدُ
عدا مع الأحقابْ
ولم يزل يعدو
فتُشتُ في فكري
عنك فخُيِّبتُ
مُتُّ ولم أدْرِ
اني قد عشتُ

ويكتب تحت عنوان: «غربتان»(٧) «على قبر الصديق حكمة هاشم، وكنا اغتربنا معاً منذ ثلاثين عاماً، ثم مات غريباً في باريس عام ١٩٨٢»، وتليه هذه المقطوعة، ومنها(٨):

اتيتُ ياصديقُ ابكي وُدَّكْ
اذكر عهدي هاهُنا وعهدَكْ
ابكي «علينا» لا عليك وحدكْ
هذا مصيري يا اخيَّ بَعْدَكْ

فاعجب لمغرد يتألم لمصيره، ويبكي حاضره ونأيه ومصيره بعد أن ثاب من حيرته. ويتابع وهو يبث شجونه مستسلماً لحكم القدر فيقول:

كنا نقول: غربة يوماً لها انقضاءْ
ونلتقي في حيِّنا اهلاً واصدقاءْ
هاهي ذي تصرمت وانكشف العماءْ
من بعد غربة الحياة غربة الفناءْ
وهذه يا صاحبي ليس لها انتهاءْ...

ولقد شفى نفسه ونفوسنا، بعد أن ذكّرنا بشوقي، شاعره الأثير في قصيدة «نائح الطلح» الأندلسية، وألفريد دو ڤيني (ALFRED DE VIGNY) في رائعته: «موت الذئب» (La Mort du Loup) مفلسفاً معنى الحياة والفناء على غرارهم.

ويقول في قصيدة «أحب فيك»(٩) التي بث فيها عواطفه وأشواقه:

احبُّ فيك سهاماً كلُّها اجتمعت
على شبابيَ تُدميه فتُحييه
كعاشقِ المُخدرِ السحريِّ يدمنه
وخُلْدُه ودياجي قبرفيه
احبّ ما فيك من دَلّ ومن خَفَرٍ
ومن وفاء ومن مكر وتمويه
اهواك إذْ تغدقين الحبّ لي سَرَفاً
وإذ تَلُجّين في منعي وتعذيبي
اهوى ذكاءك يلهو بي ويمسكني
في قيده بين ترغيب وترهيب

وثمة سؤال قد يطرحه القارىء عن أسباب هذا السكوت الذي حدث للشاعر والعزوف عن صوغ قلائده في مدد متباعدة، فيجيبه بقوله: «نشرت في صباي عشرات القصائد ثم توقفت عن النشر لأسباب نفسية خاصة، فكثرت التساؤلات... والقصيدة صدى تلك التساؤلات» يذكر فيها، وهي بعنوان «قالوا سكَتّ؟»(١٠).

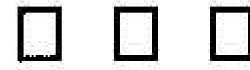
قالوا : سكتّ عن الغناء؟ فقلت : لا
في مسْمَع الأكوان رَجْعُ غنائي
الكونُ لحني كله، رتّلتُهُ
في نشوة الإصباح والإمساءِ
ألّفتهُ من آهتي وتبسُّمي
فاستنشدوه يُعِدْ لَكُمْ اصدائي

ومن عاشر الدكتور أمجد يجد أن الوفاء فيه سجيّة من شيمه الثابتة، ويتجلى لنا حينما أهدى مجموعته هذه إلى «رفيقة الدرب منذ خمسين عاماً أم أولاده وجدة أحفاده؛ مونيك».

ARCHIVE http://Archivebeta.Sakhrit.com

ولعلنا نتوسم مزيداً من الخير إذ يفيدنا أستاذنا المعطاء أنه سيتابع العمل في هذا الاتجاه، وأن هذه المجموعة قد يتلوها سواها.

ومالنا إلا أن نبتهل إلى المولى الأجل أن يُمَتّع ذلك الصوت المغرّد الصداح المتميّز بسعادته، ويمنحه الصحة وطول العمر؛ ليتابع إتحاف المكتبة العربية بآثاره المفيدة، وأعماله المثمرة الخالدة.



الحواشي :

١ - منشورات المجلس القومي للثقافة العربية بالرباط ١٩٩٣.

٢ - مكتب عنبر هو المدرسة التجهيزية المفردة في دمشق زمن العثمانيين والفرنسيين عاشت من أواخر القرن الماضي إلى أوائل الحرب العالمية الثانية وهي تضم جمهرة المتعلمين. فما تكاد تجد اليوم [في الستينات] كبيراً بدمشق ولا صاحب اسم ولا ذا منزلة إلا وقد جاز يوماً بمكتب عنبر (من كتاب مكتب عنبر لظافر القاسمي، بيروت ١٩٦٤ مقدمة بقلم علي الطنطاوي ص ١٣).

٣ - مجموعة كان شاعر، ١١، ونظمت هذه القصيدة عام ١٩٨٥.

٤ - المرجع السابق، ونظمت هذه القصيدة أيضاً عام ١٩٨٥.

٥ - نشرت عام ١٩٣٤ في مجلة الرسالة.

٦ - كان شاعراً، ١٢٥.

٧ - المرجع السابق، ١٤٨.

٨ - المرجع السابق، ١٤٩.

٩ - المرجع السابق، ١٦، ١٧١، والقصيدة من نظم عام ١٩٤١.

١٠ - المرجع السابق، ٢٠٣، ٢٠٥، ٢٠٦، ونشرت سنة ١٩٣٩.

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

الظّرف والتظرّف

الظرف إنما هو في اللسان، أو هو حسن الوجه والهيئة، أو يكون في الوجه واللسان، أو البزاعة وذكاء القلب، أو الحذق.

الفيروز ابادي

لمحمد بن الفضل
تحقيق
الدكتور نزار أباظة
رئيس قسم الدراسات و الترجمة بالمركز

وقعت على رسالة الظَّرْفْ والتَّظرُّف في كتاب «المنتخب من مقتنيات معهد المخطوطات في باكو بأذربيجان» الذي طبعه مركز جمعة الماجد للثقافة والتراث في دبي بالتعاون مع معهد المخطوطات الأذربيجاني(١).

تقع هذه الرسالة في ٥ ورقات [٦٢/ أ - ٦٦/ ب] ضمن مجموع محفوظ في المعهد برقم ٤٤١٠/ ٢٧٨٥ - b، ولدى المركز صورة عنه برقم ٥٩٣.

وموضوع الظَّرْف من الموضوعات التي تجذب انتباه الناس وتثير لديهم الفضول لما يوحيه من متعة وسعادة، لأن النفس تميل إلى بهجة الظرف، وتستوحش من جفاء الزماته.

وقد اشتهر في أخبار الأدب أفراد من الظرفاء، نقلت قصصهم الظريفة التي تؤنس المجالس وتفرح السامعين، من أمثال أبي نواس، وأبي دلامة، وأشعب، وجحا وغيرهم.

إلا أنه ليست كل القصص المبهجة تدخل في باب الظَّرْف، ولا كل امرىء يصفه الناس بالظَّرْف يكون عند الأدباء ظريفاً، ومن أجل هذا وضعوا شروطاً للظَّرْف الذي فسروه بالكياسة والذكاء والملاحة(٢).

وربما من أجل ذلك ألّف محمد بن الفضل هذه الرسالة ليبيّن فيها معنى الظَّرْف وحدوده وما يطلب من الظريف ليكون معدوداً في الظرفاء؛ إنه العاقل، العالم، الأديب، الفصيح، ذو الفتوة، الكريم، الحيي، السخي، من يعفو عن المذنب، ويحلم عن المسيء، ومن رزق التواضع، وخالطه العشق.

إنها صفات قلّما تجتمع في شخص واحد، فإذا اجتمع معظمها فيه اقترب من الظرف وعُدّ من الظرفاء الذين يشتهرون في أقوامهم عادة، ويلتف الناس من حولهم، يتسقطون أخبارهم الظريفة الطريفة ويرددونها.

ومؤلف هذه الرسالة محمد بن الفضل غير معروف، بحثت عنه طويلاً في كتب التراجم، فلم أقع له على ذكر وقد وجدت بعض أعلام تسموا باسمه يستبعد أن يكون أحدهم هو المؤلف، وذلك لصفاتهم التي تبعدهم أن يخوضوا في مثل هذا الموضوع ويكتبوا فيه؛ وهم محمد بن الفضل الجرجرائي وزير المتوكل (- ٢٥١ ه) -(٣)، ومحمد بن الفضل البلخي الصوفي أحد أجلة مشايخ خراسان (- ٢١٩ هـ)(٤)، ومحمد بن الفضل الصاعدي الفراوي الشافعي المحدث الفقيه (- ٥٣٠ هـ)(٥)، ومحمد بن الفضل المعروف بالحجة الواعظ الخطيب (- ٦١٧ هـ)(٦).

ونسخة المخطوطة التي اعتمدت عليها لم أقع على سواها لترفدني، وهي مكتوبة في نيسابور سنة ٧٣٩ هـ بخط واضح معتاد، ليس فيها نقص ولا خرم سوى كلمات مطموسة.

ضبطتُ النص، وخرجت الشواهد في مكانها إلا مالم أعثر عليه رغم بحثي عنه، وترجمت لبعض الأعلام، وعزّ علي العثور على تراجم لعدد منهم ممن لم يذكر المؤلف أسماءهم بوضوح.

هذا وبالله التوفيق.

نصّ الرسالة

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين، والصلاة على رسوله محمد وآله أجمعين. قال محمد بن الفضل - تجاوز الله عنه - : «سألتني - أكرمك الله - أن أمليَ عليك في حدّ الظَّرْف(٧) والتظرف شيئاً، فقلتُ: التآليفات في هذا الباب كثيرة، والإنسان إذا اشتغل بالنظر في الكتب أقْمَنُ له وأجدر من وضع الكتب؛ لأنّ الله عز وجل خلق للإنسان أذنين اثنتين وعينين اثنتين، وخلق له لساناً واحداً؛ ليكون الذي يسمع ويرى أكثر من الذي يقول. فألححتَ عليّ، فأجبتك إلى ما سألتني استحياءً منك. وهذا أكثر من أن آتيَ عليه. إلاّ أنّي ذكرت من كل باب مالا يُستغنى عنه. وسألت الله الصواب إنّه جوّاد كريم».

قال محمد بن الفضل : ظَرْفُ كل شيء وعاؤه. وإنما سُميّ الإنسان ظَريفاً لأنّه وعاءٌ للظُّرف. وتفسير الظُّرف البزاعةُ (٨) وذكاءُ

الورقة الأولى من المخطوط

ARCHIVE
http://archivebeta.Sakhrit.com

القلب(٨).

وقال بعض الظرفاء: «يُستدل على ظرافة الرّجل بثلاثة أشياء؛ بكنيته، وكلامه، ولباسه. كما يُستدل على حماقته بثلاثة أشياء؛ بطول لحيته، ونقش خاتمه وكنيته».

وقال: «ودخل رجل على معاوية بن أبي سفيان [رضي الله عنه] وهو طويل اللحية فقال له: "ياهذا ! أبو من؟" فقال: "أبو عبد رب العرش العظيم". قال: "وما نقش خاتمك؟". قال: "انظر حتى ترى". فنظر، فإذا على فَصّ خاتمه هذه الآية: (وَتَفَقَّدَ الطَّيْرَ فَقَالَ مَا لِيَ لَا أَرَى الْهُدْهُدَ أَمْ كَانَ مِنَ الْغَائِبِينَ)(٩).

قال محمد بن الفضل: «الظَّرْف اسم واقع على اثني عشر شيئاً؛ وهو: العقل، والعلم، والأدب، والفصاحة، والفتوة، والكرم، والحياء، والسخاء، والتواضع، والعشق، والعفو، والحلم».

باب العقل

قال محمد بن الفضل تجاوز الله عنه: «لا يكون الظريف ظريفاً حتى يكون عاقلاً».

قيل: «جوهر العقل لا يباع ولا يوهب».

وسئل حكيم: «من العاقل؟». قال: «الذي إذا أحسنت إليه عَرَف ونَشَر، وإذا أسأت إليه عَرَف وكتم». وقيل: «من عرف قدره أحرز «نصف العقل و من عرف قدر الرجال أحرز العقل كله » و قيل :من أصلح ما أفسده بيده فهو نصف الرَّجل، ومن أصلح ما أفسده غيره فهو الرجل التام».

ويقال: «العاقل عَقَل ربّه، وعقل كتابه فاتبعه، وعقل نبيّه فاقتدى به، وعقل دنياه فزهد فيها، وعقل أنّ الربّ كافٍ فتوكل عليه، وعقل قِلَّة حيلة المخلوقين فأيس، وعقل أنّ الطاعة عليه فاجتهد بإقامتها، وعقل أنّ المعصية عقوبة فحذر منها، وعقل أنّ الموت أمامه فاستعدّ له، وعقل دوام نعيم آخرته وفناء دنياه فاقتنع بما يدوم عما يفنى حتى لقي ربه فرضي عنه وأرضاه».

وقيل: «العاقل تغنيه الإشارة عن العبارة، واللحظة عن اللفظة».

قال علي بن أبي طالب كرم الله وجهه(١٠) [مجزوء الرجز]:

العِلمُ تاجُ للفتى
والعَقْلُ [كنز] مِنْ ذَهَبْ
والصِّدْقُ نُور يُبْتَغى
والكذب نار تَلْتَهِبْ
والجُود فخر للغني
والبُخْل عارٌ للعرَبْ

باب العلم

قال قتادة(١١): «لو اكتفى أحد عن العلم، لاكتفى نجيّ الله موسى[عليه السلام]. قال للخضر: "هَلْ أَتَّبِعُكَ عَلَى أَنْ تُعَلِّمَنِ مِمَّا عُلِّمْتَ رُشْدًا"(١٢)، فلم يكتف موسى [عليه السلام] بعلم التورية»(١٣). قال: «بلغنا بأن موسى صلوات الله عليه سأل ربه، فقال: أيُّ النّاس أعلم يارب؟ قال: الذي يجمع من عِلْم الناس إلى عِلمه وإن كان عالماً».

وقال ابن الربيع: «لا تترك العلم حياء، ولا تطلبه رياء».

وقال بعض العلماء: «إنّا لا نطلب العلم لنحيط به كلّه، ولكن لنستكثر من الصواب ونستقلّ من الخطأ».

وقيل: «أي الناس أحق بالبكاء عليه؟» قال: «رجل حُرم ثلاثة أشياء: العلم والمال والقناعة».

وقال: «أوحى الله تبارك وتعالى إلى إبراهيم صلوات الله عليه: «إني عليم أحب كل عليم».

وقيل: «قال الله تعالى: العلم علمان: علم في

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

القلب؛ فذلك العلم النافع. وعلم على اللسان؛ فذاك حجتي على ابن آدم».

وقال بعض أهل العلم: «العلم أحلى من العسل، والعمل به أمرٌّ من العلقم، وبالعلم ينتفي الجهل، وبالعمل يكمل العقل».

وقال بعض أهل الأدب: «تعلموا العلم والأدب ولو كلمة، فإن القليل من العلم والأدب كثير في موضع الحاجة إليه».

وقال بُزُرجِمَهر وزير كسرى(١٤): «ليس في الدنيا شيء أعز من العلم. ومن عزته ألاّ يؤخذ بالثَّمن».

باب الأدب

قال النبي صلى الله عليه وسلم: «ما نحل والد ولداً أفضل من أدب حسن»(١٥). ويقال: «من أدب ابنه أرغم أنف عدوه».

وقال النبي صلى الله عليه وسلم: «ثلاث ليس معهن غربة؛ مجانبة الريب، وحسن الأدب، وكف الأذى»(١٦).

وقالوا : «لا تعتذرن إلا إلى من يحب أن يجد لك عذراً، ولا تَحَدَّثن إلا إلى من يرى حديثك غُنماً إلاّ أن تُضطر».

وسئل بُزُرْجِمَهْر : «ما خير ما أعطي العبد؟» قال: «أدب مصنوع». قيل: «فإن لم يرزق؟». قال: «فصديق عالم أديب مساعد». قيل: «فإن لم يرزق؟» قال: «فنار تُحرقه».

قال : «اطّلع الرشيد ذات يوم على الكِسَائي(١٧) وبين يديه المأمون ومحمد [الأمين] يؤدبهما، فقام الكسائي لحاجة فبادرا جميعاً يقدمان نعله، فتبسم الرشيد، وقال لجلسائه: من أكرم الناس خدماً؟ قالوا: أمير المؤمنين. قال: لا والله، ولكنه الكسائي، يخدمه المأمون ومحمد. ثم قصّ عليهم القصة». [من المنسرح] :

كن ابن من شئت واكتسب أدباً
يغنيك محمودُه عن النسب(١٨)

[من الطويل] :

يُعدُّ رفيعُ القوم منْ كانَ عالماً
وإنْ لم يكنْ في قومِهِ بحسيْبِ

باب الفصاحة

ذكر عند الأحنف بن قيس(١٩) الكلام والصمت، فقال قوم: «الصمت أفضل». فقال الأحنف: «الكلام أفضل؛ لأن الصمت لا يُعدّ من فضل صاحبه. وإنّ فضل الكلام ينتفع به صاحبه ومن سمعه».

وقال علي بن أبي طالب كرّم الله وجهه: «لا خير في الصمت عن الحكم، كما أنه لا خير في القول بالجهل». [٦٣/ ب].

ويقال : «من أراد أن يمازح فليوطِّن نفسه على الجواب الشديد».

وقال عبيد الله بن عمرو الأسدي: «اتقوا الجواب من السكّيت، فربما رمى فأصاب».

وقال الشعبي(٢٠): «ما رأيت أحداً يتكلم فيحسن إلا تمنيت له السكوت مخافة أن يسيء».

ويقال : «من البلاغة أن تقول فلا تبطىء، وتسرع فلا تخطىء».

ويقال : «العلم يرشدك، والنطق يبلغُ بك الحاجة، والصمت يكسبك المحبة».

وقال خالد بن صفوان(٢١): «ما الإنسان لولا اللسان إلا صورة ممثلة أو بهيمة مهملة. وأنشد(٢٢) [من الطويل] :

لسانُ الفتى نصفٌ ونصفٌ فؤادُهُ
فلم يبقَ إلاّ صورةُ اللحمِ والدمِ
وكائنْ ترى من صامتٍ لكَ معجبٍ
زيادتُهُ أو نقصهُ في التكَلُّمِ

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

باب الفتوة

قيل : «ليس الفتى من ضَرَب السكِّين، إنّما الفتى من أطعم المِسْكين».

وسئل بعض الفتيان عن الفتوة، فقال: «الفتوة عندي في آية من كتاب الله عزّ وجل. قال الله تعالى: «يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلا يَجِدُونَ فِيْ صُدُوْرِهِمْ حَاجَةً مِمَّا أُوتُوا وَيُؤْثِرُوْنَ عَلَى أَنْفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ»(٢٣).

وفي خبرٍ عن النبي صلى الله عليه وسلم: «لا يؤمن العبد حتى يحب لأخيه ما يحب لنفسه من الخير، ويكره لأخيه ما يكره لنفسه»(٢٤).

فمن اجتمع فيه هاتان الخصلتان فله الفتوة.

وسئل آخر فقال: «حسن السرّ».

وسئل آخر، فقال [٦٤/ أ] : «الحياء من الله في كل مكان».

وسئل آخر، فقال: «استئثار الغير على نفسه».

وقيل : «الفتوة رأسها العقل، ثم الوفاء بغير شرط، والحفاظ بغير خوف، والعطيّة بغير مسألة».

قال الشاعر [من الوافر] :

إذا ما المرءُ لم يحفظْ ثلاثاً
فبعْهُ ولو بكفٍّ من رمادِ
وفاءُ للصديقِ وبذلُ مالٍ
وكتمانُ السَّرائرِ في الفؤادِ

وقال آخر [من الطويل] :

لعمركَ مايدري الفتى كيفَ يصنعُ
ولا كيفَ - إن لم يدفع اللهُ - يدفعُ
ولا يستطيعُ المرءُ إعطاءَ نفسِهِ
بل اللهُ يعطيهِ وإنْ شاءَ يمنعُ
و ما يقدر الإنسان أن يصنع الذي
يريد و لكن ما يطق فهو يصنع

باب الكرم

يقال : «الإحسان قبل الإحسان كرم، والإحسان بعد الإحسان مكافأة، والإساءة بعد الإحسان لؤم وسوم»(٢٥).

ويقال : «الكريم الذي يحسن إلى من أساء إليه». ويقال : «الذي يدعو من يهرب منه».

عن أنس بن مالك رضي الله عنه، قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «مكارم الأخلاق ثلاثة عند الله، تعفو عمّن ظلمك، وتعطي من حرمك، وتصل من قطعك»(٢٦).

مكارم الأخلاق في ثلاثة، من كملت فيه فذاك الفتى، إعطاء من يحرمه، ووصل من يقطعه، والعفو عمّن اعتدى.

وقال عيسى ابن مريم صلوات الله عليه: «يابني إسرائيل! أحبوا من يبغضكم، وصلوا من قطعكم، وأعطوا من منعكم، وصلّوا على من يلعنكم. فإن كنتم [٦٤/ ب] لا تحبون إلا من أحبكم، ولا تعطون إلا من يعطيكم فأي فضل يكون لكم؟!».

قال الأصمعي(٢٧) : «قال عمرو بن العاص لمعاوية رضي الله عنهما: يا معاوية لا تكونن لشيء من أمر رعيتك أشد تفقداً منك لخصاصة الكريم أن يعمل في شدها، ولطغيان اللئيم في قمعه ولتستوحش من الكريم الجائع واللئيم الشبعان؛ فإن الكريم يصول إذا جاع، واللئيم يقول إذا شبع».

ويقال : «لا يوجدُ الغضوب مسروراً، ولا الحر حريصاً، ولا الكريم حسوداً، ولا ذو المسرّة غنياً».

وقال الشاعر(٢٨) [من البسيط] :

إنّ الكريمَ ليُخفي عنكَ عُسْرَتَهُ
حتى تراهُ غنياً وهو محمودُ
إنّ البخيلَ على أموالِهِ عِلَلٌ
زُرق العيونِ عليها أوجهٌ سودُ

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

باب الحياء

قيل : «ذو المنّ لا حياء له».

قال محمد بن الفضل : «استح من الله فإن لم تكن لك هذه المرتبة، فاستح من الناس، فإن تكن لك هذه المرتبة فاستح من نفسك».

وكتب أخ إلى أخ : «أما بعد. بلغني أنك تعظ الناس. فعظهم بفعلك، ولا تعظهم بقولك، وإلا فاستح من نفسك. والسلام».

وروي أنّ زيد بن ثابت [رضي الله عنه] خرج يوم الجمعة، فاستقبله الناس قد انصرفوا، فدخل داراً فصلى فيها، فقيل له: «أتستحيي من الناس؟» فقال: «إنه من لم يستحِ من الناس من لم يستحِ من الله تعالى».

باب السخاء

قال النبي صلى الله عليه وسلم: «رأيت ليلة المعراج حاتم طيءٍ في جهنم، في بيت من طين نائماً على [٦٥/ أ] سرير يعذبونه بالدخان، فسألت جبريل فقال: هذا حاتم طيءٍ، وإنه كان سخياً، وسخاوته تمنعه عن النّار»(٢٩).

وقيل : «ثلاثة أشياء من علامة الشقاء: الكِبْر، والبُخل، وبغض الفقراء. وثلاثة من أعلام السعادة: التواضع، والسخاوة، وحب الفقراء».

وفي دعاء النبي صلى الله عليه وسلم: «اللهم إني أسألك حب المساكين»(٣٠).

وروي أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: «من أراد أن ينظر إلى شاب من أهل النار فهذا من أهل النار». فسمع الشاب، فارتعدت فرائصه، فرفع رأسه وقال: «إلهي! إن تعذبني فاجعلني فداء لأهل النار، وعذبني من جميعهم». قال: «فنزل جبرائيل عليه السلام وقال: «قل يامحمد له: قد غفرت لك برحمتك على عبادي وسخاوتك عليّ»(٣١).

وقيل : «السؤال وإن قل ثمن لكل نوال وإن جلّ».

باب العفو

قال الله تعالى: «فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُ عَلَى اللَّه»(٣٢).

وقال ابن الحنفيّة(٣٣): «اعف عمن ظلمك، ولا تركبنّ من الأمور ما لا تعرف عاقبته، فإن العفو عمن ظلمك أيسر من ركوب الأهوال».

ويقال : «العزيز يزداد بالعفو عزّاً، والذليل يزداد بالعفو ذلاً».

وحكي أنّ غلاماً كان يصب الماء على يد الحسن بن علي بن أبي طالب رضي الله عنهما من إبريق، فأصاب جبهته، فنظر إلى الغلام شزراً، فقال الغلام: «والكَاظِمِيْنَ الغَيْظَ» فقال: «كظمت غيظي». فقال: «والعَافِيْنَ عَنِ النَّاس»قال: «عفوت عنك». قال: «واللَّه يُحِبُّ المُحْسِنِيْنَ»(٣٤) [٦٥/ ب] قال: «أنت حر لوجه الله تعالى» [من السريع]:

ما أَحْسَنَ العَفْوَ مِنَ القَادِرِ
لاَ سِيَّمَا عَنْ غَيْرِ ذِيْ نَاصِرِ
إِنْ كانَ لِيْ ذَنْبٌ [ ](٣٥)
فَلَيسَ لي غَيْرُكَ مِنْ غَافِرِ

باب الحلم

قال النبي صلى الله عليه وسلم: «كاد الحليم أن يكون نبياً»(٣٦).

قال : ونزل جبرائيل على النبي صلى الله عليه وسلم فقال: أتيتك بمكارم الأخلاق «خُذِ العَفْوَ وأمُرْ بالعُرْفِ وأَعْرِضْ عَنِ الجَاهِلِيْنَ»(٣٧) قال: يا محمد أن تصل من قطعك، وتعفو عمن ظلمك، وتعطي من حرمك»(٣٨).

قال رجل للأحنف بن قيس(٣٩): «لو قلت واحدة لتسمعنّ عشراً». فقال له الأحنف: «لو قلت عشراً لم تسمع واحدة».
وقيل: «العلم بالتعلم [والحلم] بالتحلُّم».
قال لقمان لابنه: «لا يُعرف الحليم إلا عند الغضب، ولا الشجاع إلا عند الحرب ولا الصديق إلا عند الحاجة».
ويقال: «ليس الحليم من ظُلم فحلم، حتى إذا قدر انتقم، إنما الحليم من ظلم، حتى إذا قدر عفا».

باب التواضع

[ ] (٤٠) قيل: التواضع أحد مصائد الشرف.
قيل لبُزُرْجِمَهر(٤١): «ما النعمة التي لا يحسد صاحبها؟» قال: «التواضع».
وقيل: «التَواضع بساط تحت الأرضين [من جلس عليه] (٤٠) يرفعه إلى أعلى عليين. والتكبر [بساط في] (٣٩) أعلى عليين، من جلس [عليه] يرده إلى أسفل سافلين».
وقيل: «ما تقلّد امرؤ قلادة [خيراً](٤٠) من سكينة».

باب العشق

قال يحيى بن معاذ الرازي(٤٢): «لو كانت [٦٦/ أ] العقوبة بيدي يوم القيامة ما عذبت عاشقاً قط؛ لأنه بالاضطرار لا بالاختيار».
وقال الدينوري(٤٣): «العشق لا يمازج بالشهوة، فإذا دخلت نار العشق تحترق الشهوة؛ لأنه إمساك عن الطعام، والشهوة تهيج منه».
وسئل أعرابي عن العشق، فقال: «اللحظة بعد اللحظة». فقيل: «ثم بعد ذا؟» فقال: «القُبلة بعد القُبلة؟» فقيل: «ثم بعد ذا؟» فقال: «لا أعرف بعد ذلك شيئاً سوى ذلك». فقيل: «إنّ هنا أناساً يقولون كذا وكذا». فقال الأعرابي: «ليس ذلك طالب للعشق، ذلك طالب للولد».
وقال الشاعر [من الطويل]:

إذا أنتَ لم تعشقْ ولم تدرِ ما الهوى
فكُنْ حجراً من يابسِ الصَّخرِ جلمَدا

وقال آخر [من الطويل]:

وما النَّاسُ إلا العاشقونَ ذوو الهوى
ولا خيرَ فيمنْ لا يُحبُّ ويعشـــقُ

وقال آخر [من الوافر]:

رأيت العِشـقَ نيراناً تَلَظّـى ... قلوبُ العاشقينَ لها وَقودُ
فلو كانتْ إذا احترقَتْ تَفَانت ... ولكن كلما احترقتْ تـعُودُ
كأهلِ النَّار إذ نَضِجَتْ جلودٌ ... تُبدَّلُ غيرها لهُمُ جلُـودُ

والحمد لله على إتمام الرسالة.

ARCHIVE http://Archivebeta.Sakhrit.com

الحواشي :

١ – صدر في دبي ١٩٩٤.
٢ – قال الفيروزابادي : «الظرف إنما هو في اللسان، أو هو حسن الوجه والهيئة، أو يكون في الوجه واللسان، أو البزاعة وذكاء القلب، أو الحذق». (القاموس: ظرف) وقال الزمخشري: «ظرف فيه ظرف وظرافة: كَيْس وذكاء... وعن عمر رضي الله عنه: إذا كان اللص ظريفاً لم يقطع اي كيساً يدرأ الحدّ باحتجاجه» (اساس البلاغة: ظرف). قال الفيومي: «قال ابن القوطية ظرف الغلام والجارية، وهو وصف لهما لا للشيوخ. وبعضهم يقول: المراد الوصف بالحسن والأدب، وبعضهم يقول: المراد الكيس، فيعم الشباب والشيوخ». (المصباح: ظرف).
٣ – معجم الشعراء ٤٣٣.
٤ – طبقات الصوفية ٢١٢، حلية الأولياء ١/ ٢٣٢.
٥ – شذرات الذهب ٤/ ٩٦.
٦ – ذيل طبقات الحنابلة ٢/ ١٢٣.
٧ – الظَّرْفُ : الكياسة، وقد ظَرُف الرجل ظَرافة فهو ظريف، وقوم ظرفاء وظِراف وظُرُف وظريفون. وتظرّف: تكلّف التظرف (مختار الصحاح، والقاموس ظ ر ف).
٨ – البَزاعة : الظَّرْف والملاحة والكياسة. (اللسان: ب ز ع).
٩ – النمل ٢٧/ ٢٠.
١٠ – لم أجد الأبيات في نسخة ديوان الإمام علي كرم الله وجهه التي بين يدي.
١١ – قتادة بن دِعامة السدوسي البصري مفسر حافظ ضرير أكمه. قال الإمام احمد: قتادة أحفظ أهل البصرة. وكان مع علمه بالحديث رأساً في العربية. توفي سنة ١١٨ هـ/ ٧٣٦ م، (تذكرة الحفاظ ١/ ١١٥، نكت الهميان ٢٣٠، ابن خلكان ١/ ٤٢٧، طبقات المدلسين ١٦، إرشاد الأريب ٦/ ٢٠٢).
١٢ – الكهف : ١٨/ ٦٦.
١٣ – قال الجُرجاني : «التورية أن يريد المتكلم بكلامه خلاف ظاهره مثل أن يقول في الحرب مات إمامكم وهو ينوي به أحداً من المتقدمين» (التعريفات، ٩٧).
١٤ – ويقال له في الفارسية بُزُرْكِمَهْر بن بختان؛ حكيم فارسي مشهور بعقله وسديد رأيه. بدأ حياته معلماً لهرمز ابن كسرى أنوشروان، فلما رأى هذا الأخير علمه وفهمه ولياقته وكفايته استوزره، فبقي كذلك مدة طويلة، وساعده في إصلاحات الدولة. كانت له كلمات سائدة في الحكمة، نقلتها كتب الأدب والفلسفة والأخبار، أكثرها منقول. وله رسالة في الحكمة باسم «رسالة النصح» تضمنت ٤٣٠ قولاً. ولما ابتكرت الهند الشطرنج وأرسله ملكها إلى كسرى استطاع بزرجمهر اكتشاف سره، وابتدع في مقابلته النرد. ثم لما تولى الحكم كسرى أبرويز في أواخر القرن السادس الميلادي أمر بقتله. وأبرويز هذا هو الذي مزّق رسالة النبي صلى الله عليه وسلم. (موسوعة لغت نامه و د هخدا مج ١٠ مادة بزرجمهر، تاريخ إيران لحسن بيرنياه مشير الدولة، ٢١٨ – ٢١٩).
١٥ – أخرجه الترمذي برقم ١٩٥٣ في البر والصلة، باب ما جاء في أدب الولد، وفي سنده مجهول وضعيف وصححه الحاكم وردّ الذهبي عليه بقوله مرسل ضعيف. وقال الترمذي: غريب مرسل.
١٦ – لم أجد الحديث بهذا النص.
١٧ – علي بن حمزة الأسدي بالولاء الكسائي أصله من أولاد الفرس إمام في اللغة والنحو والقراءة من أهل الكوفة. ولد في إحدى قراها وتعلّم بها وقرأ النحو بعد الكِبَر. وتنقل في البادية وسكن بغداد وتوفي بالري سنة ١٨٩ هـ/ ٨٠٥ م عن سبعين سنة، أدّب الرشيد وابنيه الأمين والمأمون وكان أثيراً عند الخليفة حتى أخرجه من طبقة المؤدبين إلى طبقة الجلساء والمؤانسين وأخباره مع علماء عصره في الأدب كثيرة. له تصانيف، منها «معاني القرآن» و«المصادر» و«الحروف» و«القراءات» و«النوادر» و«مختصر في النحو» و«التشابه في القرآن» و«ما يلحن به العوام». (غاية النهاية ١/ ٥٣٥، ابن خلكان ١/ ٣٣٠، تاريخ بغداد ١١/ ٤٠٣، نزهة الأنباء ٨١ –

٩٤، طبقات النحويين ١٣٨، إنباه الرواة ٢/ ٢٥٦، الذريعة ١٩/ ١٥).

١٨ – البيت منسوب إلى علي بن أبي طالب كرّم الله وجهه وهو في الديوان المنسوب إليه ص ١٢ من مقطوعة في ثلاثة أبيات وبعده قوله:

فليس يغني الحسيب نسبته   بلا لسـان له ولا ادب

إن الفتى من يقول ها أنـذا   ليس الفتى من يقول كان أبي

١٩ – الأحنف بن قيس بن معاوية المري السعدي المنقري التميمي، سيد تميم وأحد العظماء الدهاة الفصحاء الشجعان الفاتحين، يضرب به المثل في الحلم. ولد في البصرة وادرك النبي صلى الله عليه وسلم ولم يره ووفد على عمر وهو خليفة فاستبقاه في المدينة سنةً. شهد فتوح خراسان، واعتزل الفتنة يوم الجمل، ثم شهد صفين مع علي رضي الله عنه. ولما انتظم الأمر لمعاوية رضي الله عنه عاتبه، فأغلظ له الأحنف في الجواب، فسئل معاوية عن صبره عليه فقال: هذا الذي إذا غضب غضب له مائة ألف سيف لا يسألونه فيهم غضب. ولي خراسان وكان صديقاً لمصعب بن الزبير أمير العراق، فوفد عليه بالكوفة، فتوفي بها وهو عنده سنة ٧٢ هـ/ ٦٩١ م (ابن سعد ٧/ ٦٦، ابن خلكان ١/ ٢٣٠، تهذيب ابن عساكر ٧/ ١٠، تاريخ الإسلام للذهبي ٣/ ١٢٩).

٢٠ – عامر بن شراحيل الشعبي الحميري، راوية من التابعين. ولد بالكوفة ونشأ بها، أحد رجال الحديث الثقات يضرب المثل بحفظه. اتصل بعبد الملك بن مروان، فكان نديمه وسميره ورسوله إلى ملك الروم، كان ضئيلاً نحيفاً. وسئل عما بلغ إليه حفظه فقال: ما كتبت سوداء في بيضاء ولا حدثني رجل بحديث إلا حفظته. استقضاه عمر بن عبد العزيز وكان فقيهاً شاعراً، توفي فجأة بالكوفة سنة ١٠٣ هـ/ ٧٢١ م عن (تهذيب التهذيب ٥/ ٦٥، الوفيات ١/ ٢٤٤، حلية الأولياء ٤/ ٣١٠، سمط اللآلي ٧٥١، تاريخ بغداد ١٢/ ٢٢٧).

٢١ – خالد بن صفوان ابن الأهتم التميمي المنقري من فصحاء العرب المشهورين، جالس عمر بن عبد العزيز وهشام بن عبد الملك، وله معهما أخبار. ولد بالبصرة ونشأ بها وكان أيسر أهلها مالاً ولم يتزوج، له كلمات سائرة، وكان أقدر الناس على مدح الشيء وذمه. وكان يرمى بالبخل كف بصره، وعاش إلى أن أدرك خلافة السفاح ومات سنة ١٣٣ هـ/ ٧٥٠ م (منهاج اليقين في أدب الدنيا والدين ١/ ١٢٠، وفيات الأعيان ١/ ٢٤٣، معجم البلدان ٤/ ٣٨٧، ١٠٣٦، أمالي المرتضى ٤/ ١٧٢، نكت الهميان ١٤٨).

٢٢ – لزهير بن أبي سلمى من معلقته. (انظر الزوزني، شرح المعلقات السبع، ١٨٥).

٢٣ – الحشر : ٥٩/ ٩. وتمامها: «والذِيْنَ تَبَوَّءوا الدَّارَ والإِيْمَانَ مِنْ قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلَا يَجِدُونَ فِي صُدُوْرِهِمْ حَاجَةً مِمَّا اوتُوا وَيُؤْثِرُونَ عَلَى أَنْفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ وَمَنْ يُوْقَ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولَئِكَ هُمُ المُفْلِحُونْ».

٢٤ – روى النسائي في باب علامة الايمان من كتاب الايمان وشرائعه، عن أنس رضي الله عنه، أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: «والذي نفس محمد بيده لا يؤمن أحدكم حتى يحب لأخيه ما يحب لنفسه من الخير». وروى البخاري ومسلم والترمذي، عن انس رضي الله عنه: «لا يؤمن أحدكم حتى يحب لأخيه ما يحب لنفسه» وفي رواية أخرى: «والذي نفسي بيده لا يؤمن عبد...» البخاري باب علامة الايمان، ومسلم في الايمان رقم ٤٥ باب الدليل على أن من خصال الإيمان أن يحب لأخيه المسلم ما يحب لنفسه، والترمذي رقم ٢٥١٧ في صفة القيامة باب ٥٩، وأخرجه ابن ماجه في المقدمة رقم ٦٦.

٢٥ – سمته سوماً : أهنته (المصباح : س و م).

٢٦ – كنز العمال برقم (٥٢٣٩) قال: (ك في تاريخه عن انس).

٢٧ – عبد الملك بن قريب بن اصمع الباهلي، راوية العرب واحد أئمة العلم باللغة والشعر والبلدان. ولد بالبصرة. كان كثير التطواف بالبوادي، يقتبس علومها، ويتلقى اخبارها، ويتحف بها الخلفاء، فيكافأ عليها بالعطايا الوافرة. اخباره كثيرة جداً وكان الرشيد يسميه شيطان الشعر. وقال عن نفسه: احفظ عشرة الاف أرجوزة، وله تصانيف كثيرة جداء في اللغة والأدب. له اختيارات شعرية مشهورة باسم الأصمعيات. توفي سنة ٢١٦ هـ/ ٢٨٣١.

(السيرافي ٥٨، جمهرة الأنساب ٢٣٤، ابن خلكان ١/ ٢٨٨، تاريخ بغداد ١٠/ ٤١٠، الشريشي ٢/ ٢٥٦، نزهة

الألبا ١٥٠، إنباه الرواة ٢/ ١٩٧).
٢٨ - هو بشار بن برد (- ١٦٧ هـ) وقد ورد البيت الأول في ديوانه الذي شرحه محمد الطاهر ابن عاشور على النحو التالي:

إنّ الكريم لتخفى عنك عُسرته | حتى تراه غنياً وهو مجهود

والبيتان من قصيدة مطلعها

ظلّ اليسار على العباس ممدود | وقلبه أبداً بالبُخل معقود

وهي في هجاء العباس بن محمد أخي الخليفة أبي جعفر المنصور. كان والياً على الجزيرة. قال شارح الديوان: قال في الأغاني: استمنحه بشار فلم يعطه فهجاه. وفي غرر الخصائص نسبة ما عدا الخامس من أبيات القصيدة إلى حماد عجرد. وفي بهجة المجالس نسبتها ما عدا الأول والأخير إلى حماد هذا أو إلى العَتَّابي. وفي ديوان المعاني لأبي هلال العسكري نسبها عدا الخامس منها إلى العَتَّابي. قال شارح الديوان: ورواية الأغاني أصح وسندها أقوى وثبوت الأبيات في الديوان يقوِّي ذلك.
٢٩ - لم أجد الحديث في مظانّه.
٣٠ - أخرجه مالك في الموطأ ١/ ٢١٨ في القرآن باب العمل في الدعاء، وانظر جامع الأصول من أحاديث الرسول، ٤/ ٣٤٦.
٣١ - لم أجد الحديث في مظانّه.
٣٢ - الشورى: ٤٢/ ٤٠. وتمامها: «وَجَزَاءُ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِثْلُهَا فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُ عَلَى اللَّه إنَّه لا يُحِبُّ الظَّالِمِيْن».
٣٣ - محمد بن علي بن أبي طالب أخو الحسن والحسين لأبيهما رضي الله عنهم، ونسب إلى أمه خولة بنت جعفر الحنيفة تمييزاً له عنهما. كان واسع العلم ورعاً أسود اللون. أخبار قوته وشجاعته كثيرة. كان المختار الثقفي يدعو الناس إلى إمامته ويزعم أنه المهدي، وكانت الكيسانية تزعم أنه لم يمت. ولد بالمدينة وتوفي بها سنة ٨١ هـ/ ٧٠٠ م (طبقات ابن سعد ٥/ ٦٦، وفيات الأعيان ١/ ٤٤٩، صفة الصفوة ٢/ ٤٢، حلية الأولياء ٣/ ١٧٤، نزهة الجليس ٢/ ٢٥٤).
٣٤ - آل عمران: ٣/ ١٣٤. وتمامها: «الَّذين يُنْفِقُونَ في السَّرَّاءِ والضَّرَّاءِ والكَاظِمِيْنَ الغَيْظَ والعَافِيْنَ عَنِ النَّاسِ واللَّهُ يُحِبُّ المُحْسِنِيْنَ».
٣٥ - « ما بين معقوفتين »كلمة مطموسة في الأصل.
٣٦ - أورده في كنز العمال برقم ٥٨١٣ وقال: «الخطيب عن أنس».
٣٧ - الأعراف: ٧/ ١٩٩.
٣٨ - لم أجد الحديث في مظانّه.
٣٩ - مرت ترجمته في الحواشي.
٤٠ - ما بين معقوفتين كلمات مطموسة في الأصل. والاستدراك يقتضيه السياق.
٤١ - مرت ترجمة بزرجمهر في الحواشي.
٤٢ - يحيى بن معاذ الرازي واعظ زاهد، لم يكن له نظير في وقته، من أهل الري أقام ببلخ. له كلمات سائرة. مات بنيسابور سنة ٢٥٨ هـ/ ٨٧٢ م.
(العروسي على شرح الرسالة القشيرية ١/ ١١٩، طبقات الصوفية ١٠٧ - ١١٤، صفة الصفوة ٤/ ٧١).
٤٣ - هناك عدد من الرجال تلقبوا بالدينوري. أوردتهم كتب الرجال وأقربهم إلى سياق النصّ أحمد بن داود أبو حنيفة الذي قال عنه التوحيدي: جمع بين حكمة الفلاسفة وبيان العرب. له تصانيف نافعة، منها «الأخبار الطوال» و«مختصر التاريخ والأنواء» و«النبات» و«تفسير القرآن» ١٣ مجلداً و«ما تلحن فيه العامة» و«الشعر والشعراء» و«الفصاحة» وغيرها.
(إرشاد الأريب ١/ ١٢٣، الجواهر المضية ١/ ٦٧، وإنباه الرواة ١/ ٤١، وخزانة الأدب البغدادي ١/ ٢٥).

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

المصادر والمراجع

- اغابزرك الطهراني، محمد محسن، «الذريعة إلى تصانيف الشيعة»، النجف بدءاً من ١٣٥٥ هـ/ ١٩٣٦ م
- ابن الأثير الجزري، أبي السعادات المبارك بن محمد، «جامع الأصول من أحاديث الرسول صلى الله عليه وسلم»، بيروت: دار الفكر، ١٩٨٣.
- الأصبهاني، أبو نعيم، «حلية الأولياء وطبقات الأصفياء» (١ - ١٠)، مصر، ١٣٥١ هـ.
- الأنباري، عبدالرحمن بن محمد، «نزهة الألباء في طبقات الأدباء»، مصر، ١٢٩٤ هـ.
- البخاري، محمد بن إسماعيل، «الجامع الصحيح».
- بدران، عبدالقادر، «تهذيب ابن عساكر» (١ - ٧)، دمشق، ١٣٢٩ - ١٣٥١ هـ.
- بشار بن برد، «ديوان بشار بن برد» (١ - ٤)، تحقيق محمد الطاهر ابن عاشور، مصر، مجمع اللغة العربية، ١٣٧٦ هـ/ ١٩٥٧ م.
- البكري، أبو عبيد، «سمط اللآلي»، ويحتوى على «اللآلي في شرح أمالي القالي» و«شرح ذيل الأمالي»، مصر، ١٣٥٤ هـ/ ١٩٣٦ م.
- بيرنياه مشير الدولة، حسن، «تاريخ إيران»، إيران، ١٣٦٤ هجري شمسي.
- الترمذي، محمد بن عيسى، «الجامع الكبير».
- الجرجاني، علي بن محمد، «التعريفات»، بيروت: دار الكتاب العربي، ١٩٨٥.
- ابن الجزري، محمد بن محمد، «غاية النهاية في طبقات القراء» (١ - ٢) ويسمى «طبقات القراء»، مصر، ١٣٥١ هـ.
- ابن الجوزي، عبدالرحمن بن علي، «صفة الصفوة» (١ - ٢)، حيدر آباد ١٣٥٥ هـ.
- ابن حجر العسقلاني، أحمد بن علي، «تهذيب التهذيب»، حيد آباد، ١٣٢٥ - ١٣٢٧ هـ.
- ابن حزم، علي بن أحمد، «جمهرة أنساب العرب»، مصر، ١٩٤٨ م.
- الخطيب البغدادي، أحمد بن علي، «تاريخ بغداد» (١ - ١٤)، مصر، ١٣٤٩ هـ.
- ابن خلكان، «وفيات الأعيان» (١ - ٢)، مصر، ١٣١٠ هـ.
- دهخدا، علي أكبر، «موسوعة لغت نامة دهخدا»، ١٣٣٧ هجري شمسي.
- الذهبي، محمد بن أحمد، «تاريخ الإسلام وطبقات المشاهير والأعلام»، مصر.
- الذهبي، «تذكرة الحفاظ» (١ - ٤)، حيدر آباد ١٣٣٣ - ١٣٣٤ هـ.
- الرازي، محمد بن أبي بكر، «مختار الصحاح».
- ابن رجب، عبدالرحمن بن أحمد، «الذيل على طبقات الحنابلة»، بيروت: ١٣٧٠ هـ/ ١٩٥١ م.
- الزبيدي، محمد بن يحيى، «طبقات النحويين واللغويين»، مصر، ١٣٧٣ هـ/ ١٩٥٤ م.
- الزوزني، حسين بن أحمد، «شرح المعلقات السبع»، دمشق: ١٩٦٩ م.
- ابن سعد، محمد، «الطبقات الكبير»، ليدن، ١٣٢١ هـ.
- السلمي، أبو عبدالرحمن، محمد بن الحسين، «طبقات الصوفية»، مصر، ١٣٧٢ هـ/ ١٩٥٣ م.
- السيرافي، الحسن بن عبدالله، «أخبار النحويين البصريين».
- الجزائر، معهد المباحث الشرقية، ١٩٣٦ م.
- الشريشي، إبراهيم بن علي، «التعريف والإعلام بما في رجال ابن هشام».
- الصفدي، خليل بن أيبك، «نكت الهميان في نكت العميان»، مصر، ١٣٢٩ هـ/ ١٩١١ م.
- العروسي، مصطفى بن محمد، «شرح الرسالة القشيرية».
- القاهرة، بولاق ١٢٩٠ هـ.

- العسقلاني، ابن حجر، «طبقات المدلسين المسمى «تعريف أهل التقديس بمراتب الموصوفين بالتدليس»، مصر، ١٣٢٢ هـ.
- العلوي، الشريف علي بن الحسين، «أمالي المرتضى» (١ - ٤)، مصر، ١٣٢٥ هـ/ ١٩٠٧ م.
- علي بن أبي طالب، «ديوان أمير المؤمنين علي بن أبي طالب»، القاهرة، المطبعة المليجية، ١٣٢٨ هـ.
- علي المتقي، ابن عبدالملك، «كنز العمال»، حلب: مكتبة التراث الإسلامي، ١٩٦٩ م.
- ابن العماد العكري، عبدالحي بن أحمد، «شذرات الذهب»، بيروت: دار المسيرة، ١٩٧٩ م.
- فرفور، عبدالرحمن . الحافظ، محمد مطيع، «المنتخب من مقتنيات معهد المخطوطات في باكو»، دبي، مركز جمعة الماجد للثقافة والتراث، ١٩٩٤ م.
- الفيروزابادي، محمد بن يعقوب، «القاموس المحيط».
- الفيومي، أحمد بن محمد، «المصباح المنير في غريب الشرح الكبير للرافعي».
- القرشي، عبدالقادر بن محمد، «الجواهر المضية في تراجم الحنفية» (١ - ٢)، حيدر أباد، ١٣٣٢ هـ.
- القفطي، علي بن يوسف، «إنباه الرواة على انباه النحاة» (١ - ٣)، القاهرة، دار الكتب المصرية، ١٣٦٩ - ١٣٧٤ هـ.
- ابن ماجه، محمد بن يزيد، «سنن ابن ماجه».
- مالك بن أنس، «الموطأ».
- المرزباني، محمد بن عمران، «معجم الشعراء»، مصر ١٣٥٤ هـ.
- مسلم بن الحجاج، «صحيح مسلم».
- الموسوي، عباس بن علي، «نزهة الجليس ومنية الأديب الأنيس» (١ - ٢)، مصر ١٢٩٣ هـ.
- النسائي، محمد بن علي، «سنن النسائي».
- النووي، يحيى بن شرف، «تهذيب الأسماء».
- ياقوت الحموي، «إرشاد الأريب إلى معرفة الأديب» (١ - ٧)، تحقيق مرجليوث، مصر ١٩٠٧ - ١٩٢٥ م.
- ياقوت الحموي، «معجم البلدان» (١ - ٨)، مصر، ١٣٢٣ - ١٣٢٥ هـ.

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

علم التشريح في المؤلفات الطبية العربية

الأستاذ حسام جزماتي
حلب

بدأ الأطباء العرب والمسلمون بالتأليف في مواضيع مفردة ثم ظهرت الكتب الطبية العامة التي كانت أشبه بالموسوعات المتخصصة، تبدأ بعلم التشريح ووظائف الأعضاء وكليات الطب، ثم تنتقل لدراسة الأمراض المختلفة ووسائل علاجها وأسماء أدويتها المفردة أو المركبة والحديث عن مشاهدات المؤلف وتجاربه وخبراته. واحتل التشريح - بالطبع - مكانه المتميّز في هذه الكتب.

وبالدراسة التاريخية لهذه المؤلفات نلاحظ تمايز علم التشريح وتبلوره أكثر فأكثر. ويمكننا بشكل عام أن نقسم الكتب الطبية العربية التي عالجت التشريح إلى ثلاث مجموعات:

المجموعة الأولى : حوت على المعلومات التشريحية موزعة في كامل الكتاب ومنها كتاب «فردوس الحكمة» لعلي بن سهل بن ربن الطبري (... - ٢٤٧ هـ = ... - ٨٦١ م) الذي يعد من أقدم ما وصل إلينا من كتب الطب العربية، إذ لم يفرد الطبري التشريح ببحث مستقل بل ذكر المعلومات التشريحية الخاصة بكل عضو عند الكلام على أمراضه وعلاجه.

وكذلك فعل يعقوب الكشكري (القرن الرابع الهجري) في كتابه «كناش في الطب» إذ كانت معلوماته التشريحية القليلة موزعة في ثنايا الكتاب دون إفراد أو تخصيص.

المجموعة الثانية : وهي الكتب التي أفردت التشريح بجزء مستقل، ولعل أول من فعل ذلك أبو بكر الرازي (٢٥١ - ٣١٣ هـ = ٨٦٥ - ٩٢٥ م) الذي جعل المقالة الأولى من كتابه المعروف «المنصوري في الطب» عشر مقالات في التشريح لإثبات حكمة الخالق الذي «جعل العظام عُمُدَ البدن ودعايمه»(١) وأفرد للتشريح القسم الثامن من كتابه «الجامع» (١٢ قسماً)(٢) وكذلك فعل علي بن عباس المجوسي (- نحو ٤٠٠ هـ = - نحو ١٠١٠ م) في كتابه «كامل الصناعة الطبية» إذ خصص المقالة الثانية من هذا الكتاب لـ «أحوال الأعضاء» وهو الاسم الذي أطلقه على التشريح(٣). ولم يختلف عنه معاصره ابو سهل المسيحي (- ٤٠١ هـ = - ١٠١٠ م) إذ أفرد الكتابين الثالث والرابع من كتابه «المائة في الطب» للحديث على «الأعضاء

المتشابهة الأجزا للبدن» و«الأعضاء الآلية»(٤). أما الجراح الشهير أبو القاسم الزهراوي (- ٤٢٧ هـ = - ١٠٣٦ م) فقد خصص المقالة الأولى من كتابه «التصريف لمن عجز عن التأليف» للتشريح لأن «صناعة الطب طويلة وينبغي لصاحبها أن يرتاض قبل ذلك علم التشريح»(٥) واتفق بذلك مع معاصره الشيخ الرئيس ابن سينا (- ٤٢٨ هـ = - ١٠٣٧ م) الذي جعل مما يجب أن يتصوره الطبيب بالماهية «الأعضاء ومنافعها فيجب أن يصادفها بالحس والتشريح»(٦). وقد تناول ابن سينا تشريح العظام والعضلات والأوعية في الجمل الخمس الأولى من الفن [الباب] الأول من الجزء الأول من كتابه «القانون في الطب» ثم عاد في الجزء الثالث ليناقش تشريح كل جزء من أجزاء الجسم عند ذكر علله وأمراضه(٧).

وكذلك كان شأن الفيلسوف الفقيه الطبيب الأندلسي أبي الوليد ابن رشد (- ٥٩٥ هـ = - ١١٩٨ م) فقد عالج التشريح في الجزء الأول من أشهر كتبه الطبية «الكليات»(٨). أما صاحب «العمدة في الجراحة» ابن القف الكركي (- ٦٨٥ هـ = - ١٢٨٦ م) فقد أسهب في الحديث عن تشريح الأعضاء معتبراً هذا الموضوع خطوة لابد منها لتعلم «صناعة الجراح»(٩).

المجموعة الثالثة: الكتب التشريحية المستقلة، وقد ظهر عدد كبير منها لدى العرب المسلمين، ذلك أنهم عدّوا التشريح علماً مستقلاً من العلوم الطبيعية(١٠)، وقد بدأت هذه الكتابات أشبه بالرسائل أو المقالات المطولة ثم ما لبثت أن تطورت إلى كتب ساهمت كثيراً في تطوير هذا العلم. ولعل من أشهر هذه الكتب «رسالة في تشريح الأعضاء»(١١) لابن سينا و«خلق الإنسان وهيئة أعضائه»(١٢) لشرف الدين بن الرحبي (- ٦٦٧ هـ = - ١٢٨٦ م) و«شرح تشريح القانون»(١٣) لابن النفيس (- ٦٨٧ هـ = - ١٢٨٨ م) و«رسالة لمعان الأنوار في التشريح»(١٤) لابن جماعة (- ٨١٩ هـ = - ١٤١٦ م). وفضلاً عن هذا وذاك أصبحت المعلومات التشريحية موضع اهتمام كثير من العلماء والكتّاب يستدلون بها على إعجاز الله في خلق الإنسان في أحسن تقويم كما في قصة «حي بن يقظان» لابن طفيل (- ٥٨١ هـ = - ١١٨٥ م) إذ يستفيد حي في بحثه عن سر الحياة وما وراءها من تشريح الظبية التي أرضعته وربته وغيرها من «الحيوانات الأحياء والأموات»(١٥) وكذلك فعل ابن القيم في تفسير قول الله تعالى «وَفِي الأَرْضِ آيَاتٌ لِلْمُوْقِنِيْنَ وَفِي أَنْفُسِكُم أَفَلا تُبْصِرُوْنَ»(١٦) إذ يشرع في الحديث عن تركيب طبقات العين السبع والحكمة من وجودها وعدد عظام الإنسان «الذي أحصاه المشرحون من

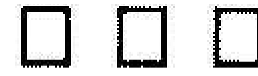


صورة تمثل عملية تشريح جسم الإنسان

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

العظام في البدن مئتان وثمانيةٌ وأربعون عظماً»(١٧) مصنوعة بأحسن تقويمٍ وأفضل صفة «فلو زادت عظماً واحداً لكان مضرةً على الإنسان يحتاج إلى قلعه ولو نقصت عظماً واحداً كان نقصاناً يحتاج إلى جبره فالطبيب ينظر في هذه العظام وكيفية تركيبها ليعرف وجه العلاج في جبرها، والعارف ينظر فيها ليستدل بها على عظمة باريه وخالقها وحكمته وعلمه»(١٨) ولذلك اشتهرت بين العلماء مقولة ابن رشد «من اشتغل بعلم التشريح ازداد إيماناً بالله»(١٩) و«لهذا قيل من لم يعرف الهيئة والتشريح فهو عنّين في معرفة الله تعالى»(٢٠).

بالإضافة إلى ما سبق نقول: وجدت المعلومات التشريحية طريقها إلى كثير من الكتب العامة سواءً منها «العالمة» كـ «رسائل إخوان الصفا وخلان الوفا»(٢١) أو الشعبية كـ «ألف ليلة وليلة» وغير ذلك.



الحواشي :

١ – «المنصوري..»، جامعة كامبردج ق ٥/ ب.

٢ – الدكتور كامل السامرائي «مختصر تاريخ الطب العربي» ١/ ٥٢١.

٣ – «كامل الصناعة الطبية» مكتبة أحمد الثالث، ٢٠٦٠ – ف ١١٥٤.

٤ – «المائة في الطب»، مكتبة أحمد الثالث، ٢٠٥٣ – ف ١١٥٠، ١١٥١، ١١٨١.

٥ – Spink and Lewis "ALBUCASIS ON SURGERY AND INSTRUMENTS" P.3

٦ – ابن سينا، القانون في الطب» ١/ ٥.

٧ – جمع P. DE KONING النصوص التشريحية الواردة في المنصوري للرازي وكامل الصناعة الطبية للمجوسي والقانون لابن سينا في كتابه: "TROIS TRAITES D'ANATOMIE ARABES" بريل، ليدن ١٩٠٣.

٨ – مانفريد أولمان «الطب الإسلامي» ٩٧ وقد صدر كتاب الكليات في طبعة مصورة عن النسخة المخطوطة المحفوظة في دير ساكرونتي.

٩ – يخصص ابن القف للحديث عن التشريح أكثر من مئة صفحة (١٧ – ١٣٠) من الجزء الأول من كتابه التشريح أي ما يعادل خمس الكتاب بجزأيه.

١٠ – الدكتور يوسف خوري «العلوم عند العرب: تبويب وتعاريف ونصوص» ٩٨، وحاجي خليفة «كشف الظنون عن أسامي الكتب والفنون» ١/ ٤٠٨.

١١ – لمخطوطة هذه الرسالة أكثر من نسخة، في تركيا (حميدية ١٤٥٢/ ١٧) و(نور عثمانية ٤٨٩٤/ ١٣٢): د. رمضان ششن «فهرس مخطوطات الطب الإسلامي..» ٥٩، ومنها نسخة أخرى (أحمد الثالث ٣٤٤٧/ ٢٠): د. صلاح الدين المنجد «مصادر جديدة عن تاريخ الطب عند العرب» ٢٦٣.

١٢ – المخطوطة في عقاد بحلب: باول سباط، الفهرس ١/ ٧٨.

١٣ – طبع هذا الكتاب بتحقيق د. سلمان قطاية في القاهرة: الهيئة المصرية العامة للكتاب ١٤٠٨ هـ/ ١٩٨٨ م.

١٤ – في الظاهرية ٣١٦٤، د. المنجد «مصادر جديدة..» ٢٥٥ وفي وصف الدكتور سامي خلف الحمارنة للمخطوط «فهرس مخطوطات دار الكتب الظاهرية: الطب والصيدلة» ٣٨٦ يذكر أنه من ١٧ ورقة ويُرجّح أن يكون «شرحاً لبعض فصول القانون (...) ويبرر الشارح عمله بقوله: لما كان علم التشريح يكلل به العرفان لكل الإنسان وضعت فيه كلمات يسيرة مشتملة على معاني غزيرة وسميتها بلمعان الأنوار ونفحات الأزهار» ا هـ. وبالعودة إلى المخطوطة وجدتها مخطوطتين في مصنّف واحد، المخطوطة الأولى شرح لبعض عبارات

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

«القانون» لا يذكر اسم شارحها، وتستمر من الورقة الاولى حتى منتصف الورقة ١٢ A، حيث تبدأ المخطوطة الثانية، وهي «لمعان الانوار» المذكورة بـ «بسم الله الرحمن الرحيم ربنا اتنا من لدنك رحمةً وهيء لنا من امرنا رشداً. قال سيدنا وشيخنا العلامة فريد دهره ووحيد عصره عز الملة والدين ابو عبدالله محمد بن الشيخ الإمام شرف الدين ابي بكر ابن جماعة..» حتى الورقة ١٧ حيث تنتهي، فهما مخطوطتان متمايزتان في مصنف واحد ورقم واحد، الأولى «شرح القانون» والثانية «لمعان الانوار».

١٥ – ابن طفيل «حي بن يقظان» ٩٢ – ٩٨.

١٦ – سورة الذاريات ٥١/ ٢١.

١٧ – ابن قيم الجوزية «التبيان في اقسام القرآن» ٢٥٠.

١٨ – ابن قيم الجوزية «مفتاح دار السعادة» ١/ ١٩٢ – ١٩٣.

١٩ – ابن ابي أصيبعة «عيون الأنباء في طبقات الأطباء» ٥٣٢.

٢٠ – حاجي خليفة «كشف الظنون عن أسامي الكتب والفنون» ١/ ٤٠٩.

٢١ – في الرسائل ٩، ١٠، ١١، ١٢/ المجلد الثاني.

المصادر والمراجع :

– ابن أبي أصيبعة، أحمد بن القاسم. عيون الأنباء في طبقات الأطباء، تحقيق نزار رضا، بيروت: دار مكتبة الحياة، ١٩٦٥ م.

– ابن ربن الطبري، علي بن سهل. فردوس الحكمة، تحقيق محمد زبير الصديقي. برلين: أفتناب، ١٩٢٨ م.

– ابن سينا، الحسين بن علي. القانون في الطب، ٣ أجزاء. القاهرة: مؤسسة الحلبي وشركاه (طبعة مصورة بالأوفست عن طبعة بولاق) د. ت.

– ابن طفيل، محمد بن عبدالملك. حي بن يقظان، الطبعة الثالثة، قدّم له جميل صليبا وكامل عياد. دمشق: مكتب النشر العربي، ١٣٥٩ هـ/ ١٩٤٠ م.

– ابن القف، يعقوب بن إسحق. العمدة في الجراحة، جزآن. حيدر آباد الدكن، ١٣٥٦ هـ/ ١٩٣٧ م.

– ابن القيم، محمد بن أبي بكر: ١) التبيان في أقسام القرآن، صححه وعلّق عليه طه يوسف شاهين. القاهرة: دار الطباعة المحمدية، ١٣٨٨ هـ – ١٩٦٨ م. ٢) مفتاح دارالسعادة ومنشور ولاية العلم والإرادة. جزءان. بيروت: دار الكتب العلمية، د. ت.

– اولمان، مانفريد. الطب الإسلامي، ترجمة يوسف الكيلاني. الكويت: مؤتمر الطب الإسلامي الأول، ١٩٨١ م.

– حاجي خليفة، مصطفى بن عبدالله، كشف الظنون عن أسامي الكتب والفنون، جزآن، مطبوع مع إيضاح المكنون وهدية العارفين. دمشق: دار الفكر، ١٩٨٢ م.

حمارنه، سامي خلف. «فهرس مخطوطات دار الكتب الظاهرية: الطب والصيدلة». دمشق: مطبوعات مجمع اللغة العربية، ١٣٨٩ هـ/ ١٩٦٩

– خوري، يوسف. العلوم عند العرب: تبويب وتعاريف ونصوص. بيروت: دار الآفاق الجديدة ١٤٠٣ هـ/ ١٩٨٣ م.

– الزركلي، خيرالدين. الأعلام، (١ – ٨). بيروت: دار العلم للملايين، ١٩٧٩ م، ط٤.

– السامرائي، كمال. «مختصر تاريخ الطب العربي»، (١ – ٢)، العراق، وزارة الثقافة والإعلام، سلسلة دراسات (١٣٥٥) و(٣٧٩) بغداد: وزارة الثقافة والإعلام، ١٩٨٤ م.

– ششن، رمضان. «فهرس مخطوطات الطب الإسلامي باللغات العربية والتركية والفارسية في مكتبات تركيا»، إستانبول، ١٤٠٤ هـ/ ١٩٨٤ م.

– الكشكري، يعقوب. «كُنّاش في الطب»، فرانكفورت: معهد تاريخ العلوم العربية والإسلامية، ١٤٠٥ هـ/ ١٩٨٥ م.

– المنجد، صلاح الدين «مصادر جديدة عن تاريخ الطب عند العرب» فهرس منشور في مجلة معهد المخطوطات العربية (الكويت) ١٩٥٨ مج ٥.

– رسائل إخوان الصفا وخلان الوفا، (١ – ٤)، بيروت: دار صادر ١٩٥٧.

PAUL SBATH AL-FIHRES CAIRE, 1939.

SPINK AND LEWIS ALBUCASIS ON SURGERY AND INSTRUMENTS. LONDON: THE WELLCOME INSTITUTE OF THE HISTORY OF MEDICINE, 1973.

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

من أعلام الغرب الإسلامي :

ابن عبّاد الرُّنْدي

الأستاذ عبد القادر زمامه
كلية الآداب - فاس



http://Archivebeta.Sakhrit.com

مَحمد بن إبراهيم بن عبدالله بن مالك بن إبراهيم يكنى بابي عبدالله. ويُعرف في كتب التاريخ والطبقات بابن عبّاد الرُّنْدي. وعبّاد جده الأعلى. ويُزاد في نسبته: الحِمْيَري النَّفْزي. وتُفتح الميمُ من اسمه فيقال فيه «مَحمُد».

ولد بمدينة رُندة (Ronda) جنوب الأندلس سنة ٧٣٣ هـ/ ١٣٣٢ م من أسرة ذات ذكر وشهرة في الأندلس. كان والده عالماً خطيباً واعظاً. وكان خاله فقيهاً قاضياً. وكانت رُنْدَةُ من المدن الأندلسية التابعة لبني الأحمر ملوك غرناطة. إلاّ أنّ الظروف السياسية والعسكرية اقتضت أن تكون تحت حكم بني مُرين ونفوذهم في فترات معيّنة. وهي من المدن الأندلسية التي شاهدها ووصف بعض معالمها الرحّالة ابن بطوطة وقال عنها: «وهي من أمنع معاقل المسلمين وأجملها...»(١) وقد حظي ابنُ عبّاد بعناية خاصة من والده وخاله وعلماء آخرين من شيوخ رُندة، فنال من التربية ودراسة معارف العصر ما أهّله ليتابع المادة العلمية من قرآن وحديث وفقه وعقائد

وأدب وسيرة وتاريخ ونحو ولغة. مما يظهر أثره جلياً فيما كتبه بعد من رسائل وما ألّفه من كتب وما ألقاه من خطب وأحاديث ومواعظ.

ولا نعلم شيئاً محققاً عن دخول ابن عبّاد عاصمة غرناطة أو عدم دخولها والترجمة الموجودة في كتاب «الإحاطة» لابن الخطيب(٢) وكذلك في كتاب «الكتيبة الكامنة»(٣) للمؤلف نفسه هي في الحقيقة لشخصية أخرى، صاحبها محمد بن يحيى ابن عبّاد الرندي النّفْزي ويكنّى بأبي عَمْرو. وبسبب هذه الترجمة التي كتبها ابن الخطيب في كتابيه «الإحاطة» و«الكتيبة» وقعت عدةُ أخطاء في الاستنتاجات. حيث ظنّ بعض المؤلفين والباحثين أنها لابن عبّاد الرّندي الصوفي الذي نتحدث عنه الآن، وليست كذلك.

غادر ابنُ عبّاد الرّندي الأندلس إلى المغرب في تاريخ لا نعلمه بالضبط. إلا أنه يجب أن يكون قبل سنة ٧٦٥ هـ/ ١٣٦٤ م. وهي السنة التي توفي فيها شيخه في التصوف ومربّيه في السلوك أبو العباس أحمد ابن عاشر الصوفي دفين مدينة سلا. وضريحه مشهور بها إلى الآن.

والذي يلفت النظر في أثناء البحث والاستقراء للمصادر القديمة أن الحَضْرَمي يذكر في كتابه «السلسل العذب والمنهل الأحلى» مرافقة ابنِ عبّاد الرُّندي في الأخذ عن شيخه أبي العباسَ ابن عاشر لشخصيتين هما أبو بكر بن إبراهيم الرّندي المكنى بأبي يحيى. ومحمد ابن قاضي سلا إذ ذاك، أحمد الزهري. ويَظهر من كلام الحضرمي وهو مؤرخ معاصر لابن عبّاد أن أبا بكر ابن عبّاد كان صوفياً زاهداً ذا سلوك خاص وأتباع وتلاميذ.

وتنقّل صاحبنا ابنُ عباد الرّندي باحثاً عن الأساتذة والشيوخ في كل من تلمسان، وفاس، وسلا، وطنجة. وربما في مُدن أخرى. إلاّ أن المصادر التي بين أيدينا الآن لا تفيدنا بالمعلومات التي تحدّد ذلك بالزمان والمكان، ليمكننا معها تفصيل مراحل حياته بالمغرب.

وبما أنّ ابن عبّاد دخل مدينة تلمسان وكان من التلاميذ الذين حضروا مجالس القاضي أبي عبدالله المَقّري – جدّ مؤلف «نفح الطيب» فإن المَقّري الحفيد صاحب نفح الطيب تحدث طويلاً عن ابن عبّاد لأنه من تلاميذ جدّه(٤). وذكر نقولاً ومعلومات تتعلق بثقافته العلمية وتربيته الصوفية وشهرته في البلاد المغربية.

كان ابن عبّاد في المغرب يعيش في ظروف دقيقة من تاريخ دولة بني مُرين. بعد موت أبي عِنَان وأبي سالم. ودخول البلاد في دوّامة من الاضطرابات والتكالب على السلطة والنفوذ.

كتاب نفح الطيب في غصن الأندلس الرطيب

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

وتدهور العلاقات بين المغرب ودولة بني الأحمر.
ولقد انعكس ذلك كله على الحياة العامة في البوادي والحواضر، وعلى تفكير الناس وسلوكهم. وخير معبّر عن هذا ما كتبه ابنُ عبّاد في مجموعتيْ رسائله الكبرى، والصغرى، وفيما كان يراسل به أهل السلطة من استنكار للمظالم والتضييق على الناس في معاشهم بفرض أصناف من الضرائب والجبايات والمكوس.
وكان هذا مدعاة ليَلْتَفَّ حول ابن عبّاد عدد كبير من التلاميذ والأتباع. وأن تنشأ حول تصوّفه وسلوكه الاجتماعي والأخلاقي مدرسة واضحة المعالم في عصره، ولاسيما في تلاميذه، ومن أشهرهم ابن السكاك (- ٨١٨ هـ/ ١٤١٥ م).
كما أن شهرة ابن عبّاد بالعلم والصلاح وبعده عن الشبهات وإقباله مع تلاميذه على الحياة الصوفية بورعها، وعبادتها، ورياضتها، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر بأساليب ليّنة نافعة، كلّ ذلك جعل أهل السلطة في فاس يلزمونه بالقيام بعمل ذي تقدير واعتبار يستحقه هو إمامة جامع القرويين والخطابة فيه. وكان ذلك سنة ٧٧٧ هـ/ ١٣٧٥ م أي في المرحلة الأخيرة من حياته. واستمر قائماً بهما طيلة خمس عشرة سنة إلى أن توفي سنة ٧٩٢ هـ/ ١٣٩٠ م وأُقبر في ضريحه الشهير بباب الحمراء من مدينة فاس، وهو مشهور بها إلى الآن.
وكان تصوّف ابن عبّاد كما يظهر من كتابات قائماً على أساس دقيق من تصفية النفس عن طريق تقوية الإرادة بالرياضة الدائمة من خلوة وانقباض وورع وزهد وخمول وتواضع. وقد طبّق ذلك على سلوكه الخاص. فعاش مبتعداً عن المال والجاه مقبلاً على الواجبات والفرائض والنوافل وإخلاص النصح لعامة الناس وخاصتهم، ولم يتزوج.
ولا ظلَّ في تصوّف ابن عبّاد لوحدة الوُجود ولا لوحدة الشُهود، ولم يرم نفسه ولا أفكاره في الشطحات والمتاهات. وغاية الأمر أنه اتخذ الشاذلية قدوة ومنهاجاً، ولم يأخذها عن شيخ معين كما يظهر.
من أشهر آثار ابن عبّاد:
- «شرح حكم ابن عطاء الله».
- «الرسائل الكبرى». أرسلها إلى تلميذه يحيى السراج (- ٨٠٥ هـ/ ١٤٠٢ م).
- «الرسائل الصغرى». أرسل بعضها إلى يحيى السراج، وبعضها إلى محمد بن أديبة.

* *

ترك ابن عبّاد ذكرى طيبة بالمغرب ولاسيّما في مدينة فاس. وتُنسب إليه بها عدة أشياء. وتُروى له عدة أخبار في الورع والعلم وتدل على رغبته في تربية أتباعه وتلامذته على الإخلاص والزهد والسعي لإصلاح أحوال المجتمع بطريقة شرعية.
كما أن كتب التاريخ والتراجم والفهارس تحدثت عنه بوصفه من أعلام المعرفة والتصوف الذين تركوا أمثلة حية في مجتمعهم لا ينساها الناس.

آفاق الثقافة و التراث

ارجو قبول إشتراكي في مجلة « آفاق الثقافة و التراث » لمدة سنة واحدة (اربعة اعداد)

ابتداء من : ....

الأسم : ....

العنوان : ....

....

.... ص .ب : ....

طريقة الدفع : شيك ☐ حواله بنكية ☐ حواله بريدية ☐

التاريخ : التوقيع :

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

توجه رسائل الإشتراكات باسم سكرتير التحرير

رقم الحساب البنكي ٠٤٩٠٩٠٦٥٢٢ ـ بنك المشرق

وكلاء التوزيع	دول الخليج العربي	أمريكا و اليابان
	الشركة السعودية للتوزيع	مكتبة ليلى ـ السيد / جورج فوزي

الحواشي :

١ - رحلة ابن بطوطة ٢/ ١٨٨.
٢ - الإحاطة ٣/ ٢٥٣.
٣ - الكتيبة الكامنة، ٤٠.
٤ - نفح الطيب.

المراجع والمصادر :

١ - ابن بطوطة، محمد بن عبدالله (- ٧٧٩ هـ/ ١٣٧٧ م)، «تحفة النظار في غرائب الأمصار وعجائب الأسفار»، القاهرة ١٩٥٨ م.
٢ - ابن الخطيب، محمد بن عبدالله، لسان الدين، (- ٧٧٦ هـ/ ١٣٧٤ م): ١)«الإحاطة في تاريخ غرناطة»، القاهرة ١٩٧٧ م، ٢)«الكتيبة الكامنة»، بيروت ١٩٦٣ م.
٣ - ابن قُنْفذ، أحمد بن حسين (- ٨١٠ هـ/ ١٤٠٧ م)، «أنس الفقير وعزّ الحقير»، الرباط، كلية الآداب ١٩٦٢ م.
٤ - الحضرمي، محمد بن أبي بكر (- ٧٨٧ هـ/ ١٥٨٥ م)، «السلسل العذب والمنهل الأحلى»، تحقيق محمد الفاسي، القاهرة، معهد المخطوطات، مجلة المخطوطات العربية مج ١٠، ١/ ٣٧ - ٩٨.
- الكتاني، محمد بن جعفر (- ١٣٤٥ هـ/ ١٩٢٧ م)، «سلوة الأنفاس في تراجم علماء فاس وصلحائها» ١٣١٦ هـ.
- المقّري، أحمد بن محمد (- ١٠٤١ هـ/ ١٦٣١ م) «نفح الطيب في غصن الأندلس الرطيب»، تحقيق إحسان عباس، بيروت ١٩٦٨.

ARCHIVE http://Archivebeta.Sakhrit.com

أسد البحر الزخار

أحمد بن ماجد

الأستاذ
زهير حميدان
دمشق

أقامت له البرتغال نصباً تذكارياً في مدينة «ماليندي»(١٢) على الساحل الشرقي الافريقي اعترافاً بنبوغ ابن ماجد وتفوقه. وتخليداً للذكرى التي تقول إنه هو الذي قاد الملاح البرتغالي «فاسكو دي غاما» إلى مرفأ كاليكوت على الساحل الغربي للهند، وذلك في ١٥ آذار عام ١٤٩٨ م، التاريخ الذي أدّى إلى الصدام بين الشرق والغرب في بحر العرب والمحيط الهندي.

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

عرف ابن ماجد نفسه في فاتحة معظم أراجيزه وبخاصة أرجوزة «سمت قبلة الإسلام في جميع الدنيا». كما عرفه بروكلمن(١) كما يلي: شهاب الدين أحمد بن ماجد بن عمرو بن فضل بن دويك بن يوسف بن حسن بن حسين بن أبي معلق(٢) بن أبي الركايب(٣) السعدي(٤) المعقلي(٥) النجدي(٦).

حياته وبعض أخباره

نادرة هي المصادر والمظان التي ألمحت إلى أخبار ابن ماجد وآثاره. أما ما صدر من تراجم وأبحاث حديثة عنه فقد استمدت معظم أخباره ومسارات حياته ونشاطاته من دراسة آثاره وأراجيزه وقصائده وكتبه النثرية التي عكست بشكل واضح ومبين خلفيته الثقافية والعلمية، وأخبرتنا بأنه كان من أهم ربابنة عصره إن لم يكن الأول والأهم بينهم، ورث في البداية حب البحار وعلومها عن جده ووالده صاحب «الأرجوزة الحجازية» في علم البحار، التي تنوف على ألف بيت، فقال في صدد ذلك: «.. وقد كان جدي عليه الرحمة محققاً مدققاً، ولم يقرأ لأحد فيه [المقصود بحر القلزم أي الأحمر..] فزاد عليه الوالد رحمة الله عليه بالتجريب والتكرار، ففاق علمه علم أبيه» كما أكد ما ورثه عن والده بقوله: «.. وكانت أرجوزة الوالد خيراً من جميع ميراثه في ذلك المكان..».

وتظهر الدراسة الشاملة الفاحصة لآثار ابن ماجد أنه كان واسع الاطلاع على علوم البحر وتقويم البلدان والفلك والأنواء والجغرافية والحساب العربي والهندي وحساب أهل جاوة والصين ناهيك عن مهارته في عدة لغات استوجبتها أسفاره إلى ديار أصحابها وتعامله معهم بحكم مهنته في

قيادة السفن التجارية.

عرف ابن ماجد بالإضافة إلى تمكنه بالعربية والنظم فيها الفارسية والسنسكريتية السواحلية ولغة أهل جاوة والتاملية. وآية ذلك ماجاء في أرجوزته «حاوية الاختصار في أصول علم البحار» فقال:

قد راح عمري في المطالعات
وكثرة التسآل في الجهات
وكم رأيت في خطوط الشول(٧)
ونظمه والنثر والفصول
وكم نظرت في حساب العرب
وحسبة الهند مذ كنت صبي

ولا جدل في أن ابن ماجد قد اطلع ودرس بعمق علوم الفلك، والهيئة، خاصة عند اليونانيين والفرس، وكثيراً ما كان يستعمل الأسماء الفارسية لبعض الكواكب والنجوم ويقابلها بالأسماء العربية لها..

وقد اختلف الرواة في عام ولادته ويرجح ظناً أنه ولد عام ٨٣٦ هـ/ ١٤٣٢ م. كما اختلفوا أيضاً في وفاته التي يرجح أيضاً أنها كانت عام ٩٢٣ هـ/ ١٥١٧ م. ويقال: إنه تجاوز الثمانين عاماً.

كما اختلفوا في مكان ولادته ومسقط رأسه فالأستاذ عبدالهادي هاشم رحمه الله والمستشرق الفرنسي غبرييل فران والريس علي بن حسين الملاح التركي يقولون: إنه ولد في مدينة جلفار(٨) عند غب عمان(٩). بينما يقول عباس العزاوي: إنه من سكان نهر معقل في بصرة العراق. أما إبراهيم خوري فيؤكد في دراسة له أنه من مواليد مدينة صعده(١٠) في اليمن. وهو رأي راجح على غيره إذا دققنا بنسب ابن ماجد وأنه سعدي يرقى إلى سعد بن قيس بن عيلان وإلى معقل بن سنان من قبيلة اشجع القطفانية العدنانية التي سكنت اليمن والحجاز. وقد عرف أهل اليمن ورجالها من قديم تاريخهم أنهم أصحاب بحر وربابنة مهرة يجوبون البحار بين الهند والخليج العربي والبحر الأحمر وشواطىء إفريقية الشرقية فليس ببعيد أن يكون ابن ماجد من أشهر ربابنة هذه البلاد التي أطلقت عليه ألقاباً متعددة توحي بقدره ورسوخ علومه البحرية، منها أسد البحار الزخار. المعلم الرئيس المقدم، أستاذ فن البحر، ربان الجهزين (أي جهاز الاسطرلاب وآلة اليد أو خشبات القياس بالأصابع التي كان مخترعها) كما أطلق عليه بحارة الغرب وخاصة من البرتغاليين اسم «كانا» أو «كاناكا» الذي يعنى باللغة السنسكريتية الحاسب أو المنجم أو الخبير بالملاحة الفلكية العالم بأمر البحار أو الرياضي الفلكي وكلها معان تدل على اعتراف صريح من البحارة الأجانب بمكانة ابن ماجد في العلوم البحرية ومهارته القيادية في معرفة المسالك والممرات البحريةولهذا فقد أقامت له البرتغال نصباً تذكارياً في مدينة «ماليندي»(١١) على الساحل الشرقي الافريقي اعترافاً بنبوغ ابن ماجد وتفوقه. وتخليداً للذكرى التي تقول إنه هو الذي قاد الملاح البرتغالي «فاسكو دي غاما» إلى مرفأ كاليكوت على الساحل الغربي للهند، وذلك في ١٥ آذار عام ١٤٩٨ م، التاريخ الذي أدّى إلى الصدام بين الشرق والغرب في بحر العرب والمحيط الهندي.

وقد تباينت الآراء حول هذا الحدث التاريخي الخطير، فبعضها ينسب هذا الفعل لابن ماجد وبعضها ينفيه فأين هي الحقيقة؟ هل هي حقاً كامنة بين ثنايا أقوال المؤرخين الذين يُحَمّلون ابن ماجد المسؤولية كاملة..؟ أم هي تظهر واضحة بين ثنايا الحقائق

التاريخية التي يدعمها الواقع السياسي والاجتماعي والاقتصادي للوطن العربي والغرب الأوروبي، وبالتالي تدعمها وبقوة أكبر حياة ابن ماجد وأخلاقياته وخلفيته الدينية وآثاره وأراجيزه التي سجل فيها كل تحركاته وعلومه ونشاطاته البحرية وتطلعاته ورأيه الواضح في وصول الفرنج إلى المياه العربية والهندية، هذه الحقائق التي تنفي أي مسؤولية عنه.

الجغرافية السياسية

ولهذا لابد لنا في البدء من رسم الخريطة السياسية في نهايات القرن التاسع الهجري/ الخامس عشر الميلادي للعالمين الغربي الأوروبي والشرقي الآسيوي وخاصة الوطن العربي الذي لا يختلف اثنان في أهميته العالمية التي اكتسبها من موقعه المتوسط بين أوروبه وافريقية وآسيا. وفي كونه صلة وصل اقتصادية وحضارية وسياسية بينها ومعبراً للتبادل التجاري العالمي بحكم إطلالة سواحله على أهم البحار وأنشطها، وإشرافه على أهم الممرات المائية العالمية.

بدأ الصراع الأوروبي العربي سياسياً واقتصادياً على أثر سقوط غرناطة عام ٨٩٨ هـ/ ١٤٩٢ م بيد الأسبان وطرد العرب إلى بلاد المغرب العربي وملاحقتهم على سواحله دون هوادة، هذا المصير المأساوي شجع دول غرب أوروبة وبفعل عدة دوافع أهمها الدافع الاقتصادي التجاري الذي تكمن وراءه مطامع أوروبا وتطلعاتها. فالمعروف أنها كانت تستورد حاجاتها من التوابل وغيرها من منتجات الشرق الآسيوي من الهند والصين عن طريق التجار العرب المسيطرين آنذاك على جميع الطرق سواء كانت برية أم بحرية مع شركائهم تجار إيطاليا الذين كانوا يحتكرون دون غيرهم من التجار الأوروبيين نقل هذه البضائع وتوزيعها في الدول الأوروبية؛ مما أثار حقد هذه الدول وخاصة الغربية منها كإسبانيا والبرتغال المنتصرتين على العرب فاندفعتا بشراسة للوصول إلى هذه المتاجر الشرقية ولكسر الاحتكار العربي الايطالي لها متسلحتين بقوة العلم الجغرافي الذي اكتسبناه عن طريق الكتب ومؤلفات الجغرافيين العرب. فانطلقت إسبانية نحو الغرب للوصول إلى الهند عن طريقه وكان أن اكتشفت أمريكا أولاً.. وأبحرت البرتغال نحو سواحل إفريقية الغربية الواقعة على المحيط الأطلسي وسايرتها جنوباً حتى وصلت سنة ٨٨٥ هـ/ ١٤٨٠ م إلى رأس الرجاء الصالح، أو ماكان يسمى برأس العواصف، وذلك بقيادة الملاح «دياز» ثم في سنة ٩٠٢ هـ/ ١٤٩٧ م دار «فاسكو دي غاما» حول رأس العواصف ووصل إلى سواحل إفريقية الشرقية المطلة على بحر العرب والمحيط الهندي. وفي هذا التاريخ وعند هذا الشاطىء بدأت المأساة، وراح المؤرخون يفتشون عن البطل الذي أرشد سفن فاسكو دي غاما إلى الهند وسبَّبَ النكبة الفادحة. وكان التاريخ في ظنهم يحركه البطل وحده لا الظروف والأوضاع العامة السياسية والاجتماعية والاقتصادية.

ومن المعروف والسهل عند الناس جميعاً وفي العصور كلها وعند جميع الأمم - وكأن ذلك عرف من أعراف علم النفس الاجتماعي - أنهم ينسبون الحوادث العظام إلى شخص يعدونه عظيماً في نظرهم، وهكذا كان ابن ماجد بين ربابين البحر في علمه وفنه ومعارفه الملاحية وليس كمثله بين الملاحين

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

المعلمين من يقدر على إرشاد فاسكو دي غاما على الطريق الذي غيّر مجرى التاريخ إلا هو.. فكان هو بطل المأساة العربية.

كانت ترسم خارطة أوروبة السياسية في مطلع عصر النهضة والكشوف الجغرافية دولاً ناهضة، تحلم بمستقبل يجعلها في طليعة دول العالم سياسياً واقتصادياً وثقافياً، وتعمل لتجعل الحلم حقيقة متسلحة بقوة المال وقوة العلم. فكيف كانت خارطة الوطن العربي العامة في ذلك الوقت؟ إنها كانت في غاية التشرذم والتمزق السياسي وفي غاية التخلف العلمي والثقافي وفي غاية الضعف والتدهور الاقتصادي وذلك للأسباب التالية:

أ - السلب الذي كان يمارسه الحكام المحليون واحتكارهم لثروات البلاد واقتصادياتها وخاصة التجارية، مما أدى لانتشار الفقر بين مختلف طبقات الشعب غير الحاكمة.

ب - المنازعات شبه المستمرة بين الحكام المحليين وكيد بعضهم لبعض للوصول إلى حكم إقليم صغير لا تتجاوز حدود مدينه في أكثر الأحيان وهكذا كان الحال بين المماليك في بلاد الشام ومصر والعراق وكذلك فيما بين أشراف مكة ومشايخ القبائل والأمراء في اليمن وحضرموت ومسقط والجزيرة وغيرها.

جـ - الحروب الصليبية التي زادت الطين بلة وأفرزت قوى محلية طارئة متهالكة على الحكم فزادت في التمزق والشرذمة.

د - الغزوة الشرسة المغولية التي محت آخر رمز لوحدة الوطن العربي، وقضت على أروع ثمرات الحضارة العربية الإسلامية.

أما في جنوب آسيا وجنوب شرقها وشرقها وشرق افريقيا: فلم تكن أوضاع هذه المناطق بأحسن من أوضاع الوطن العربي.

فالتمزق والاقتتال الدائم بين مهراجات الأقاليم الهندية دائم مستمر. وفي الصين وما جاورها مؤامرات وكيد وتمزّق بين الحكام والاقطاعيين المحليين وأصحاب السفن فضلاً عن العداء بين دول هذه المناطق بدافع احتكار تجارة التوابل ومنتجات الشرق والسيطرة على البحار. ولم يكن الوضع في شرق افريقية بأحسن منه في بقية المناطق التي مررنا على ذكرها.

هكذا كانت دول الشرق وإفريقيا الشرقية والوطن العربي غارقة في فوضى ذهبت بريحها وأوهنت قوتها وجعلتها غير قادرة على الصمود أمام الهجمات الأوروبية الجديدة المتمثلة بالبرتغاليين الذين - دون ريب - كانوا على دراية بهذه الخارطة السياسية وشاهدوا على الأقل ما يجري على أرض هذه المناطق فاستغلوه لمصلحتهم، وكانوا كما قلنا متسلحين بقوة العلم وقوة المال وقوة السلاح، فلم تستطع القوى المحلية في شبه الجزيرة العربية سواء في سواحلها الجنوبية أم في خليجها أن تصمد أمام هذه الغزوة العاتية الجديدة مثلهم كمثل حكام افريقية الشرقية وبلاد الهند. وبدلاً من العمل على تحالف فيما بين هذه القوى المحلية عمد بعضها إلى التحالف مع البرتغاليين المهاجمين.

الحدث التاريخي

إزاء هذا الواقع لابد للباحث أو المراقب **ان يسال ولكليهما الحق ان يسال ترى هل كان البرتغاليون يستطيعون الوصول إلى الهند بقواهم الذاتية ومعارفهم البحرية دون الاستعانة باحد من ربابنة هذه المناطق الماجدين، حتى لو كان المعلم الملاح اسد البحار احمد بن ماجد؟**

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

في الجواب نقول : أجل ستصل سفن البرتغال ودون معونة أحد إلى مرافىء الهند وتحتكر الطرق البحرية إليها وتطرد السفن العربية منها. والأسباب واضحة كما شرحناها لأن البرتغاليون يمتلكون المؤهلات العلمية والملاحية، والوضع السياسي ملائم، والتمزق شل كل مقاومة ضد الدخيل الجديد، الذي انتصر على كل قوة جابهته، ولو كان العرب في قوتهم لما تمكنت البرتغال ولا غيرها من الوصول إلى الهند والسيطرة على طريقها. ومع ذلك فالحكام في جنوب شبه الجزيرة العربية وخليجها وقد هالهم ماشهدوا من فظائع قواد السفن البرتغالية استعانوا بالمماليك في مصر والشام، وهم الذين سيتضررون من وجود البرتغال في البحار الجنوبية، وتخسر تجارتهم بين الشرق وأوروبة. ولم يدرك هؤلاء فداحة الخطر فأرسلوا النجدات القليلة التي اندحرت. وأرسلت الدولة العثمانية كذلك قوة بحرية لطرد الغزاة لم تكن بالمستوى المطلوب فانكسرت في معركة ديو البحرية أمام البرتغال عام ١٥٠٩ م في بحر العرب لأن هذه القوة العثمانية لم تكن بعد على استعداد للصمود بسبب انشغالها بالعمل على هضم ما فتحته من بلاد شاسعة وبالعمل على إقرار سلطتها في امبراطورية تمتد في الغرب والشرق والجنوب..

وللباحث والمراتب كذلك سؤال يحق له أن يسأله.. لماذا نضع اللوم كل اللوم على أحمد بن ماجد؟ لماذا لا نقول إن الخريطة السياسية والحكام المتقاتلين هم أسباب النكبة الفادحة؟ وليس أحمد بن ماجد الذي كان قد بلغ من العمر عتياً عند وصول ڤاسكو دي غاما البرتغالي إلى البحار العربية والمحيط الهندي وبالذات إلى كاليكوت. وكان من حقه أن يرتاح ولا يمارس أي عمل بحري. فمن هو الذي وجه الاتهام إلى ابن ماجد في قضية إرشاد ڤاسكو دي غاما على طريق الهند وقاده إلى سواحلها الغربية؟

لقد تباينت الآراء في صدد هذا الحدث التاريخي الخطير بمدلولاته وآثاره ونتائجه على المدى القريب والبعيد في مجمل الجغرافية السياسية والاقتصادية والاجتماعية والثقافية في الشرق والغرب سواء بسواء.

أقوال النهروالي

المؤيدون الذين أيدوا هذا الحدث هم من المستشرقين أو الباحثين العرب الذين تأثروا بأقوال بعض المؤرخين غير المدققين أو بادعاءات قسم من التجار العرب الذين نكبوا بتحول الطريق البحرية من أيديهم.
ولذلك راحوا ينعتون ابن ماجد بأشنع النعوت حتى وصل بعضهم إلى حد إلصاق تهمة خيانته لأمته ودينه.

ولقد كان أول من أثار هذه الزوبعة حول ابن ماجد وافترى عليه هو قطب الدين محمد بن أحمد النهروالي المنسوب إلى مدينة نهرواله الواقعة في مقاطعة جوزارات بالهند، التي يقال إن أسرته قد هاجرت إليها من عدن، وكان شغل منصب القضاء والإفتاء في مكة من قبل الدولة العثمانية، وقد كلّفه سنان باشا القائد العثماني الذي فتح اليمن أن يضع تاريخاً لليمن بالعربية فكتبه تحت عنوان «الفتوحات العثمانية للأقطار اليمانية» وذلك سنة ٩٨١ هـ/ ١٥٧٣ م ثم أتبعه بكتاب آخر ضمنه ما حدث بين سنتي ٩٠٠ هـ/ ١٤٩٤ م و ٩٨٧ هـ/ ١٥٧٠ م بعنوان «البرق

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

اليماني في الفتح العثماني». ومنه: «.. وقع في أول القرن العاشر الهجري وآخر القرن الخامس عشر الميلادي من الحوادث الفوادح النوادر، دخول الفرتغال [أي البرتغال] اللعين، من طائفة الفرنج الملاعين إلى ديار الهند وكانت طائفة منهم يركبون من زقاق سبته في البحر [مضيق جبل طارق] ويلجون الظلمات ويمرون بموضع قريب من جبال القمر [غير معروف مكانها وأي جبال يقصدها النهروالي] بضم القاف وسكون الميم، جمع أقمر أي أبيض، وهي مادة أصل بحر النيل، ويصلون إلى الشرق ويمرون بموضع قريب من الساحل في مضيق أحد جانبيه جبل والجانب الثاني بحر الظلمات في مكان كثير الأمواج، لا تستقر به سفائنهم وتنكسر ولا ينجو منهم أحد، واستمروا على ذلك مدة وهم يهلكون في ذلك المكان ولا يخلص من طائفتهم أحد إلى بحر الهند، إلى أن خلص غراب [نوع من السفن] إلى الهند فلا زالوا يتوصلون إلى معرفة هذا البحر إلى أن دلهم شخص ماهر من أهل البحر يقال له أحمد بن ماجد، صاحبه كبير الفرنج وكان يقال له الملندي، وعاشره في السكر، فعلمه الطريق في حال سكره وقال لهم: لا تقربوا الساحل من ذلك المكان، وتوغلوا في البحر ثم عودوا، فلا تنالكم الأمواج، فلما فعلوا ذلك صار يسلم من الكسر كثير من مراكبهم، فكثروا في بحر الهند، وبنوا في كوة [مركز] من بلاد الركن قلعة يسمونها كوتا، ثم أخذوا هرموز [مضيق هرمز في مدخل الخليج العربي] وتقووا هناك وصارت الأمداد تترادف عليهم من البرتغال فصاروا يقطعون الطريق على المسلمين أسراً ونهباً ويأخذون كل سفينة غصباً»(١٢).

ولقد تبنى هذا النص كل من المستشرقين الفرنسي غبرييل فران، والروسي شوموفكسي، والبرتغالي تكسيرا داموتا. وجميعهم كانوا يهتمون بآثار أحمد بن ماجد ومؤلفاته البحرية ولهم فضل كبير في نشرها وترجمتها، كما تبنى هذا النص أيضاً معظم الباحثين العرب وقليل منهم وقف منه موقف المحايد.. ورفضه بعضهم كالباحث إبراهيم خوري. وكذلك محمد بسام ملص في مقالة له في مجلة الخفجي.

رد على قول

وفي الرجوع إلى نص النهروالي وإخضاعه للتحليل الجغرافي والتاريخي نلاحظ تهافته بما يلي:

١ - إن النهروالي وقع في خلط جغرافي عندما لم يستطع تحديد الأماكن التي مرت بها مراكب البرتغال ولا تعريفها ولا وصفها كجبال القمر، والمضيق القريب من الساحل الذي قال عنه: «على أحد جانبيه جبل والجانب الثاني بحر الظلمات في مكان كثير الأمواج»، فهذا الوصف ينطبق على رأس الرجاء الصالح وهو ليس بالمضيق، فهل يريد النهروالي تحديد مكان آخر بدلالة ما قاله بعد ذلك: «.. وقال لهم [ابن ماجد] لا تقتربوا الساحل من ذلك المكان، وتوغلوا في البحر ثم عودوا فلا تنالكم الأمواج، فلما فعلوا صار يسلم من الكسر كثير من مراكبهم..» ومن هذا القول يتبين أن المقصود هو رأس الرجاء الصالح، علماً بأن ابن ماجد لم يقترب من هذا الرأس ولم يصل إليه إطلاقاً ولا نوّه بموقعه في آثاره التي كتبها عن الطرق البحرية، وهنا يظهر التضارب وعدم المعرفة والخلط عند

النهروالي الذي لم يكن يمتلك أية معرفة جغرافية أو بحرية، مما يؤدي إلى ضعف روايته عن ابن ماجد.

٢ - إن النهروالي قد وقع في خلط تاريخي أيضاً، فقد روى أن البرتغال وصلوا إلى الهند في أول القرن العاشر الهجري الذي يصادف أوله عام ١٤٩٥ م بينما المعروف تاريخياً أن وصولهم إلى الهند كان عام ١٤٩٨ م، مما يضعف روايته بمجملها.

والمؤرخ الذي يقع بمثل هذا الخطأ ربما يخطىء في أمور أخرى، وليس ذلك ببعيد عن النهروالي الذي كتب هذا النص الخطير تاريخياً بعد مرور ما يقارب من خمسين سنة على وقوع هذا الحدث، أي أنه لم يكن معاصراً له وربما كتب ما سمع من أفواه الناس وأثبت رواياتهم دون تمحيص، وآية ذلك عدم ورود مثل هذه الرواية عن ابن ماجد عند مؤرخ عاصر دخول البرتغاليين إلى البحر العربي والهندي مثل عبدالرحمن بن علي الشيباني الزبيدي المشهور بابن الدُّيبع (- ٩٤٤ هـ/ ١٥٣٧ م). ومثل عبدالله بن عبدالله بامخرمه الحميري الشيباني الحضرمي (- ٩٤٧ هـ/ ١٥٤٠ م) فأيهم أصدق قولاً المعاصر أم البعيد بنحو خمسين سنة عن حادث حدث؟ أعتقد أن الشك يلحق بالثاني بداهة.

٣ - إنّ المؤرخين البرتغاليين الذين أرخوا أخبار النشاطات البحرية البرتغالية المندفعة نحو الشرق وبحاره لم يذكر أحد منهم اسم أحمد بن ماجد بأنه هو بالذات قد سار مع ڤاسكو دي غاما وأرشده على طريق الهند، بل ذكروا اسم معلم مسلم من جوزارات واسمه «كانا اوكاناكا» أرسله ملك ملندي إلى ڤاسكو دي غاما ليقوده إلى ميناء كاليكوت.

والمعروف أن اسم «كانا» هو لقب كان يطلق على ربان البحر، أيّ ربان عارف بالنجوم ماهر في علوم البحر وليس اسماً لشخص معين بذاته.

٤ - ثم يقول النهروالي: إن ابن ماجد قد التقى بڤاسكو دي غاما في منطقة سفالة أو في ملندي (انظر الخريطة رقم ٢) أو في غيرهما من مرافىء افريقية الشرقية التي لم يذكر ابن ماجد نفسه أنه قد وصل إليها إطلاقاً.

وإذا كان قد ذكر ملندي في قوله «.

. وبعد اولاً ترى ملنـــدي

وقيل راسه طويلاً يبدي(١٣)

فذلك من باب الوصف والسماع الجغرافيين. أخذه عن غيره من الملاحين أو الجغرافيين الذين زاروا هذه المناطق ليس غير، علماً بأن ملندي لم تكن آنذاك بالمدينة المهمة من ناحية النشاط البحري أو التجاري.

٥ - ثم جاء في نص النهروالي مايلي: «فلا زالوا يتوصلون إلى معرفة هذا البحر إلى أن دلّهم شخص ماهر يقال له أحمد بن ماجد صاحبه كبير الفرنج وكان يقال له الملندي، وعاشره في السكر، فعلمه الطريق في حال سكره» وفي الرد على هذا نقول:

أ - لم يذكر أحد من المؤرخين ڤاسكو دي غاما باسم «الملندي» إنما من كان يعرف بهذا الاسم هو الفونسو دي البوكيرك الذي أرسله الملك مانويل إلى الهند عام ١٥٠٣ م أي بعد رحلة ڤاسكو دي غاما بنحو تسع سنوات.

ب - ثم هل من المنطق أو المعقول أن ملاحاً ماهراً ورباناً محنكاً يعرف مخاطر الابحار مثل ڤاسكو دي غاما أن يثق أو يستسلم إلى قيادة ملاح سكير. خاصة وأنه يمخر عباب

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

المحيط الهندي لأول مرة.

جـ - ثم إن معصية السكر تتنافى وأخلاقيات ابن ماجد الذي لم يعرف عنه أنه كان عربيداً ماجناً بل كان ورعاً تقياً متديناً أبدا يخاطب أقرانه من الربابين بقوله:

اسال الرحمن يا معواني
إذا تلوت النظم والمعاني
اقرا لي الحمد مع الإخلاص
تنفعني في العرض والخلاص

ومن عادة الربابين العرب حين يجتازون مضيق باب المندب ويبحرون في المحيط الهندي تلاوة الفاتحة تنفيذاً لوصية ابن ماجد الذين كانوا يلقبونه بـ «شهاب الدين والدنيا» تشريفاً له واعترافاً بصلاحه وأخلاقه وتقواه التي تظهر واضحة بوصية وجهها بقلب مؤمن إلى كل بحار أو ربان سفينة ليلتزم حفاظاً على سلامته فيقول: «وينبغي أنك إذا ركبت البحر أن تلزم الطهارة والقراءة والدعاء فإنك في السفينة ضيف من أضياف الباري عز وجل، فلا تغفل عن ذكره، فإنه شديد العقاب وإنه لغفور رحيم» كما كان هو نفسه يلتزم قبل غيره في بداية إبحاره قراءة البسملة، كما هو واضح في قوله (١٤):

ركبت على اسم الله مجرى سفينتي
وعجلت فيها بالصلاة مبادراً

د - لم يذكر ابن ماجد في كل أراجيزه أنه قد ركب سفينة برتغالية أو التقى ببحّار برتغالي، بل لم يسمع هو أو غيره من أهل الجزيرة العربية إلا بعد مرورهم ووصولهم إلى الهند بسنين عديدة. إذ كان ابن ماجد خلالها معتزلاً للعمل بعد أن تقدّم به العمر. أما ما جاء في بعض أبيات الأرجوزة السفالية من أخبار الفرنج فهي منتحلة كما أثبت ذلك إبراهيم خوري بدراسته المستفيضة الدقيقة لهذه الأرجوزة. وقد حدد عدد هذه الأبيات المنتحلة بـ (٦٩) بيتاً.

ومن الثابت تاريخياً أن ابن ماجد كان قد قارب ٧٥ سنة من عمره قبل خروج ڤاسكو دي غاما من لشبونة بسفنه بما ينوف على ١٠ سنوات وقبل دورانه حول رأس الرجاء الصالح سنة ٩٠٣ هـ/ ١٤٩٧ م بثلاث سنوات وذلك إذا اعتبرنا أن ابن ماجد ولد عام ٨٢٥ هـ/ ١٤٢٢ م أو عام ٨٣٦ هـ/ ١٤٣٢ م.

هـ - وبالإضافة إلى كل ذلك نقول تأكيداً لنفي ما ألصقه النهروالي بابن ماجد من فرية: إن أحداً من ربابين الجزيرة العربية لم يذكر أن ابن ماجد هو الذي أرشد وقاد ڤاسكو دي غاما حتى إن الربان التركي سيدي علي بن الحسين صاحب كتاب «محيط» الذي اهتم بآثار ابن ماجد وعلومه الفلكية والبحرية وأعجب بها ودرسها جيداً وترجمها إلى التركية وكتب عنها وعن حياة ابن ماجد لم يذكر إطلاقاً حادثة الإرشاد هذه.

وفي النهاية أحب أن أنوه بفائدة لعلها تحسم جدلاً لا يزال قائماً وتنفي فرية ألصقت بابن ماجد دون تمحيص أو تدقيق أو دراسة واعية للظروف التاريخية والسياسية التي كانت قائمة في بداية الهجوم البرتغالي بشكل خاص والأوروبي الغربي بشكل عام، على بحار كان العرب أسيادها ناهيك عن الدراية الكاملة بالخلفية الأخلاقية والدينية لابن ماجد والاطلاع الشامل على كل آثاره وأراجيزه ونشاطاته ومجالاتها الجغرافية والبحرية.

فقد أفادني الأستاذ أحمد جلال التدمري مدير مركز الدراسات والوثائق بالديوان الأميري في حكومة رأس الخيمة أن الحكومة المذكورة أرسلته بمهمة خاصة إلى البرتغال

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

للتفتيش والتنقيب عن أي وثيقة أو دراسة أو بحث يتعلق بابن ماجد، وبقضية إرشاده لفاسكو دي غاما على طريق الهند وقال: وقد قدمت له حكومة البرتغال كل مساعدة واطلع على وثائق ومخطوطات عديدة وكثيرة فلم يجد فيها ما يثبت لابن ماجد علاقة بهذه الفرية لا من قريب ولا من بعيد.

وبعد، فلنا أن ننتظر ما سيظهر في المستقبل من دراسات أو وثائق تؤكد أو تنفي.

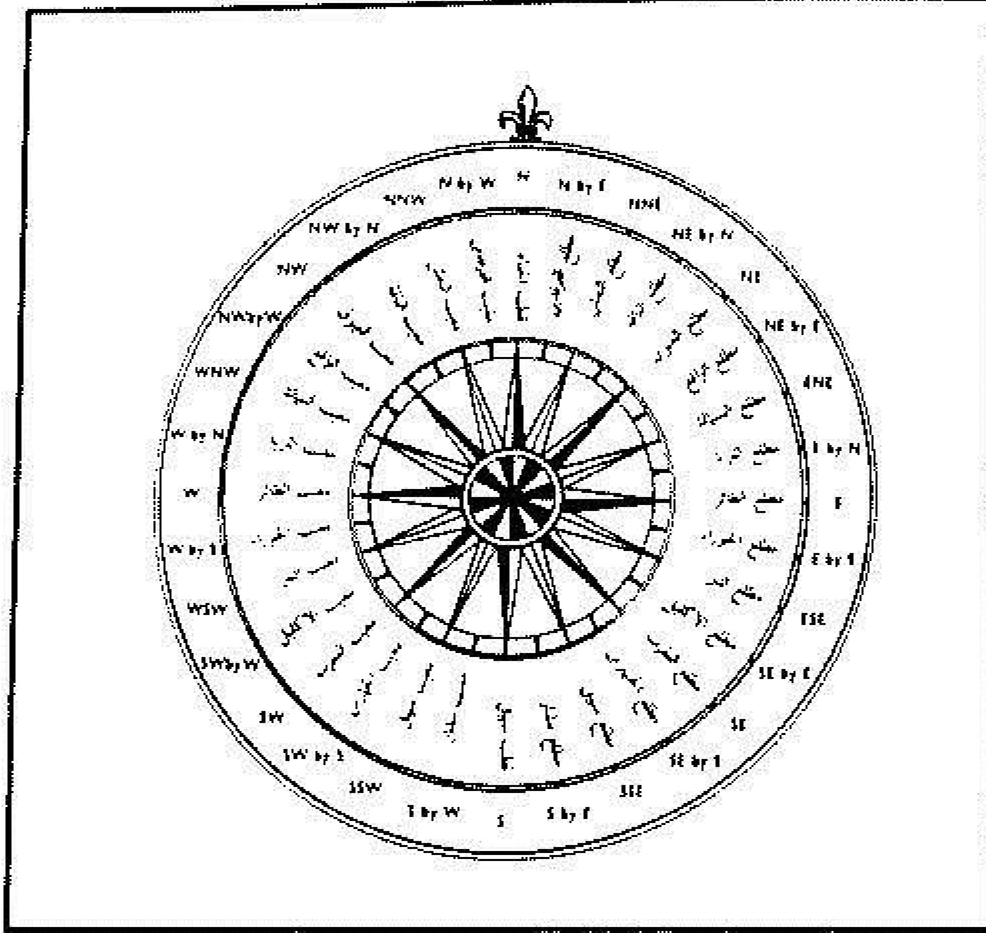
منجزات ابن ماجد وإبداعاته العلمية والملاحية

إنجازات ابن ماجد عديدة منها:

- أنه من الأوائل إن لم يكن أول من وضع وصفاً واضحاً للسحائب الجنوبية الكبرى والصغرى وسبق بذلك ماجلان الملاح البرتغالي الذي حاول الدوران حول الأرض



آلة الكمال أو خشبات ابن ماجد و هي الطريقة التقليدية في معرفة خطوط العرض



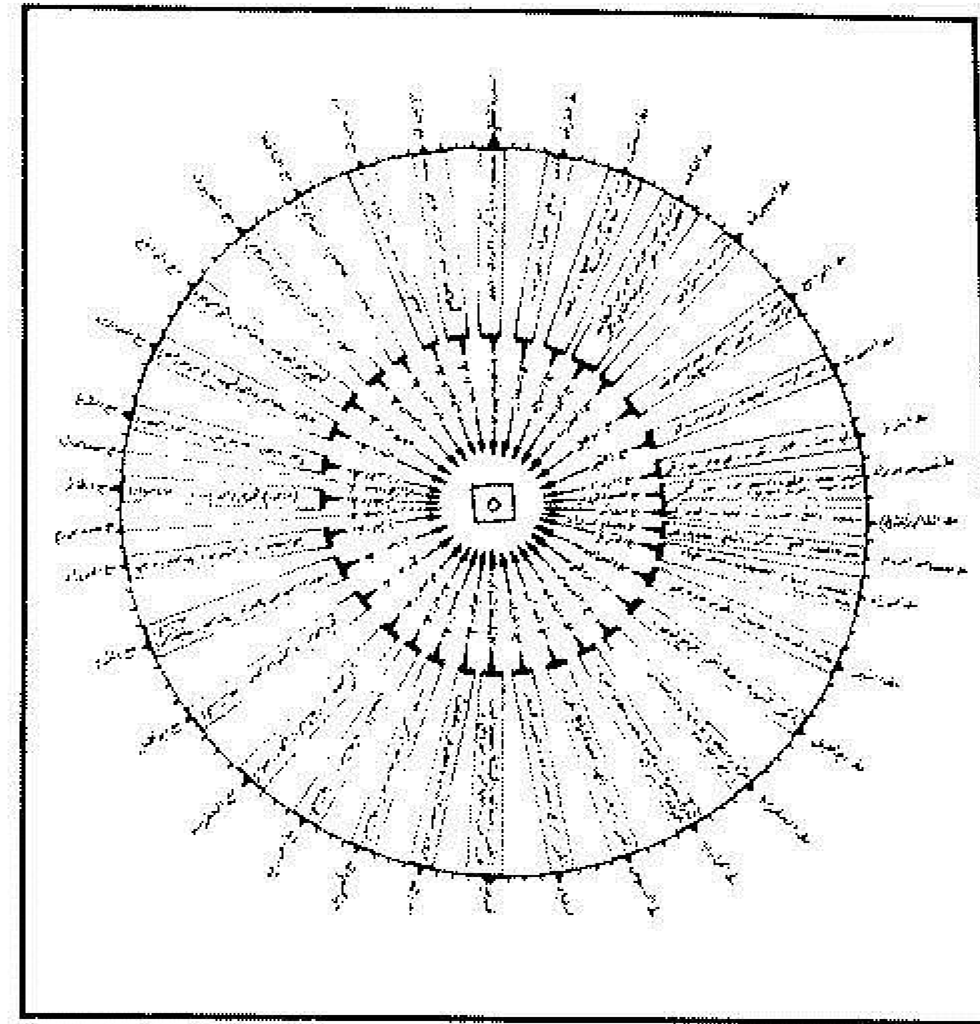
البوصلة كما طورها ابن ماجد

وذلك عام ١٥١٩ م، هذه السحب التي أطلق الأوروبيون عليها اسم سحائب ماجلان واغتصبوا بذلك حقاً حضارياً من حقوق ابن ماجد.

- تطوير البوصلة أو بيت الإبرة - التي كانت تتألف من قطعة معدنية رقيقة ممغنطة تغرس في نبتة البلسان وتوضع في الماء وتدور فيه لتدل بعد استقرارها على جهتي الشمال والجنوب - فقد طورها ابن ماجد إلى إبرة ممغنطة توضع فوق السن في وسطها بحيث تتحرك بحرية فوق قرص رسمت عليه (الاخنان)(١٥). ويقول في ذلك: (... ومن اختراعنا في علم البحر تركيب المغناطيس على (الحقة)(١٦) بنفسه ولنا فيه حكمة لم تودع في كتاب..) انظر اللوحة رقم (٢).

- أبدع طريقة لتحديد القبلة تعتمد على قبضة اليد والذراع الممدودة في حالة غياب البوصلة، ويقول في ذلك: (وكذلك دورة السماء ٣٢ جزء. (ويقصد دائرة الأفق) «وكل جزء قبضة من الخنصر إلى الإبهام، وأنت مستقبلها ماداً بها ذراعك فحط الابرة أمامك

ARCHIVE
http://archivebeta.Sakhrit.com



البلدان و أخنان قبلتها كما ورد ت في المنظومة

وصل على أي خن جاء في النظم على أي بلد أنت بها واقبض ببعض الأدلة المشار إليها عند عدم الحقة».

يقول المستشرق ريتر: «أهدى الناس - ابن ماجد - في البحار وطرقها فيما بين الهند وجزيرة العرب وإفريقية ووضع خرائط لجميع الطرق المؤدية إلى سواحل الهند».

وكانت خرائطه تسمى مرشداته الملاحية أو الرهمانات أو الراهنامجات(١٧).

قسم وردة الرياح إلى ٣٢ قسماً. ووردة الرياح آلة لمعرفة اتجاه الريح. وتسمى دائرة الأفق وهي لوح تقسم عليه الجهات الأربع الأصلية مع أقسام صغيرة متساوية بين كل جهتين أصليتين، وهذه الآلة أقدم استعمالاً في الملاحة البحرية من البوصلة أو الإبرة المغناطيسية.

وضع ابن ماجد دستوراً للبحارة وللعمل الملاحي يتلاءم مع كل زمان ومكان. يلزم على كل ربان أن يلم بقواعده ليكون ناجحاً، وهذه حيثياته:

١ - الإلمام بالعلوم الرياضية والفلكية.

٢ - الإلمام بقواعد الملاحة الأساسية.

٣ - معرفة حالة البحر والأنواء والرياح ومعرفة الأرصاد الجوية والبحرية.

٤ - الإلمام بآلات الرصد ومعرفة القياس بها وطرق استعمالها وصيانتها مثل البوصلة والاسطرلاب(١٨) وربع الدائرة(١٩). وآلة الكمال أو ما يسمى «خشبات ابن ماجد».

٥ - الإلمام بعلوم ما يسمى الاقيانوغرافيا الطبيعية والبيولوجية أي معرفة خواص المياه والأحياء البحرية والطيور والتي يستدل بها على قرب الساحل وطبيعة القاع وسبر الأغوار.

٦ - مواصلة الدراسة المستمرة والتدرب على فنون البحر والملاحة.

٧ - أن يتحلى بصفات إنسانية ومستوى أخلاقي رفيع.

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

آثاره ومؤلفاته

معظمها من الرجز، وبعضها قصائد من بحور مختلفة يغلب عليها النظم العلمي الجاف، ولا تخلو من أبيات تدل على شاعرية بما فيها من عاطفة رفيعة ولغة سليمة.

أما مؤلفاته النثرية فلا تكاد تتجاوز أصابع اليد، وقد استطعت أن أحصي من مختلف المصادر والمظان والفهارس (ثلاثة و ثلاثين) مصنفاً من مؤلفاته المنظومة والنثرية. أما آثاره التي ذكرها الباحثون فقد بلغت (تسعة عشر) مؤلفاً، وهي لا تزال مفقودة، وفي ظني أن بعض مؤلفاته متناثرة في دور الكتب العالمية والخاصة لم تعرف بعد. وآثار هذا الملاح العالم على رفوفها تنتظر من ينفض غبار النسيان عنها، والأمل كبير في جهود الباحثين عن مثل هذه الكنوز في مستقبل

الأيام وخاصة الباحثين العرب.

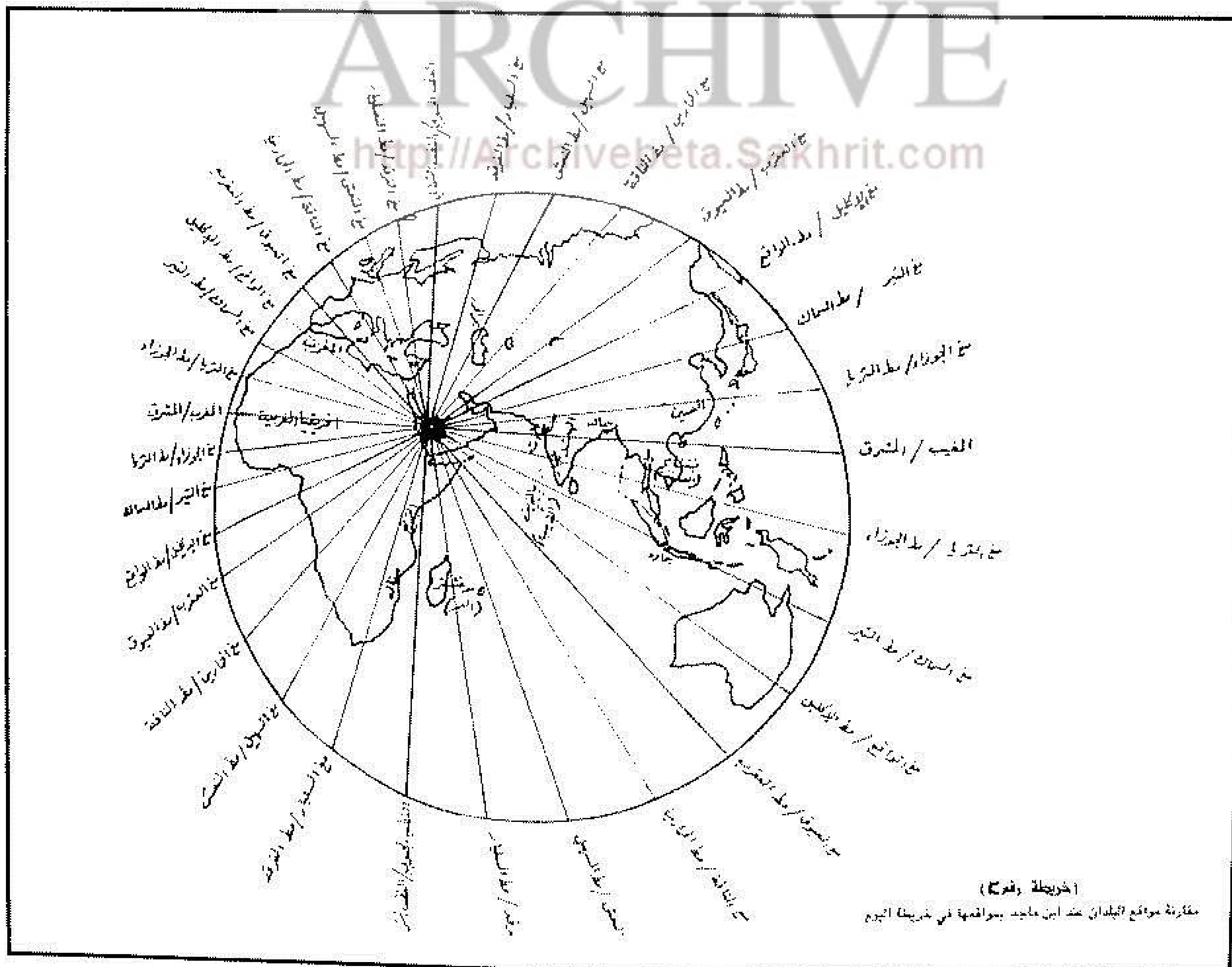
ولقد كانت أعمال ابن ماجد موضع اهتمام بعض المستشرقين تحقيقاً ودراسة ونشراً وفي طليعتهم المستشرق الفرنسي غبرييل فران الذي كان له الفضل الكبير في العثور على معظم المؤلفات ونشرها، كما اهتم الروسيان كراتشكوفسكي وشوموفيسكي بدراسته وتتبع آثاره بالإضافة إلى الريس التركي علي بن حسين الذي ترجم بعض آثار ابن ماجد إلى التركية وتتبع أخباره وحياته سواء كان بدافع علمي أم بدافع سياسي، كما صدرت ترجمات أخرى بالإنكليزية والروسية والهندية. وفيما يلي سرد لهذه الآثار والمؤلفات.

«القصيدة البليغة في قياس السهل والرامح»: عينية على البحر الطويل من (ثلاثة و ستين) بيتاً. يفتخر فيها بمسقط رأسه جلفار ويتحدث عن قياسات نجمي سهيل والسماك الرامح في أسفاره البحرية. ومطلعها:

سهرت وغيري خالي البال هاجع
غرام ومثلي كيف يهنا المضاجع

«الأرجوزة السفالية» نسبة إلى إقليم سفالة على شاطىء إفريقية الشرقي من (٧٠١) بيت وفي رواية من (٨٠٧) بيت. وفيها وصف كوزموغرافي لهذا الشاطىء والمجاري والقياسيات من ميناء مليبار في الهند إلى آخر أرض الجنوب (إقليم سفالة) وأخبار ملوكها وعادات أهلها ومواسمها ومعادنها وثرواتها. مطلعها:

الحمد لله الذي أنشا الملا



مقارنة مواقع البلدان عند ابن ماجد بمواقعها في خريطة اليوم

من عدم جل تعالى وعلا

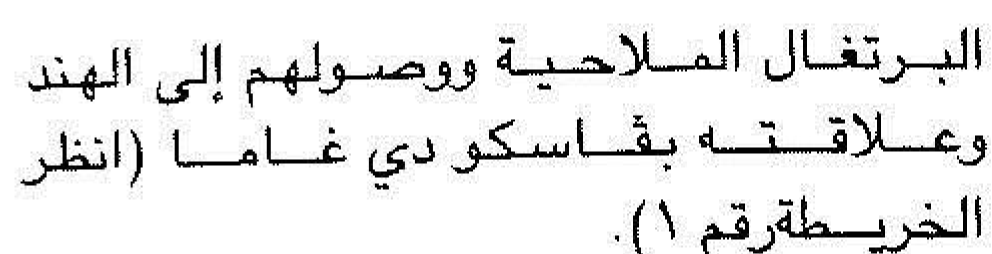
وفيها يذكر وصول البرتغاليين وغزوهم لجزيرة مدغشقر فيقول:

وخشب الافرنج قد جاؤوها
وملكوها بعد ان غازوها

كما يتحدث فيها عن عودة الإفرنج سنة ٩٠٦ هـ/ ١٥٠١ م إلى كاليكوت، لذلك يرجح بعض الباحثين أنه قد نظمها في السنين الأولى من القرن العاشر الهجري/ السادس عشر الميلادي، وترجمت إلى الإنكليزية تحت عنوان «السفالية أو الملاحة العربية على سواحل إفريقية الشرقية في القرن الخامس عشر» ونشرها في البرتغال عام ١٩٨٣ مركز الدراسات الكوتوغرافية القديمة وورد فيها بعض الأبيات المنتحلة، وتتعلق بمدح معارف

٢ — صفحة من الارجوزة السفالية لاحمد بن ماجد (عن مخطوط لننجراد الذي نشره شوموفسكي سنة ١٩٥٧)

الصفحة الأولى من الارجوزة السفالية



البرتغال الملاحية ووصولهم إلى الهند وعلاقته بفاسكو دي غاما (انظر الخريطةرقم ١).

«الأرجوزة المعلقية» تتألف من (٢٧٣) بيت وصف فيها المجاري وقياساتها من بر الهند إلى بر سيلان وجاوه وسومطرة ومعلقة (مالاقا) وذكر ما في هذه المجاري والطرق من جزر وشعب ونتخات (٢٠). مطلعها:

عزمت والعزم حميد السفر
لاسيما من بلدة فيها ضرر

ومنها :

من أرض كاليكوت بالعناية
باول الستين قبل المابة

«الأرجوزة التائية» على البحر الطويل وتتألف من (١٥٥) بيت، وصف فيها المجاري والطرق وقياساتها من ميناء جدة إلى عدن ومطلعها:

سرت نسمة الفردوس من ارض مكة
بريح الصبا فاشتاقت السير حلبتي

نشرها وحققها مع الأرجوزتين المعلقية والسفالية عن نسخ خطية في معهد الاستشراق التابع للمجمع العلمي السوفييتي المستشرق تيودور شوموفسكي(٢١) عام ١٩٥٧ م ثم ترجمها إلى الروسية وذيلها بفهارس ومصطلحات ملاحية فلكية وتعد تتمة لما نشر منها في باريس.

«الأرجوزة السبعية» سميت بذلك لاشتمالها على سبعة من علوم البحر تتألف من (٣٠٥) بيت نظمها عام ٨٩٦ هـ/ ١٤٩٠ م، وفي رواية عام ٨٨٨ هـ/ ١٤٨٣ م ومطلعها:

تبارك الرب الذي هدانا
في بحره المسجور إذ انجانا

منها نسخة خطية، ضمن مجموعة تشتمل على الأرجوزة الهادية في علم البحر، وقصيدة في علم البحر ومؤلفات سليمان المهري في مكتبة باريس الوطنية برقم (٥-٢٠٠٩).

«**الأرجوزة الهادية في علم البحر**» وتتألف من (١٥٥) بيتاً مطلعها:

الحمد لله الحسيب الهادي

في بره والبحر للرشاد

ذكر فيها قياس النجوم والنتخات وأسفاره من بر العرب إلى سواحل بلاد أخرى. نقلها إلى التركية سنة ٩٦٢ هـ/ ١٥٥٤ م سيدي ريس علي بن حسين ونشرها في أحمد آباد ضمن كتابه «محيط» نسختها الخطية في باريس ضمن مجموع برقم (٢٠٠٩)، طبعت مع مؤلفات «سليمان المهري البحار» ضمن مجموعة باريس البحرية عام ١٣٤٤ هـ/ ١٩٢٥ م وترجمت إلى الفرنسية وطبعت عام ١٣٤٧ هـ/ ١٩٢٨ م.

«**قصيدة في علم البحر**» تتألف من (٣٣) بيت، مطلعها:

خليلي هيا واسمعا در منطقي

فلا عاش من يخفي العلوم ولا بقي

نسختها الخطية في مكتبة باريس الوطنية ضمن مجموع برقم ٢٠٠٩.

«أرجوزة قسمة الجمة على أنجم بنات نعش بالتمام والكمال» نظمها عام ٩٠٠ هـ، وتتألف من ٦٨ بيتاً، مطلعها:

ياقاسم الأرزاق لم ينس احد

فرد غياث المستغيثين صمد

«**القصيدة البائية المسماة بالذهبية**» على البحر الطويل، تتألف من (١٩٣) بيت نظمها حوالي عام ٨٨٣ هـ/ ١٤٧٨ م، مطلعها:

بدات باسم الله ربي وخالقي

ومستخلص في جيرتي واقاربي

وتبحث في المرق(٢٢) والمغرز(٢٣) والعمل عليه(٢٤) والمنكاب والأشاير(٢٥) كالطين والأرياح وصحة الترفا(٢٦) على الرأس في أيام الغلق(٢٧) والنتخات بالكوس(٢٨).

«**قصيدة نادرة الأبدال في الواقع**»(٢٩) وذبان(٣٠) العيوق»(٣١): رائية على البحر الطويل، تتألف من (٦٨) بيتاً وفي رواية من (٥٧)، نظمها على الأرجح قبل عام ٨٩٥ هـ/ ١٤٨٩ م، مطلعها:

تركت اشتغالي بالمها والجاذر

وصرت مغرى بالنجوم الزواهر

وفيها ذكر لبعض أسفاره وقياساتها، منها نسخة خطية ضمن مجموع في الظاهرية.

«**قصيدة الأبدال تقاس على ستة وجوه**»: ميمية على البحر الطويل تتألف من (٦٤) بيتاً مطلعها:

سهاد حكت عيني عصارة عندم(٣٢)

وكل نجوم الليل تسال عن دمي

نسختها الخطية في الظاهرية ضمن مجموع كتب عام ٨٩٤ هـ/ ١٤٨٨ م. وفيها ذكر لارتفاعات النجوم بست طرق متنوعة.

«**أرجوزة بر العرب في خليج فارس**»: تتألف من نحو (١٦٠) بيت. لا يعرف تاريخ نظمها، مطلعها:

ياطالعاً من آخر الفرات

والبصرة الفيحاء خذ وصاتي

ويتحدث فيها عن الخليج العربي وجزره.

«**قصيدة مواسم السفر**»: نونية على البحر الطويل، تتألف من (تسعة عشر) بيتاً.

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

«أرجوزة في النتخات لبر الهند وبر العرب وجاه اثناعشر لجاه أصبع من كل بر»: تتألف من ٢٥٥ بيت. يتحدث فيها عن سواحل الهند الغربية وشبه الجزيرة العربية. مطلعها:

يا طالب النتخة بالحقايق

من كل بر بقياس فايق

«قصيدة في عدة أشهر الرومية وكل شهر كم هو»: نونية على البحر البسيط من (ثلاثة عشر) بيتاً مطلعها:

خيار شهور الروم يا خير خلاني

نظمت إلى القاصي من الناس والداني

ثلاثين نيساناً حزيران مثله

وايلول ايضاً ثم تشرينك الثاني

«القصيدة المخمسة»: من (سبع عشرة) مخمسة نظمها عام ٩٠٦ هـ/ ١٥٠٠ م ذكر بها الكواكب التي يستفاد منها في الملاحة ومطلعها:

تامل وشاور واسهر الليل واعزم

وحقق ودقق واحفظ السر واكتم

واصبر واجمل ما سمعت لتسلم

لتبقى رئيساً في الرجال مقدم

تامل وشاور واسهر الليل واعزم

«القصيدة المكية»: رائية على البحر الطويل، تتألف من (١٧٢) بيتاً. يتحدث فيها عن أهل مكة والسفر من جدة إلى سواحل المحيط الهندي ومطلعها:

فؤادي اسير الحي من شعب عامر

احوم عليها بالدجى والهواجر

«أرجوزة منازل القمر»: وتتألف من (ثمانية و اربعين) بيتاً.

أرجوزة ضريبة الضرائب: رائية من (١٩٢) بيتاً، نظمها عام ٩٠٠ هـ/ ١٤٩٤ م ذكر بها القياسات الفلكية التي توصل إليها في أثناء عمله بالملاحة البحرية، ومطلعها:

شباب براسي اعجب الناس من امري

اتاني عقيب الشيب في اخر العمر

القصيدة الفايقة: نونية على البحر البسيط، من (٥٧) بيتاً، وهي في قياس الضفدع ويسمى فم الحوت اليماني ويسمى بساكب الماء ويسمى الظليم الفرد ويسمى النهر وقيده سهيل (وكلها أسماء نجوم) ومطلعها:

اقول والفلك تجري بالشراعين

في ليلة ما ترى فيها الكرى عيني

نسختها الأصلية في القاهرة برقم (٦ -٤٥).

القصيدة العربية أو قصيدة كنز المعالمة وذخيرتهم في علم المجهولات في البحر والنجوم والبروج وأسمائها وأقطابها: لامية من البحر البسيط، من (٧١) ويقال (٧٢) بيتاً، نظمها قبل عام ٩٠٠ هـ/ ١٤٩٤م ومطلعها:

يا ايها الناس، ماذا شئتمو قولوا

الأرض معلومة والبحر مجهول

من اجل ذلك قالوا إنه خطر

وراكب البحر مفقود ومخبول

أرجوزة حاوية الاختصار في أصول علم البحار، من (١٠٨٢) بيتاً، في (أحد عشر) فصلاً مع مقدمة في نحو (اثنين و عشرين) سطراً، نظمها عام ٨٦٦ هـ/ ١٤٦٢ م وتعد من افضل أرجوزاته، وهي حاوية لكل ما يحتاج إليه الملاح وما يجب أن يعرفه مطلعها:

الحمد للخالق ذي الجلال

القاهر الفرد بلا مثال

وفيها يقول :

ARCHIVE http://Archivebeta.Sakhrit.com

تغير الأمواه في الحالات
يحصل من طل ومن حيّات
حتى يصير الماء مثل النور
فذاك لا يخفى على النحري

ويعلق الدكتور أنور عبدالعليم على هذه الأبيات بقوله: «وهذه ملاحظة هامة جديرة بالاعتبار، وإن دلت على شيء فعلى أن ملاحنا العربي كان قوي الملاحظة، فإنه يدون هنا ربما لأول مرة ظاهرة الإضاءة الفوسفورية التي تنجم عن حيوانات وكائنات دقيقة تعيش في تجمعات عظيمة على صفحة الماء، وينبعث منها ضوء جميل بالليل يضيء صفحة الماء، وهذه ظاهرة تبدو من آن لآخر في أنحاء متفرقة من المحيط الهندي، وتدل في أحوال كثيرة على تغير طبيعة الماء».
ونسخة الحاوية الخطية في مكتبة باريس الوطنية ضمن مجموعة برقم (٥ - ٢٥٥٩) كما ذكر بروكلمن (انظر اللوحة رقم ٥).

الأرجوزة المعربة التي عربت الخليج البربري وصححت قبلته أو قياسه:
وتتألف من (١٧٨) بيتاً. فرغ من نظمها في ٩ محرم عام ٨٩٠ هـ/ ١٤٨٥ م. ذكر بها عن المجاري (الطرق البحرية) في سواحل البحر الأحمر الغربية وصفاتها والمناتخ فيها، مطلعها:

يا سائلي عن صفة المجاري
ثم قياس الأنجم الدراري
وعن صفات البر والديرات
ديرة المطلق افهم صفاتي

نسختها الخطية في القاهرة برقم (٦ - ٥٨) كما يذكر بروكلمن.

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

أرجوزة سمت قبلة الإسلام في جميع الدنيا وتسمى تحفة القضاة:
وتتألف من (١٣٦) بيتاً، نظمها عام ٨٩٣ هـ/ ١٤٨٨ م قدّم لها بمقدمة نثرية ثم بيّن شعراً كيفية تحديد القبلة في البحر والبنادر بأربع طرق في حالة وجود بيت الإبرة (البوصلة أو في حالة عدم وجودها) مطلعها:

باسم الله المستعان ابتدي
مصلياً على النبي الأحمدي

نسختها الخطية في مكتبة الأزهر ضمن مجموعة بعنوان «تحفة القضاة في معرفة القبلة». نشر هذه المجموعة «فران» عام ١٩٢١ - ١٩٢٣ م وشرحها حسن صالح شهاب عام ١٩٩١ م منشورات اتحاد كتّاب الإمارات العربية.

كتاب الفوائد في أصول علم البحر والقواعد:
فرغ من تأليفه عام ٨٩٥ هـ/ ١٤٨٩ م، يتحدث فيه عن سير السفن بمعرفة منازل القمر ومهب الرياح ومعرفة القبلة.. نشر «ستوموفنسكي» دراسة عنه وظل يدرس في مدارس أوروبة البحرية حتى أواخر القرن التاسع عشر. ترجم إلى الإنكليزية. حققه إبراهيم خوري وعزة حسن صدر ونشرة مجمع اللغة العربية بدمشق عام ١٣٩٠ هـ/ ١٩٧١ م. منه نسخة في الظاهرية ضمن

مجموعة برقم (٣١١٤) من [ق ١ - ٩٩ ب] وتضم عدة أراجيز في علوم البحر وجميعها لابن ماجد ماعدا أرجوزة واحدة منسوبة لعلي بن أبي طالب في معرفة المنازل وحقيقتها في السماء وأشكالها وعددها على التمام والكمال. وعدد أبياتها (٤٧) بيتاً مطلعها:

الشرطين فهو راس الحمل

إذ بدا في وقته المعتدل

ثلاث نجمات كما خط الألف

لكنه عن القوام منحرف

ونسخة في مكتبة علي محمد التاجر الخاصة في البحرين وهي من أصح النسخ وأقومها، ولو أن خرما فيها أضاع ثلاث فوائد في الورقة (١٦٣) وهي ضمن مجموعة [ق ١١٧/ ب - ١٢٠٦/ أ] فرغ من نسخها ملا أحمد بن محمد بن راشد الغافري عشية يوم الخميس لأربع ليال خلون من شهر الحج عام ١٠٩١ هـ/ ١٦٨٠ م. ونسخة أخرى في باريس ضمن مجموعة برقم (١ - ٢٢٩٢) [ق ١ - ٨٨/ أ] وتضم هذه المجموعة عدة أراجيز لابن ماجد وأرجوزة لعلي بن أبي طالب ونقلت عن نسخة فرغ الناسخ من نسخها يوم الأحد ١٧ ربيع الثاني عام ٩٨٤ هـ/ ١٥٧٦ م. نشر المستشرق «غابرييل فران» صورة لهذه المجموعة عام ١٩٢١ - ١٩٢١ م في باريس. وفي مكتبة جامعة القاهرة نسخة مصورة برقم (٣٧٤٥) بعنوان «القوالب في أصول علم البحر والقواعد والأراجيز والقصائد).

ثمانية فصول في أغراض بحرية مختلفة: نشرت وطبعت في المجلد الأول لمجموعة باريس البحرية عام ١٣٤٢ هـ/ ١٩٢٣ م بعناية المستشرق الفرنسي «فران».

ثلاث أزهار في معرفة البحار: تحقيق ونشر تيودور شوموفسكي ترجمة الدكتور محمد منير موسى - القاهرة ١٩٦٩.

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

المراسي على ساحل الهند الغربية.

الطريق البحري بين الهند والساحل الشرقي من إفريقية إلى برسيلان وجزائر أندونيسيا.

الطريق من جدة إلى عُمان.

الميل : بالوصل ٢٨٠ - ٦٧ - أ.

رسالة فكرة الهموم والغموم والعطر المشموم في العلم المبارك المقسوم في العلامات والمسافات والنجوم:

تبحث في السنين القمرية والشمسية والكبائس وعلم المجاري والنجوم ومنازل القمر وحلول الشمس في البروج وعلم الأيام والساعات والدقائق وزيادة الليل والنهار. كما تشتمل على اصطلاحات في علم البحار وصور لمراكب الشمس وقرصها في أوضاع مختلفة، نسختها الخطية في مكتبة ڤيينا، حققها تشوموفيسكي. يقول الدكتور عبدالعليم ص (٩٨): «أما الرسالة التي يقال أنها موجودة في الموصل تحت اسم الميل وتلك المحفوظة في ڤيينا بعنوان (فكرة الهموم والغموم..) فلا نعلم على وجه اليقين عما إذا كانتا لابن ماجد أو لغيره والأغلب أنهما نسبتا خطأ إليه».

* *

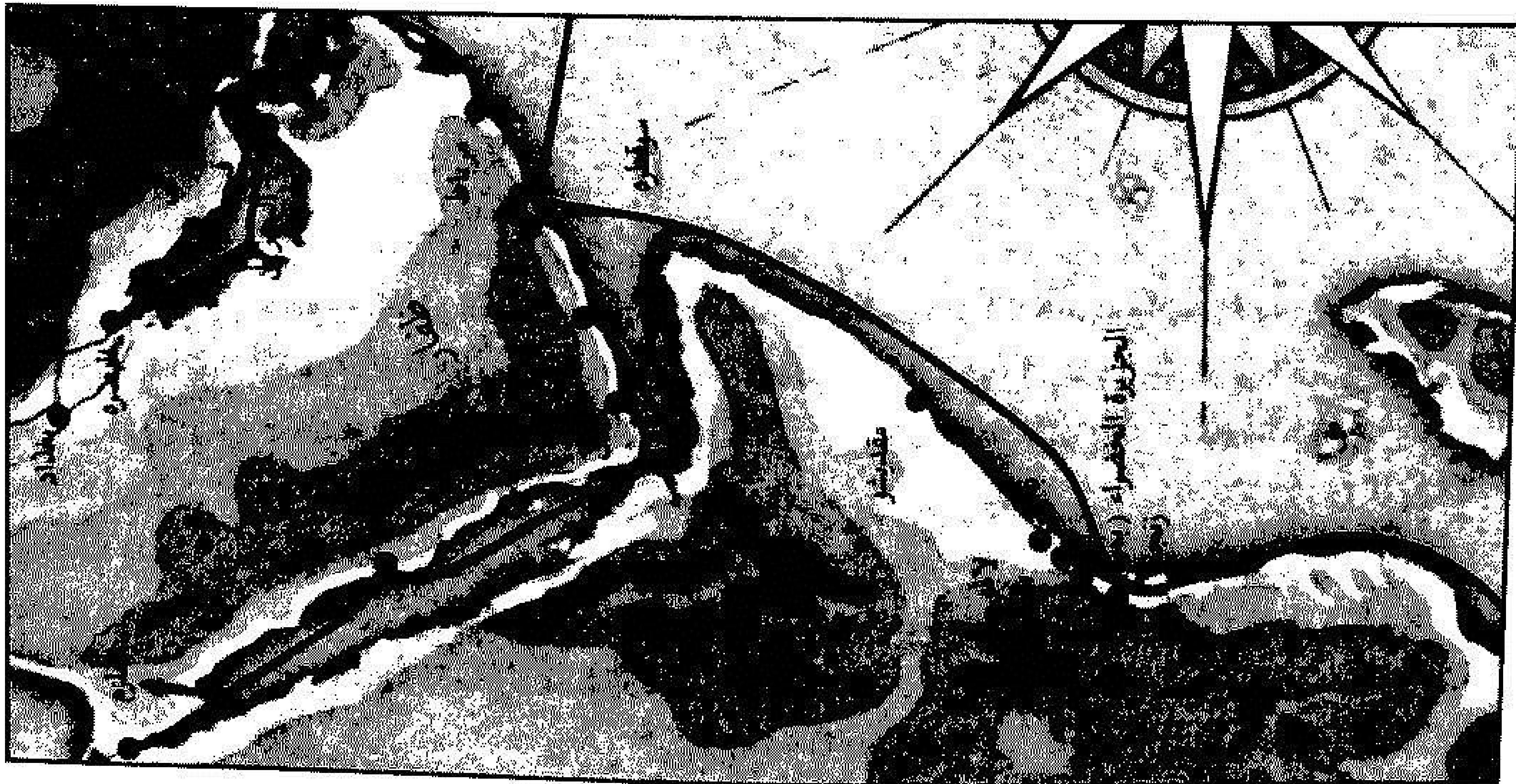
آثاره المفقـــودة:

وقد جاء ذكرها في بعض قصائده وآثاره، وفي بعض المصادر التي ترجمت لحياته، ولم يعثر عليها حتى الآن، لعلها دثرت أو ماتزال راقدة على رف من رفوف مكتبة من المكتبات العالمية أو الخاصة، وهي:

- مطوّل كتاب الفرائد في أصول علم البحر والقواعد (يظن أنها نسخة أولى مطولة).
- ضريبة الضرائب - نسخة أولى.
- القصيدة الذهبية النسخة الأولى والثانية.
- شرح الذهبية.
- قصيدة ميمية العبرات.
- قصيدة لامية في السبعة السيارة وساعات الليل والنهار.
- قصيدة الترفا (دالية).
- قصيدة نونية صغيرة.
- قصيدة نونية كبيرة.
- قصيدة قياس الجاه (٣٣)(نونية).
- أرجوزة قياس التير (٣٤) والسلبار (٣٥).
- ميمية في قياس السماكين(٣٦).
- عينية في قياس المسافات.
- قصيدة رائية الغلق.
- قصيدة رائية الكل.
- قصيدة تائية في القياس الأصلي.
- أرجوزة الأرباع.
- أرجوزة قياس المربعين الأوسطين.
- لامية في قياس السلبار والواقع.

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

□ □ □



خريطة تبين المكان الذي التقى فيه ابن ماجد بفاسكو دي غاما

مصادر ترجمة ابن ماجد :

- العيدروسي، عبدالقادر : «النور السافر عن أخبار القرن العاشر» ١٩١ - ١٩٢، بغداد ١٣٥٣ هـ/ ١٩٣٤ م.
- النهروالي، محمد بن أحمد: «البرق اليماني في الفتح العثماني» ١٨ - ١٩، بغداد، ج ٨، ٣٥٣ هـ/ ١٣٧٦ م.
- العزاوي، عباس: «علم الفلك في القرآن»، ٢٣٨ - ٢٤٥.
- الزركلي : «الأعلام» ١/ ١٩٠ - ١٩١، بيروت: ط ٣، ١٣٨٩ هـ/ ١٩٦٩ م.
- سركيس، يوسف اليان: «معجم المطبوعات العربية والمعربة»، ٢٣٠ - ٢٣١، مصر ١٣٤٦ هـ/ ١٩٢٨ م.
- فروخ، عمر: «تاريخ العلوم عند العرب» ٢١٠ - ٢١١، بيروت: دار العلم للملايين ١٩٨٤ م.
- كحالة، عمر رضا : «معجم المؤلفين» ٢/ ٥٥ - ٥٦.
- ابن الحسين، سيد علي: «المحيط في علم الأفلاك والأبحر».
- عبدالعليم، أنور: «الملاحة وعلوم البحار عند العرب» ١٣٢ - ١٣٥ عالم المعرفة ع ١٣، الكويت.
- عثمان، شوقي عبدالقوي: «تجارة المحيط الهندي في عصر السيادة الإسلامية» ٩٧ - ١٠٧ عالم المعرفة ع ١٥١، الكويت.
- حورانية، جورج: «العرب والملاحة في المحيط الهندي في العصور القديمة وأوائل الوسطى» ٢٣٧ وصفحات أخرى.
- المهري، سليمان بن أحمد: «العلوم البحرية عند العرب»، تحقيق إبراهيم خوري.
- خوري، إبراهيم: «مقدمة كتاب الفوائد في أصول علم البحار والقواعد».
- خوري، إبراهيم: «أحمد بن ماجد» أربعة أجزاء. منشورات مركز الدراسات والوثائق في الديوان الأميري برأس الخيمة، سلسلة الملاحة العربية.
- حميدة، عبدالرحمن: «أعلام الجغرافيين العرب» ٦١٥ - ٦٢٦، دمشق: دار الفكر، ١٤٠٤ هـ/ ١٩٨٤ م.
- شهاب، حسن صالح: «أرجوزة تحفة القضاة»، منشو
- رات اتحاد كتّاب وأدباء الإمارات ١٩٩١ م.
- الحموي، محمد ياسين: «الملاح العربي أحمد بن ماجد».
- مؤنس، حسين: «تاريخ الجغرافية والجغرافيين في الأندلس» ٢٦٨ - ٢٧٨.
- عزرهمان: «الموسوعة الإسلامية» ٥/ ٣٧٥ - ٣٨٤.
- بروكلمن: «تاريخ الأدب العربي» ٢/ ٢٢٩ - ٢٣٠ - ملحق ٢/ ٢٣٠ - ٢٣١.
- كراتشكوفسكي: «تاريخ الأدب الجغرافي» ٢/ ٥٧١.
- سوموفسكي: «ثلاث راهمانجات مجهولة لأحمد بن ماجد».
- المجلات والمؤتمرات:
- التراث العربي - دمشق: ١٩٨٠ ع ٣ ص ٢٣٢ - ٢٣٣ ياسين عبداللطيف: «مناقشة لمصادر قضية أحمد بن ماجد».
- التراث العربي - دمشق: ١٩٨٥ ع ٢٠ ص ٨٨ - ١٠٨ إبراهيم خوري «حياة ابن ماجد».
- التراث العربي - دمشق: ١٩٨٥ ع ٢١ ص ١٧٢ - ١٩٨ إبراهيم خوري «مؤلفات ابن ماجد»
- المجمع العلمي العربي بدمشق: مجلد ١ ص ٣٣ - ٣٥، ٢٨١ - ٢٨٦.
- المجمع العلمي العربي بدمشق: مجلد ٢٣ ص ١٣٩ - ١٤٦ عزة النص.
- معهد المخطوطات: ع ٤ ص ٢٤٧ - ٣٥٠ ع.
- لغة العرب: عام ١٩٣١ م ع ٩ ص ٣١٠ - ٣١١، ٤٠١ - ٤١٢ داود الحلبي.
- صوت البحرين: السنة الثانية ع ١٢ ص ١١ - ١٢ عبدالرضا الجبيلي.
- البيان في النجف: ع ٣ ص ٣٩٢ - ٣٩٣ عبدالحميد الدجيلي.
- المجلة المصرية: ١٩٥٧ ع ٦ ص ٤٩ - ٥٢.
- المجلة المصرية: ١٩٥٨ ع ٢٤ ص ١٢٧.

- السياسة الأسبوعية: ١٣٩٢ هـ عدد ذي القعدة، هيوبرت برد.
- جريدة أم القرى: مكة المكرمة ١٣٤٧ هـ عدد جمادى الثانية ورجب - رشدي ملحس.
- الموسم الثقافي الخامس في الكويت: ١٩٥٩ محاضرة عبدالهادي هاشم - سورية بعنوان «ليث البحر احمد بن ماجد».
- القافلة : الظهران: ١٤٠٨ هـ/ ١٩٨٨ م ع تموز/ يوليو ص ٣٨ - ٤١ عصام ميداني: «ابن ماجد ملاح جغرافي وشاعر».
- الخفجي : السعودية: ع كانون الأول/ ديسمبر ١٩٨٩ ع ٩ ص ٢ - ٥: عصام ميداني: «العرب والبحر».
- الخفجي : السعودية: ديسمبر ١٩٨٩ عدد ٩ ص ١٠ - ١١ محمد بسام ملص: «هل أرشد ابن ماجد فاسكو دي جاما في رحلته إلى الهند».

الحواشي :

١ - بروكلمن، تاريخ الأدب العربي، ملحق ٢/ ٢٣٠.
٢ - معلق : قدح أو علبة ضخمة من جلد الإبل يحفظ بها حليب أو ماء للشرب اثناء الاسفار خفيفة الوزن يستخدمها أصحاب القوافل او الرعاة، (لسان العرب: علق).
٣ - الركائب : جمع ركاب بكسر الراء، الابل التي تحمل البضائع أو الرجال، (لسان العرب: ركب).
٤ - السعدي : نسبة إلى سعد بن قيس بن عيلان بن مضر بن نزار، كما ورد في قصائد ابن ماجد «ضريبة الضرائب» و«الذهبية» و«المكية» وفي البيت (٦٩١ من الارجوزة السفالية). انظر «جمهرة النسب لابن الكلبي ٢/ ١ وما بعدها تحقيق محمد فردوس العظم، وتاريخ أبي الفداء ١/ ١١، تاريخ ابن خلدون ٢/ ٣٠٥، تاج العروس ٨/ ٤٠، معجم ياقوت ٢/ ٧٤٣، لسان العرب ٨/ ٧١، معجم قبائل العرب لكحالة ٣/ ٩٧٢.
٥ - المعقلي : نسبة إلى معقل بن سنان كما يرجح، من قبيلة أشجع الغطفانية، وهي من أحياء قيس بن عيلان، وينسبه عباس العزاوي إلى نهر معقل في البصرة من العراق، فيقول إنه من مواليدها.
٦ - النجدي : نسبة إلى نجد اليمن وليس نجد الحجاز. كما في «الفوائد في أصول علم البحار والقواعد» حيث يقول:

تهامة مشتانا ونجد مصيفنا ... ونجران وادينا الذي نتخرف

ثم يقول في شرح البيت: «المراد بنجد هنا صعدة وماليها..». ويؤكد المقدسي قوله هذا في كتابه «أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم ص ٦٩» حينما يصف اليمن قائلاً: «واما اليم فقسمان: ماكان نحو البحر.. فهو غور واسمه تهامة وقصبته زبيد.. وأما ماكان من ناحية الجبال فهو بارد تسمى نجداً، قصبتها صنعاء ومن مدنها صعدة..».
٧ - المقصود بخطوط الشول اللغة التاميلية.
٨ - جلفار : ميناء على الساحل الجنوبي الغربي من الخليج العربي حيث تقع الآن إمارة راس الخيمة (انظر موقعها على الخريطة المرفقة).
٩ - غب عمان : وغب : ماء البحر الداخل أو الممعن في البر، المقصود جون أو خليج عمان، (انظر لسان العرب مادة غب).
١٠ - صعدة : من أهم مدن اليمن، تقع في الشمال قرب الحدود مع السعودية.
١١ - ماليندي : ميناء في مملكة كمبايا أي كينيه في الوقت الحاضر وهي قرب مدينة ممباسا الحالية. تقع على مقربة من خط العرض ٥٥٣ درجة جنوب خط الاستواء، ويجانبها شعب الملندي وعمود فاسكو دي جاما وهما من المعالم الملاحية على الخرائط الحديثة (انظر أنور عبدالعليم: ابن ماجد الملاح ص ٢٨) والمعروف أن هذا الساحل الإفريقي كان دويلات مستقلة بعضها عن بعض، وكان يحكمها سلاطين عرب من الشحر وحضرموت

جنوب شبه الجزيرة العربية.

١٢- البرق اليماني ١٨- ١٩

١٣- البيت ٢٨١

١٤- القصيدة المكية البيت ٢٣

١٥ - الأخنان : أي أقسام الإبرة، مفردها خن وهو جزء من ٣٢ جزء من أقسام البوصلة.

١٦ - الحقة : بيت الإبرة المغناطيسية.

١٧ - الراهنامجات : كلمة فارسية معربة، من كلمتين، راه بمعنى طريق ونامه بمعنى كتاب، أي مرشد الطريق.

١٨ - الإسطرلاب : آلة قياس ارتفاع الشمس والنجوم، وهي قرص مستدير مقسم إلى ٣٦٠ درجة، به ذراع متحرك مثبت من المركز ومؤشر يتخذ الموضع العمودي على الأفق وعند استعماله يحرك الملاّح الذراع على الدائرة ليقيس الزاوية بين النجم القطبي مثلاً والاتجاه الراسي الذي يدل عليه المؤشر، وعلى ذلك تكون الزاوية المكملة للزاوية المحصورة بين الذراع والمؤشر مساوية لارتفاع القطب فوق الأفق.

١٩ - ربع الدائرة : وتعرف اليوم باسم «الكوادرنت» وهي آلة تمثل قوساً قدره ٩٠ درجة من الإسطرلاب، وتقيس ارتفاع الأجرام فوق الأفق عن طريق قياس زاوية الظل وهي اختراع عربي كالإسطرلاب، نقله الأوروبيون زمن الحروب الصليبية.

٢٠ - نتخات : مفردها نتخ أو ندخ وتعرف على الطريق الملاحي بمعالم جغرافية أو ملاحية لضبط الطريق وبخاصة عند الدخول في الموانىء، وأصل الفعل ندخ بمعنى صدم، ومنه الندخة أو النتخة. (انظر أنور عبدالعليم: «الملاح أحمد بن ماجد» ص ١٦١).

٢١ - شوموفسكي : أستاذ تاريخ الأدب العربي القديم في الكلية الشرقية في لينينغراد (بطرسبرغ) في روسيا.

٢٢ - المرق : اللجوء إلى الشاطىء، منها إرقاق.

٢٣ - المغزر : الخروج للبحر الطليق أو الابتعاد عن الشاطىء، ومنها إغزار.

٢٤ - المنكاب : والمرجح أنها المنكام أي الساعة ذات الآلات الميكانيكية الفيزيائية لضبط الوقت واستخراج الطوالع من الكواكب وأجزاء علم الفلك (انظر السنجاري: «إرشاد القاصد» ص ١٩٢).

٢٥ - الأشاير : جمع إشارة أي العلامات التي يستدل بها الملاح على طريقه في البحر من معالم جغرافية أو فلكية أو غيرها تتعلق بطبيعة البحر أو القاع أو الطيور أو الأسماك وغيرها.

٢٦ - الترفا ، أو ترفى: كلمة فارسية بمعنى مقياس تعادل أصبعاً واحداً من قياس الارتفاع، أو المسافة التي يتغير فيها خط العرض بمقدار أصبع واحد.

٢٧ - الغلق ، أو غلق البحر: أي قفله في مواسم غير ملائمة للسفر.

٢٨ - الكوس : الرياح الموسمية الغربية (انظر عبدالعليم «ابن ماجد الملاح» ص ١٥٩ - ١٦١).

٢٩ - الواقع : نجم يستدل به الملاحون في رحلاتهم البحرية.

٣٠ - ذبان : وحدة لقياس الارتفاع تساوي أربعة أصابع.

٣١ - العيوق : نجم يقع على بعد ٤٥ درجة تقريباً من القطب الشمالي من الناحية المضادة للدب الأصغر ويكون مع نجمي إبط الجوزاء ومقدم التوامين مثلثاً متساوي الأضلاع «انظر ابن ماجد الملاح» ص ١٥٩ - ١٦١).

٣٢ - عندم : خشب يستخدم للصباغة، ويقال له أيضاً دم الأخوين أبو البقم، (المنجد مادة عندم).

٣٣ - جاه : النجم القطبي الشمالي.

٣٤ - التير : من النجوم التي يهتدي بها ربابنة السفن.

٣٥ - السلبار : نجم ويقال له سندبار.

٣٦ - السماكين : السماك الرامح وهو نجم لامع يقع على امتداد انحناء ذيل الدب الأكبر، والسماك الأعزل ويقع على امتداد انحناء ذيل الدب الأحمر بعد مرور السماك الرامح (انظر عبدالعليم: «ابن ماجد الملاح» ص ١٣٢ ١٣٣).